روايات الهلال

لا أحد يقفز فوق ظله

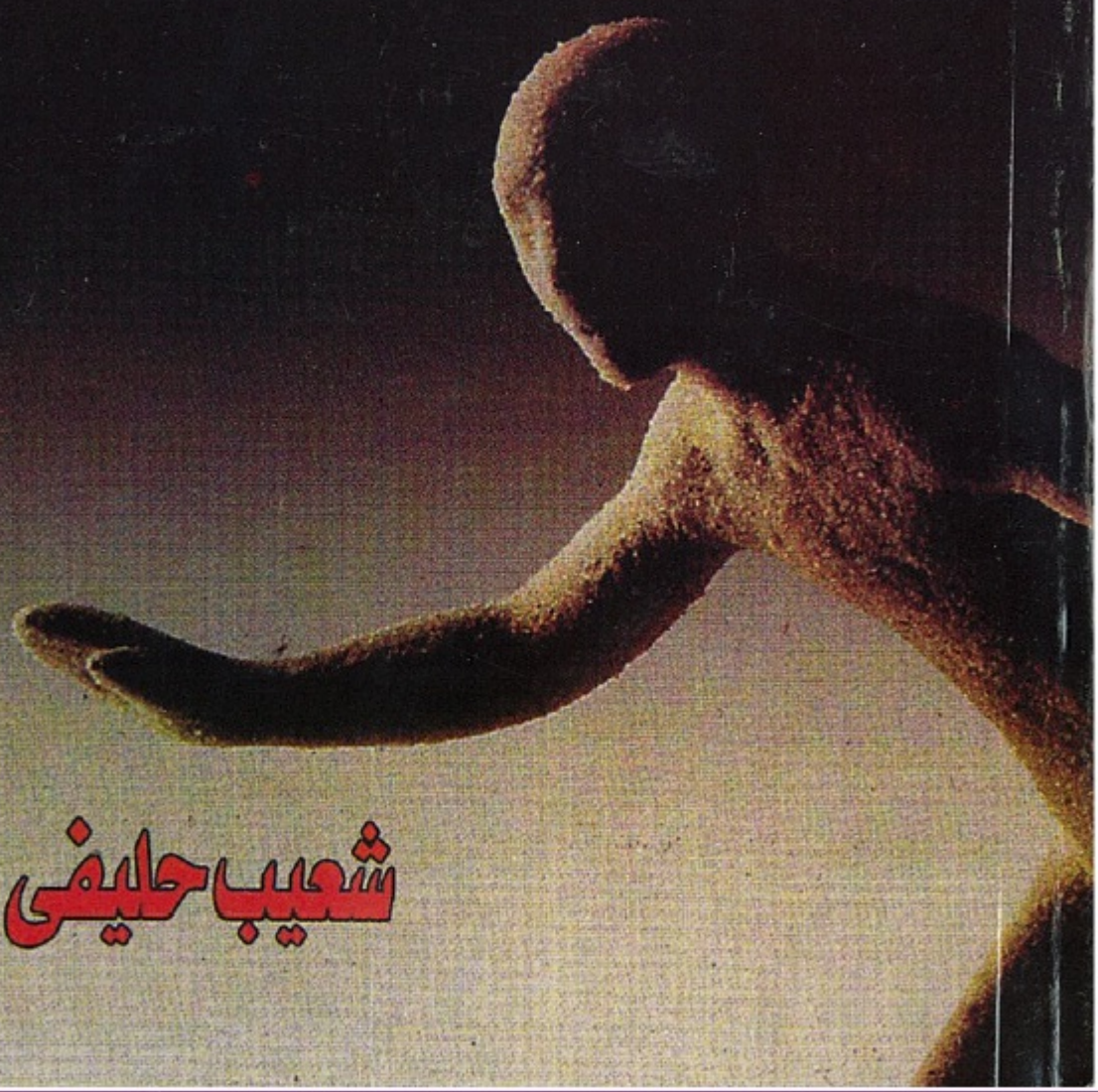

شعيب حليفى

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

لا أحد يقفز فوق ظلّه

الاحتمالات العشر
لكتابة رواية واحدة

شعيب حليفى

دار الهلال

رقم الإيداع : ٢٠١٢/٤٣٣٠

الترقيم الدولى I.S.B.N: 977-07-1529-8 X

يوميات
روائية

حكايات
للبداية

حكايات زمن سُوقِ السَّبت وحُكْمُ

بويا على البَشَرْ

وحـــلاقـــة الرأس التي لا تهم إلا صاحبها...

* مايو شهر التحولات والتقلبات، فيه تنمو، بعد الحصاد، كل الكلمات الرَّاقِدَة وكافة الإشاعات التي تطوف بالنفس والخاطر.. ويعودُ الوجدانُ إلى تَفَقُّد رُسُومِه وحيطانه بحثا عن مواقع ظليلة يتجنب فيها الصهد القادم.

يوم السبت ثالث مايو: مفاوضات لاتنتهى

فجر مايو يجري مثل نهر متعجل بمياه تغتسل بدفء غير طارئ.

كنتُ بسوق السبت (وهو من أكبر أسواق الشاوية للاتجار في جميع أنواع البهائم، يؤمه الفلاحون والتجار) إلى جانب والدي محمد بن عبد السلام، نحتسي الشاي ساخنًا وفي أيدينا كسرات خبز محشوة ببيض، داخل قيطون المعلم صالح في الجهة الشمالية من رحبة الأبقار. ومن حين لآخر يرفع بويا رأسه إلى الثلاث بقرات المعروضة للبيع، كلما أقبل مشتر يُقلِّب ويسأل.

الزمن في سوق السبت متعدد، نموذج فريد لتقاطع الأزمنة الخاصة المتحققة في نفس الزمن الفيزيقي، فكل مساحة فيه مزدوجة الصورة والدلالة، فارغة ومتلاشية، توهم بالذوبان والفراغ لكنها في الحقيقة عامرة بالحياة والتعلم.

محاطا باثنين من معاونيه، يجلسُ بويا محمد بن عبد السلام في مكانه المعتاد، يُراقبُ ويبيعُ ويشتري ويفاوض، وعندما يقتضي الأمر يحكم، لأنه الأمين المكلف بفض النزاعات، يحل المشاكل السابقة والآنية التي تقع بين رجالات السوق. الجميع يشهد له بالقدرة على استخراج الفتوى مما يسمعه من الأطراف المتنازعة، دون الرجوع إلى قوانين وضعية تعجز عن فهم طبائع السوق، وسوق السبت على الخصوص.

كنتُ دائما ومازلت، أعتبرُ سوق السبت مدرستي الأولى لاختبار درجات قوة وضعف الحقائق، فقد دخلتُه وعمري تسع سنوات مُفاوضا. ومن غرائب المنطق الذي يحكمُ الجدل، أن الكلام الذي تقوله يكون، في نفس الآن، لك

وعليك:معنى ظاهر يتيم مقابل معاني متعددة ولقيطة، في الباطن تتناسل. ومازلت كلما أحسست بالحاجة إليه وإلى أحكام بويا على الخَلْقِ، أشُدُّ إليه الرحال تلميذا راغبا في الجلوس أمام كبار المرجعيات.. والإنصات إلى علمهم اللَّدُني !!

رفيسة وبحر وعرق

عدتُ إلى الدار البيضاء مساء السبت لقضاء يوم الأحد مع أهل البيت. استفقتُ في الخامسة إلا الربع، قرأتُ فصلا من كتاب (ما بعد الكتابة، نقد أيديولوجيا اللغة)، كما قرأت ثلاثة بحوث لطلبة الإجازة. وابتداء من الساعة التاسعة والنصف تفرغتُ للجلوس مع السيد المحترم علاء(عشر سنوات) والفقيرة إلى الله مريم (ثلاث سنوات) وأختها الكبرى زينب ولية الرحمن (سبع سنوات).. وفي الواحدة كان غذاؤنا الرفيسة.. بناء على طلب جماعي..

بعدما نمت لساعة كاملة، كانت رغبتي في الرفيسة لا تزال قوية. ركبنا السيارة، كما أرادت مريم وقد طلبت ذلك منذ أسبوع بحركاتها في العوم، فاتجهنا نحو شاطئ عين الذئاب بمكان نعتبره ملكنا. لعبنا الكرة وركضنا لأزيد من ساعتين، وأثناء عودتنا في حوالي السادسة، كانت رائحة الحلبة قاسية علينا وعلى من يقترب منا.. فكان لابد من الذهاب إلى الحمّام، وقد رافقني علاء، أما مريم وزينب فستستحمان بالبيت.

في التاسعة والنصف، كان الجميع قد أنهى مراجعة دروسه، وإتمام ما تبقى من واجبات يوم السبت وهو قليل، ثم خلدنا إلى النوم.

الاجتماع المفتوح

باكرا، أكون أول المستفيقين بالبيت، ومباشرة يتبعني علاء، ثم تلحق بنا السيدة الأولى، تليها زينب فيما تتأخر مريم حتى السابعة والنصف أو أكثر. قرأتُ فصلا آخر من كتاب (ما بعد الكتابة..) ومقالة عن تاريخ النقود بالمغرب. ثم دوّنتُ في دفتر صغير عددا من الأفكار في خمس صفحات.. وختمتُ الصبيحة في السابعة والنصف بالاطلاع على البريد الاليكتروني. (اطلاعي على البريد يكون ثلاث مرات في الأسبوع ولا أتجاوز في كل مرة أكثر من نصف الساعة، قراءة وردودا).

في الثامنة والنصف خرجت من البيت متجها نحو الكلية. أنجزت حصة النقد مع طلبة الماستر. ومن العاشرة والنصف حتى الواحدة يبدأ الاجتماع المفتوح في مكتبنا بالكلية. أجلسُ برفقة زملائي في المختبر، نستقبل طلبة البحوث والدراسات العليا وبعض الزوار من كليات أخرى... نناقش ونهيئ ونقرر ثم نتشاور بالهاتف مع زملائنا الآخرين من خارج الكلية، أو أتكلف باللقاء معهم في جلسات بالمقهى.

(الاجتماع المفتوح، معناه أننا نبدأ أول اجتماعاتنا في بداية أكتوبر ولا نغلقها إلا في نهاية يونيو.. ويعتبره صديقي اجتماعا واحدا يدوم سنة دراسية كاملة. ولولا ظروف أخرى لجعلنا له الصيف أيضا ملحقا لهذا الاجتماع العجائبي !.)

بعد زوال نفس اليوم قدمتُ حصة في الأدب الإفريقي لطلبة سنة الإجازة، بعدها شاركت في اجتماعين، الأول بمقهى الشاوية بوسط المدينة، والثاني بساحة السراغنة، وكانا لأجل استكمال ترتيبات اللقاءات الثقافية القادمة.

رشاقة الجوندير

خرجتُ من الدار البيضاء، مع أول خيوط فجر يوم الثلاثاء، متجها نحو مدينة سطات، في موعد مع بويا لمباشرة انطلاق عملية الحصاد.

التاسعة صباحا خرجنا متعجلين، وكنا أربعة، على متن سيارتي. هاتفت للمرة الثانية أحمد سائق الجوندير" آلة الحصاد "، فأخبرني أنه بعين المكان، ببلاد النويلة، لحصاد أزيد من عشرين هكتارا من الشعير.

اليوم كله قضيتُه وسط حرارة صيفٍ مستعر وغبار الشعير الحارق.. اشتغلتُ – كما تعودنا منذ الصغر– في حمل الأكياس والتبن، أمر أعتبره جزءا من حبي للأرض وتعبيرا عن الذوبان الحقيقي في الصيرورة.

يوم كامل من الجهد الحقيقي، لا مكان فيه للسرد أو الوصف، غابت فيه النظريات وتلاشى البوليميك الخاوي والعامر والسرديات والمؤتمرات، وقُال لي وقُلْتْ لَكْ، وكل ما نلوكه يوميا بدون ملل. تليفونات، ترتيبات، آلو... آلو... آلو... آلو... والحقيقة أننا في الحقول عراة أمام الله الواحد القهار..إحساس بالطهرانية التي أتلمسها في أعماقي وبالعنف الداخلي الذي أحسه ولم يبرد إلا حينما جيء لنا بقصعة "كسكس" قبل العصر بساعة.. أكلنا في صمت وبنهم شرس.. لأكتشف أننا لم نغسل أيدينا قبل الأكل ولم نبسمل كما تعودنا.. ولكننا شعرنا (أو بالأحرى، يمكن أن أتحدث فقط عن نفسي) شعرتُ بارتياح فعدتُ إلى البَسْطِ مع الفلاحين بعدما انزوى والدي بعيدا، قرب السيارة.

وصلنا البيت في حوالي التاسعة والنصف ليلا، ووجدتُ أمي قد هيأت لنا عشاء دسما.. كانت غاضبة بود على ما أنا فيه... ارتميتُ بملابسي

لأستفيقَ في الصباح الباكر، حيث ذهبتُ إلى "حمّام أتراب "..نتُ منه إلى رشاقة أحسستُها.

أحلام القيلولة

التاسعة صباحا، وصلنا مقهى بوشتى حيث وجدنا الشيخ العبدوني وعددا قليلا من رواد هذا المقهى المُحبّين لشرب الشاي المعتق، فلاحين بالأساس وبعض باعة سوق السبت والشناقة، ولم أر. قطُّ، مثقفا أو رجل تعليم جالسا هناك.

جلسنا، أنا وبويا ومجموعة من الرجال، نشرب الشاي ونتكلم أو نتفاوض. في الساعة الحادية عشرة والنصف ذهبتُ عند القائد الذي لم أجده لتقديم شكوى باسم محمد بن عبد السلام ضد السلطات التي هدمت لنا حائطا وإسطبلا وردموا لنا بئرا دون وجه حق في أولاد سليمان بالعزيب القديم. عدت فأخبرت والدي فأرشدني أن أكلم الأستاذ المحامي أحمد نور اليقين.

في منتصف النهار، ترجّلنا صوب العدل بعد مكالمة منه يخبرنا بأن الذين سيبيعوننا أرضا فلاحية مجاورة لأرضنا قد وصلوا. فلم نمض عنده أكثر من نصف ساعة..قُضِيَ الأمْرُ واسْتَوتْ..

●●●

أهم شئ في النهار، تلك القيلولة الجميلة بعد وجبة "كسكس" من دقيق القمح. استفقنا في الثالثة فأوصلت والدي إلى حقولنا حيث توجد ضيعتنا، وهي على بُعد خمسة كيلو مترات من مدينة سطات بمنطقة عين نزا غ.

عدت فهاتفتُ "أمي فاطنة"، وهي سيدة تملك أرضا بأولاد بوزيري، كنا

اتفقنا معها أن تبيعها لنا، دون أن نُشعِر الذين تكريها لهم منذ سنوات.. أو تكشف لهم عن هويتي، ورتبتُ معها أن أرى الأرض ثم تؤسس لها عقد استمرار ملكية.

وصلنا خميسات الشارية بعد خمس وعشرين دقيقة من مدينة سطات.. توقفنا أمام باب الخيمة، فخرجت زوجة المكتري. رفضتُ دخول البيت في غياب صاحبه أو أي رجل فيه، بعدما ذهبوا جميعهم - كما قيل لنا- إلى حصاد حقل بمنطقة نائية ولن يعودوا إلا متأخرين.. فألححنَ عليَّ، وقد قدمتني إليها باعتباري ابن أخيها. دخلت بيتا واسعا ورحبا مفروشا بزرابي تقليدية. الجلوس أرضا بهذه الطريقة نعمة من الله. امرأتان وثالثة ممددة في ركن، تجاوز عمرها المائة، كما ستقول لنا مُستقبِلتُنا. تكلمت مي فاطنة معهن وقد صاغت حكاية محبوكة اقتنعن بها ونحن نشرب الشاي ونأكل البطبوط والسمن..ثم خرجنا فأرتني الأرض وعدنا أدراجنا إلى سطات.

يُومَكْ آرَاسِي !

بالدار البيضاء قضيتُ النصف الأول من يوم الخميس كله في مكتبي بالبيت، منذ الخامسة صباحا حتى الثانية عشرة والنصف. تكلمت من هاتفي مرتين ثم أغلقته..سائلا في شأن ترتيبات لقاء ثقافي بعد زوال نفس اليوم، يتدخل فيه ثلاثة باحثين من الماستر الذي أشرف عليه.

انعقد اللقاء وبعد انتهائنا تكلمنا مع الباحث المكلف بإنجاز المتابعة الصحافية وبعثها إلى من انتدبناه لمراجعتها قبل إرسالها إلى الفريق المكلف

بالإعلام في المختبر. خرجنا من الكلية إلى مقهى الحوزية، جلست وعبدالرحمن غانمي نتمم ترتيبات تخص لقاء ٢٣ مايو...

الساعة الثامنة افترقنا. اتجهت نحو ساحة السراغنة. اشتريت جرائد يوم الجمعة وبعض الفاكهة. وضعت كل شئ في السيارة، ثم عدت إلى أمر مهم خصوصا وأني مسافر في الصباح الباكر إلى فاس ثم الشاون.

صرتُ أبحثُ عن حلاق لم يسبق لي أن زرته..وهي حكاية تَخُصُّني.

كنتُ قبل سنة ٢٠٠١ لا أحلق رأسي إلا بمدينة سَطَّات عند عبد القادر، ما وقع بعد هذا التاريخ جعلني لا أسلم رأسي لحلاق واحد، وصرتُ في كل مرة أبحث عن حلاق جديد لا أعرفه ولا يعرفني.

ما وقع، أمر مرتبط بحكومة التناوب بالمغرب التي نُصبت في مارس ١٩٩٧ حيث كانت انتظاراتُنا كبيرة وطموحة، وأحسستُ مثل غيري، أنه علينا إنجاز جزء من وعودنا للمغرب والمغاربة. وبعد ثلاث سنوات من عمل الحكومة.."رَابَ"و"تَهَدْرَبَ"بمعنى انهدم واندرسَ كل شئ وسقطت أحلامنا في الطاس، وتبين لي أننا كنا سلَّمنا لهم رؤوسنا مثل يتامى/ رهائن تعلموا فينا الحكم والحجامة والتفنطيز والتعنتير... أحسستُ بخذلان كبير، فلم أجد ما أحتج به سوى الانسحاب من ساحة الحجامة، سنة ٢٠٠١، بعدما أخذت قراري بتحرير رأسي...

وهو أمر قد يبدو فيه نوع من العبث، ولكني أراه منطقيا بالنسبة لشَعري وشُعوري. ولم يحصل منذ تلك السنة أن زرتُ الحلاق الواحد أكثر من مرة.. وسيلزمني أربعمائة سنة إن أنا أردت أن أمُرَّ على كل حلاقي الدار البيضاء.

تذكرتُ بأنني صغتُ هذا الاحتجاج بطريقة شبيهة بما فعلت، في روايتي "مجازفات البيزنطي"، وأنا أصف شخصية العيساوي. قلت في الرواية:

"أصبح العيساوي واحدا من أهم الرواد الأربعة بمقهى بيزنطة، يجيد الحكي وبيع الكلام، وينتقل إلى حرفة أخرى، جوالا بالمدينة والأسواق، يبيع الفرح والضحك رفقة جحش مدرب، وبقي حتى أصبح الجحش حمارا غير قادر على لعب الأدوار القديمة التي تعلمها قبل ثماني سنوات، آنذاك قرر التقاعد عن أي عمل، وقد شجعه على قراره هذا تزامن عجز حماره مع إعلان أول حكومة تناوب في المغرب (مارس ١٩٩٧)، والتي اطمأن لها العيساوي كثيرا لأنها ستجعل المغاربة جميعا يتحررون من الفقر والخوف والقهر، وتذكر أيضا ذلك المناضل اليساري الذي عَبَّدَ له الطريق للذهاب إلى الهزيمة في حرب ١٩٦٧، فخمن أن حكومة التناوب ستفتح باب التطوع للجندية إلى فلسطين والعراق.

اكتفى بالجلوس في المقهى برفقة أصدقائه الآخرين يراقب التلفزة ويتابع أنشطة الحكومة ويستمع بإمعان إلى الوزير الناطق باسم الآخرين وإلى وزير الشغل وإلى الجميع... وبعد سنتين من الانتظار نطق بحكمته الشهيرة: " قالت الجرانة: هَا ذَا مَا آخُرْ ؟ !... لم يعد ينظر أبدا إلى التلفزة، وبدأ يحكي حكاياته وأخبار سلالته".

انتهى الحلاق من عمله. وقفتُ ونظرتُ في المرآة إلى رأسي. نقدتُه وشكرتُه، في الآن نفسه، ثم انصرفت إلى البيت وفي الليل كلمتُ، هاتفيا، أصدقائي لاستكمال ترتيبات مختلفة.

هذا ما وقع لي مع حكومة التناوب في طبعتها الأولى بدار المخزن، أما ما يجري في هذا الشهر مع حكومة السيد عباس الفاسي، وهي طبعة

أخرى عن نفس الدار، ستجعل جميع المغاربة ينتفون رؤوسهم نتفا في مندبة لا تنتهي.

الطريق إلى فاس

شوقي إلى مدينة فاس يعطيني الإحساس بأنني معتمر إلى مكان عزيز. وقد سبق لي أن زرت المدينة للمرة الأولى سنة ١٩٨٣، أما المرة الثانية فهي هذه، استفقت لها في الخامسة إلا الربع، وخرجت من البيضاء برفقة أصدقائي في اتجاه مدينة فاس، عبر الطريق السيار. وفي الثامنة والربع وصلنا مدينة فاس نحو فندق نزهة الموجود بساحة الأطلس. تناولنا وجبة الفطور ثم يممّنا إلى كلية ظهر المهراز حيث ستبدأ أشغال ندوة " المغرب في نصوص الرحلات الغربية " والتي سَهِرَ عليها الصديق والباحث عبد المنعم بزنو.. وهناك التقينا بعدد من الأصدقاء.

كانت ندوة ممتعة في جلستين، صباحية وزوالية، تعرفت خلالها على نصوص وأصدقاء من تخصصات مختلفة، كما تعرفت على نص رحلي لكاتب كولمبي اسمه لويس كاردوزا سبق أن زار مدينة طنجة سنة ١٩٢٧وهو في العشرين من عمره، مؤلفه بعنوان "فاس مدينة العرب المقدسة" والذي نُشر لاحقا بغلاف يحمل صورة الكاتب وهو يدخن السبسي. وقد قدم حوله الأستاذ سعيد سبيعة ورقة مهمة مما جاء فيها قولة للويس كاردوزا، وهي عبارة عن اعتذار شبيه باعتذارات شعراء الملحون في خواتم قصائدهم:

"السفر بالنسبة لي بمثابة انفجار فكري وعاطفي(...) ودنيء أن تسافر من أجل أن تكتب فقط".

ما زالت آثار احتفالات ١٢ قرنا على تأسيس فاس..بادية للعين والخيال. وعَبْرَها رأيتُ ثلاثة أحداث حاسمة في تاريخ سلالتي لها علاقة بهذه

المدينة.

الأول في ذهاب جدنا الأول مؤسس الشاوية الحديثة، علي الشاوي، قدس الله روحه، إلى فاس سنة ١٧٦٨ ومنها جاء حاكما أزليا على الشاوية.

الثاني، ويتعلق بجدنا خليفة الشاوي، وهو من أعيان المزامزة الكبار حينما قرر الذهاب إلى فاس، وكان ذلك سنة ١٨٧٣، طالبا المصاهرة من أحد الأعيان في ابنته..عارضا عليهم الأموال والضياع..فرفضوا عروضه وقبلوا تزويجه الدرية شريطة ألا تكون لها ضرة، وأن يتكفل جدي خليفة، بفرقة موسيقية للملحون تكون في خدمة ابنتهم.

شرط مجنون، علم فيما بعد أنه كان طلبها، من أجله أساسا وليس من أجلها. فقد أسكن الفرقة الموسيقية ببيت قريب وتحمل مصاريف أكلهم وشربهم بالإضافة إلى روانبهم الأسبوعية. مهمتهم تأدية أغان في الملحون مرتين في اليوم : بعد الظهيرة وبعد العشاء، يجلسون بلباسهم الرسمي في بهو الرياض والسدة الأولى لجدي رفقته في غرفة علوية لها شرفة من خشب الموشرابي..يستمعون في استرخاء وقت الظهيرة وجلوسا بعد العشاء..ويُحظَر على أي كان، وسط الرياض بِخُصته الفيحاء، أن يرفع رأسه.

الأمر الثالث، وهو أمر يتعلق بي شخصيا، كون زوجتي من فاس. ومن عائلة عريقة استقرت بالدار البيضاء منذ عقود.

الشاون تستكمل الدورة

ودَّعنا جبل تْغَاتْ وجبل زلاغ. وتركنا مدينة فاس خلفنا مُبللة بأمطار مثل

غزل شفاف. أمطار ستفاجئنا قوية في كل مراحل رحلتنا إلى مدينة الشاون خلال أزيد من أربع ساعات.. مررنا خلالها على عشرات الأودية والجبال، قبل أن نصل إلى مدينة وزان.

استرحنا لساعة فيها ثم واصلنا سيرنا إلى أن طالعتنا رائحة سحرية طالعة من جبل تمسد رأسه/ أو رؤوسه أبخرة ضباب يتثاءب..

قضينا النصف الثاني من يوم السبت في الندوة وفي ضيافة شرف الدين ماجدولين، ثم انتقلنا إلى جزء من جنة محمولة على جبل في فندق دار الشاون..سهرنا حتى منتصف الليل نتعشى ونتكلم رفقة الأصدقاء الذين شاركونا الندوة.

صبيحة يوم الأحد، تجولنا قليلا في المدينة القديمة بالشاون قبل أن نشد الرحال، من جديد، نحو الدار البيضاء.

ما تبقى من أيام الشهر

شهدت الأيام الموالية عدة أحداث. فقد عدتُ والصديق محمد عطيف إلى عقد جلسات متواصلة أصدرنا خلالها عددا جديدا من جريدة السي دي تي..كما حضرتُ ترتيبات الإضراب الوطني العام الذي دعت إليه المركزية النقابية الكونفدرالية يوم ٢١ مايو والذي سيعرف تحولا في الحياة اليومية والإعلامية والسياسية. فعدد من الجرائد تضاربت تقييماتها، أما حكومة عباس الفاسي فإنها دعت من خلال مركزية نقابية أخرى إلى محاربة الإضراب وجعله يوما وطنيا للعمل.

في هذا الصدد، قال لي أحد الأصدقاء النكتة التالية في الموضوع : يوم الأربعاء ٢١، صادف أن كان السيد عباس الفاسي، الوزير الأول بمدينة

مراكش، وأثناء تفقده للحركة بجامع الفنا، التقى بشاب مراكشي وسيم.

قال عباس :كِيفْ عَاملْ آوَلْدِي. يَاكْ انْتَ اليوم خَدَّامْ؟

قال الشاب المراكشي باحترام وتقدير :نعم آسعادة الوزير الأول. أنا خدام اليوم ودائما.

قال عباس :الله يرضي عليك آولدي. وفاش أنت خَدَّام ؟ !.

قال الشاب المراكشي الوسيم بنفس الاحترام :خَدَّام آسيدي في المرسى ديال مراكش.

تعجب السيد الوزير الأول، وقال مستفسرا ومستنكرا: وهل توجد مرسى وبحر بمدينة مراكش ؟

غير الشاب من لهجته وقال بدوره مستنكرا بصوت مراكشي : واشْ كايْنَا آسيدْ الوزير الخَدْمَا في مراكش حْتَى تْسَوَّلْني ؟

يوم الجمعة ٢٣، عقدنا مائدة مستديرة نقاشية حول الخطاب النقابي بالمغرب، شاركتْ فيها خمس نقابات بالمغرب.

بُويَـا

(من أرشيف سيرة محمد بن عبد السّلام)

أولا: هذا ملحق أول بمذكرات كاتب، جاء ليستوضح، استدراكًا، وُرودَ اسم بويا في سياق القول.

ثانيا: يعتبر هذا الاستدراك، وشايةً برجلٍ كان وما زال يحمل رسالته بعيدا عن مراوغات الكُتَّاب أو مُحترفي الكلام - كما يُسميني دائما - وفي ذلك ذهاب مني إلى أقصى ما أُفكر فيه من تحويل ما أراه إلى تخييل، لا كذب فيه.. رؤيتي إلى الكتابة باعتبارها وظيفة وجدانية لا يمارسها إلا المطهرون.

ثالثا: إذا أنا لم أكتب عمن أُحس بهم وأُحبهم.. فعَمَّنْ أكتبُ وأتحدث؟ والكتابة لا تطلع إلا من قلب طاهر أو فكر منشغل بالطُّهر.

رابعا: هذا النص الصيفي مُهدى إلى روح جدتي فاطنة بنت الطاهر وجدي عبد السلام بن خليفة وإلى روح الأستاذ البادر أول بوكادو لبويا وصديقه الحميم.

شريط وثائقي

هو الآن يسيرُ ويسلم على أصدقائه القدامى والجدد..

تسعون عاما وما يزيد في طاحونة الزمن المغربي الملاَّطي، وهو يحرث الأرض دون كلل. تتبخر أيَّامه يوما بيوم، وثانية ثانية، لتصعد بكل عُهودها إلى صحائف السماء الإلهية، تُدوِّنُها الملائكة حرفًا حرفًا. فهو الذي استطاع ولا يزال يستطيع تحويل الحياة إلى حكاية.

وُلِد محمد بن عبد السلام في حوالي ربيع سنة ١٩١٥ بدوار الكراريين قبيلة المزامزة من بطن الولية الشريفة فاطنة بنت الطاهر، والتي ماتت وهو دون السابعة من عمره، تركته مع أخته فاطمة، يتيما وحيدا يتذكر لبَنَها ونظرتها الحزينة قبل أن تذهب لتنام وحيدة في مقبرة عارية، تتسللُ إليها أمطار تلك السنة فتُبللُ وجهها النوراني وأنفاسها المباركة.

عاش محمد بن عبد السلام ولا يزال، قادرا على إدراك التفاصيل الصغرى والكبرى، فهو بويا الأمين الذي يعشق الأرض والحياة.

في الخمس عشرة سنة الأولى من حياته، عرف الرعي، مثل كل الأنبياء، ثم التجارة وبعدها متعلما مهنة الجزارة، والتي كانت سبيلا للانتقال من دوار الكراريين إلى الفيلاج بسطات، ليُصبح مسئولا عن نفسه داخل أسواق الشاوية..يعيش محنا كبرى مع الحياة، بِشَرف المحاربين وهو لَمَّا يبلغ بَعدُ، سن الرشد القانوني.

يتذكر دائما، وهو في تلك السن، أن الحرب العالمية الثانية كانت ملاذا ومدرسة انخرط فيها بقامته الطويلة وبنْيَته القوية، فيحيا لسنوات بفرنسا وألمانيا، فيعود دون أن تكتمل الحرب... برؤية أخرى لخوض الحياة مُقاوما وفلاحا دون أن ينتظر بطاقة أو اعترافا من أحد.. أو يقف على الأبواب رافعا يده لتقتطع من كعكة الاستقلال، بل استمر يحفر في الأرض ويخوض أول تجربة بلدية، مستشارَ بسطات، في مجلسها مُنتخبًا في الستينات، قبل

أن يبتعد عن الكراسي التي تبيح المحظورات وتتنكر لكل القيم والثوابت.

إن قدرة محمد بن عبد السلام بن خليفة الشاوي هي في عودته الدائمة إلى سمو الأرض والبساطة وعدم الالتفات إلى الماضي.. فكم من صراعات خاضها مع حكام فرنسيين إقطاعيين أو رجالات السلطة من الطغاة وعلماء وقضاة وسياسيين ونقابيين بلغت حد الجهاد... وكم من تضحيات تركت، حتى الآن، على روحه بصمة قوية، تجعله في سعي دائم لتحرير نفسه من آثار أي ظلم أو قيود.

أصل الملائكة

هل يمكن لجدتي، فاطنة بنت الطاهر، وهي رميم في مقبرة منسية منذ عقود طويلة بسهول المزامزة المقدسة، أن تنظر إليَّ بروحها الخالدة، أنا حفيدُها الذي سيولد في العقود الأخيرة من القرن العشرين من صُلب ابنها محمد بن عبدالسلام؟ هل يمكن لروحها الملائكية، التي تحرس صَوتي ولَوني وخُطواتي، أن تُعينني على سماع حكاياتها وأنا أفتش عن خطواتها الحَيِية والواثقة وعن كوانينها ولثامها وحَيْكِهَا...

هل يمكن لها أن تتخيل، في نَومَتِها المؤقتة، أن هذا الحفيد الطُّهراني القادم من صُلب ابنها..يتذكرها أمام الجميع ويُعلنها جدته التي كان وما زال، ممن عرفوها أو سمعوا عنها، يعتقدون أنها إحدى وَلِيَّات الله المنسيات في أراضي المزامزة.

فاطنة الحمرية، الشريفة، المباركة ابنة السماء وجَدَّتي، وحيدةُ والدها الطَّاهر، زعيم المقاومين على شريط ساحل بلاد وقبائل احْمَرْ... الحمراءُ بما انهرقَ من دماءٍ خلال نهاية القرن التاسع عشر، وفي العقدين الفاتحين من القرن العشرين.

الطاهر، أبو الغَزوات الكبرى، الذي خلقه الله ليكون أسطورة بطل لم يعرف مذاق الخوف أو الجبن.. ولا أحد يعرف كيف أصبح عبد السلام بن

خليفة رفيقًا روحيًا للطاهر في تلك الفيافي والسنين...

الشمس لا تزال، ربما، تَذْكُرُ كل شيء حينما استبدَّ الغدرُ وطالت الخيانة الأرض كلها. غدروا بالطاهر وابنه أحمد - كما غدروا قبل قرون بعلي الشاوي - فلم يجد عبدالسلام من سبيل سوى حمل، فاطنة، آخر بذرة من سلالة الزعيم، والعودة بها إلى موطنه الأصلي بسهول الشاوية، لتضع له من رحمها محمد وفاطمة، ثم تموت بعد أن ترى، وسط حروب الاجتثاث، أخاها الأصغر بأعجوبة غير مفسرة.

امرأتان عظيمتان كانتا في حياة جدنا عبد السلام : زوجته فاطنة التي ماتت في عز شبابها، ووالدته الفاضلة وقد عمرت طويلا.

عاش جدي عمرا مديدا يحتفظ في ذاكرته الثرية، بما عاشه من أزمان في طفولته.. وإلى جانب الطاهر، وأخيرا قائدا للرحى في طاحونة المقاومة.

جدي عبد السلام.... هل أنت مالك بن الريب أم الاسكندر الأكبر، أم السلطان الأول للأمازيغ والقرويين أم على الشاوي الذي أرسى قواعد الحرية والعدالة والديمقراطية في أرضنا وسلالتنا... أم أنت سيدنا علي وكفى ؟

بويا... الأمين

هو الآن، ومنذ عقود، بويا الأمين، كما يدعوه الجميع، والأب الأكبر كما تحسه الخاصة، أمين الفلاحين بالشاوية، وتجار البهائم بأكبر أسواقها، عَرَّابُ نبيل يحتكمون إليه ويستظلون بحكمته التي في عقله وقلبه وحدوسه، وليست في جرابه.. يفتي ويقضي بين الناس مثل حاكم عادل..ثم يروح إلى بيته مثل نبي يُضَمِّدُ جراحات أمته بحكمته وبُعْدِ نظره.

هو الآن، له عاداته التي لا يحيد عنها، جلسته الصباحية بمقهى بوشتى، حيث يتحلقُ حوله بعض الأصفياء من أصدقائه، إلى جانبه الشيخ العبدوني الذي وهبه الله الشرف والورع والعفة. تَطوفُ عليهم، حنان،

بأباريق من الشاي الذي لا نظير له...

يجلس بجلبابه والبوردو ونظراته الثاقبة مثل نسر شاوي قادر على رؤية القيامة أينما وُجدتْ، يستطيع وسط حكمته، التي لا تؤتى دائما لنا، أن يجمع بين الثقة والشك، بين القوة والضعف، بين السلام والحرب... يَطوفُ علينا بآراء واستنتاجات لا تَخْطرُ على بال.

جلسته الأسبوعية في سوق السبت للقضاء بين المتخاصمين... محاطا بجوج مخازنية. وعدد ممن يريدون التعلم.. جلسة هي مدرسة لتعلم فن الممكن والمحتمل في النظر إلى الحقيقة.

أحضرُ جلسات مقهى بوشتى، وأحيانا جلسات سوق السبت، وكلما فكرت أن بويا أفتى وأخطأ -كما أعتقدُ- ولم أفهمْ، تُؤكِّدُ لي الأيام أني كنتُ مخطئا في تقييماتي، وهو الصائب..

في لحظات الضيق، يتذكر أصدقاءَه، ومَنْ هُم في حكم أبنائه، فيشعر بالارتياح ويبحث عن سياق لذكرهم أو الحديث عنهم وعن أخلاقهم..يتذكر الأستاذ البادر، أحد جهابذة القانون وكبار رجالات بسطات..الأستاذ اليزناتي..والأستاذ أحمد نور اليقين.. كما يتذكر من الفلاحين من كانوا نموذجا للاستقامة.

بمقهى بوشتى، ونحن جالِس، متحلقين حول بويا... يفاجئني بسؤال كما لو أنه كان يقرأ أفكاري :وأنتَ فينْ أصحابك. ثم ذكرهم لي بالاسم واحدا واحدا.

كنت أعرف مناوشته لي، فهو يعتبرهم صقورا لا أحد يرافقهم، والواحد منهم - على حد تعبيره مرة - يسير في الطريق وخياله في طريق آخر يبعد عنه بمئات الأمتار..كناية على أنهم "رجال بلا خيال"..فأضحك وأؤكد له أنهم فعلا من أصدقائي.

١ - أنا والمرايا في ضوْءِ يونيو

(وِشاياتٌ بالنَّفس وبأخبار مريم، ويومُ الثورة بربوةِ الرّوح...)

أولا - كلّ واحد منا يتجددُ يوميًا، فأنا الآن لستُ نفسي غدا أو بعد غدٍ. و"أنا" الصورةُ الحية، لست "أنا" الصورة اللغوية، أو تلك المنقولة عبر الأحاديث والانطباعات والإشاعات والوشايات. فكلٌّ منا يحيا خلف طبقات من المرايا، تتحقق هوياته عبرها يوميا، والهوية مثل طِرْس تتداوله الليالي والأيام بمجازات الأيدي والأقلام.

ثانيا- انتهى شهر يونيو، شهر بثلاثة منازل :منزلة الهنعة وبرج السرطان ومنزلة الذراع. يبدأ يونيو عندما تكون الشمس في برج الجوزاء وينتهي في برج السرطان. وفلكيا، عندما تبدأ الشمس في برج الثور وتنتهى في برج الجوزاء.

في فجر فاتح يوليو كتبتُ ما علِقَ بذاكرتي، فدوَّنتُ بيدي عشرات الصفحات، جعلتها عبارة عن مقاطع سردية بعناوين فرعية، هي محاور القول.

وفي اليوم الثاني أعدتُ مراجعتها ثم حملتُها إلى الكاتبة للرقن. لكنني بعد أقل من ساعة عدتُ فسحبتُها حيث استبدَّ بي خاطر حول ما خَلْفَ المرايا..لماذا نكتب فقط ما يعجبنا ونُسقطُ أشياء أخرى. نكتبُ ما نراه ضروريا ينسجم والنسق الذي يؤطر مسارات التفكير والمتخيل والضروري. لذلك قررتُ التخلي عما كتبتُ واضعا مسودة النص الأول جانبا، وعمدتُ إلى تقييد ما رأيته غير ضروري وما أهملته عن غير قصد. أكتبُ وشايات عن

نفسي وعن مراياي التي انعكس عليها ضوء يونيو وظلاله.. ولو أردتُ أن أجرِّب الأمر نفسه مع النص الثاني لكتبتُ نصا ثالثا مختلفا يحتوي ضوءاً آخر من الطبقة الثالثة للمرايا، فعادة ما نكتبُ نسبة مئوية ضئيلة فقط ونحتفظ بالجزء الأكبر في خزائن الصدور.

صباح الخير يا مرو !

حينما استفقت وفتحتُ النافذة، لفحتني رائحة باردة أحسست بها في وجهي ونفسي، وأبصرتُ ضوءاً مثيرا قادما من السماء. الساعة - لحظتها - كانت تشير إلى الخامسة صباحا. أعدت الغطاء، بلطف، على علاء، نومة مريم تثير الضحك، أما زينب فإنها مثل فأرة مختبئة من شئ.

لبستُ التّشامير الأبيض ونزلت إلي المكتب بعدما غسلتُ وجهي.

تنبهتُ إلى ساعتي اليدوية، هممت بإضافة ساعة، كما تَقررَ رسميا في التوقيت المغربي والبدء به مع أول يونيو. شرعتُ في إدارة المحرك الصغير للساعة فتكسر وبقيتُ بدون ساعة، مكتفيا بالنظر إلى ساعة الهاتف المحمول، والذي من عادتي إغلاقه لما أكون منشغلا بعمل مهني أو خلال وقت الظهيرة، وأيضا ابتداء من التاسعة ليلا.

أضفتُ إلى هاتفي ساعة، ثم التفتُ إلى أوراقي. قبل الثامنة صباحا، تهبطُ مريم إلى المكتب، بعيون لا تزال مغمضة، تحمل على كتفيها الصغيرتين طفولة ثلاث سنوات، فترتمي على الكنبة الرمادية الرطبة الموجودة بمكتبي..تنظر إليَّ وتبتسم ثم تواصل نومتها. أضعُ الكتاب وأكلمها بإغراءات النهار، فتبتسم وهي مغمضة العينين، وحينما أعود إلى عملي..تشرع في التجسس علي بفتح نصف عين واحدة...

عادة يومية مثل عادات كثيرة نكتسبها... أحب الكتابة بالحبر، حتى أني

أملك عددا كبيرا من أقلام الحبر المتنوعة.. من بينها قلم ريشته من الذهب، فيما باقي أجزائه من الفضة وخشب الكركاع. أحب في البيت أن أكون لابسا الفرجية والتْشامير والكندورة، ولديَّ أشكال كثيرة، لكل واحد فصله، الأحب لدي في هذا الصيف تلك التي جئت بها من بلاد السودان. كما أحب الجلابة والسلهام داخل البيت في فصل الشتاء.

اليوم، سيأتي عندي الأصدقاء، لذلك رتبتُ أن تهيئ زوجتي الطعام باكرا، وتذهب مع الأولاد إلى بيت أسرتها حتى المساء.

في التاسعة والنصف صباحا كان كل شئ مهيئا، فأوصلتهم بالسيارة ثم عدتُ لاستقبال الأصدقاء في العاشرة من أجل اجتماع مطول امتد إلى حدود السابعة مساءً حول ترتيب برنامج القلم المغربي للموسم الثقافي المقبل.

كنا سبعة : الشريشي، نجاح، خالد، المحجوب، منصور، وشمس الدين القادم قبل أيام في عطلة من أمريكا، فيما غاب عنا سعيد غصان، وعبد اللطيف محفوظ وعبد الرحمن غانمي.

الساعة السابعة والنصف مساء، ودعتُ أصدقائي وذهبتُ حيث حملتُ أهل بيتي متجهين مباشرة إلى ساحة السراغنة. ركنتُ السيارة بشارع الفداء ثم تسربنا عبر شارع المَلَكِية وسط زحام طبيعي في ممر تجاري على طول أكثر من ألفي متر.. مشيناها والفقيرة إلى الله مريم فوق كتفيَّ فرحة، بينما علاء وزينب ملتصقان بأمهما، فيقول لي مستفسرا: أنا أيضا كنتَ تحملني، أبًا، على كتفيك لما كنت صغيرا ؟ وتكرر زينب ما قاله أخوها.. فأشير برأسي مؤكدا.

وصلنا ساحة درب البلدية وما زال ضوء النهار حيا. جلسنا بمقهى

للشواء محاطة بمحلات متعددة لبيع لحوم الإبل والبقر، قمت وجئت بكفتة الإبل أكلناها، ونحن نشمُّ في خواطرنا المرحة رائحة الناقة – كما قالت زينب متفكهة – مع الشاي وخبز السوق.

ترجَّلنا عائدين وفي نهاية زنقة الملكية، حيث عشرات باعة الفواكه الموسمية، أخذنا معنا بعض الفواكه من حَب الملوك والبطيخ /السويهلة والشهدية والمشماش والخوخ.

يوتوب بطريق أولاد زيان

يونيو شهر الامتحانات، كتابية وشفوية ومناقشات البحوث والأطاريح، وما يستتبع ذلك من قراءة منجزات الطلبة واجتماعات ومداولات، بالإضافة إلى اجتماعات أخرى في مدرسة الدكتوراه واللجنة العلمية، لذلك لم أستطع خلال هذا الشهر قراءة سوى روايتين، الأولى عرق الآلهة لليمني حبيب سروري ورواية لون الروح للتونسي صلاح الدين بوجاه.

في الطريق إلى الكلية، عبر طريق أولاد زيان، فجأة يعترض طريقي، وبشكل مثير، رجل أمن ضخم الجثة، وقد أفرد يديه ورجليه. تقدم مني ولما تحقق من وجهي تراجع عن طلب الأوراق، كأنما اكتشف صورة كان يبحث عنها فصادفته، واتجه بسرعة نحو صاحبه، تكلما ثم عادا معا، فقال لي الثاني : أنتَ اللّي كْتَبْتِ بنا في جريدة المساء منذ شهر.. لما أوقفناكَ بهذا المكان بسبب السرعة المسموح بها.

(فعلا هذا ما حصل. وقد أمضيتُ وقتها معهم أزيد من ساعة باعتبار أن ما فعلوه معي كان نَصْبًا عليَّ وليس أداء واجب، خصوصا بعدما خيَّروني: إما أداء غرامة أربعمائة درهم أو مائة درهم "رشوة"، فرفضتُ هذا المنطق الذي يجعلنا أرخص شئ، وأديت غرامة الأربعمائة..وكتبت ذلك في

الصحافة مثيرا مسألة أن رجل الأمن من مهامه أمن المواطنين وليس تشجيع الانحراف والارتشاء).

قلت له متجاهلا: هل لدي مخالفة سير أم أوقفتماني باش تغنيو لي غُنَّايَة حَشَاكْ ؟

انتفض وردَّ عليَّ بعنف : غادين نْشُوفو..ثم طلب أوراق السيارة وابتعد عني ومن حين لآخر يستمع إلى الجهاز الذي يربطه بسيارة رادار مراقبة السرعة، مختبئة بعيدا بحوالي ألف متر.

لم أشأ الخروج من سيارتي، واكتفيتُ بِرَكْنِها ثم هاتفتُ مصطفى اليوتوب، صديقي الذي اشتغل معي سابقا في الصحافة، ودعوته للحضور بأجهزته التقنية المتطورة بعدما عينتُ له المكان بدقة. انتهيتُ من المكالمة ووجدت الشرطي الأول عند رأسي، سلمني أوراقي وقال لي بصوت لا دلالة فيه : وَكَّلْنَا عْليك الله. ثم انصرف ينصبُ شِراكَه من جديد لضحية أخرى يفاوضها.

أدرتُ المحرك وواصلت سيري. الشرطة بالدار البيضاء مثل الليل مع النهار، وهُم غير شرطة المدن الصغرى الذين يؤدون واجبهم باحترام ويجعلونك تحس بأنهم يحمونك ويحترمونك ويفرضون عليك احترامهم. في البيضاء بعضهم يعتقد أن مهنته هي سبيلٌ لفعل كل محظور.

يوم الثورة

يوم السبت سابع يونيو كان يوما مرتبا ترتيبا علنيا وسِريا.

خرجتُ من الدار البيضاء في الرابعة والنصف صباحا، متوجها إلى سوق السبت بسطات. وجدتُ بويا وقد بدأ باكرا الحُكم بين الفلاحين. قبَّلتُ يده ودعا لي بالشاي والخبز والبيض. ذكرته بأننا على موعد في العاشرة

بمقهى بوشتى. لم يرد علي وهَمَّ يسألُني عن زينب ومريم. قلت له :لماذا لا تسألني عن علاء. فقال لي إنه يشبهني فلماذا أسال عنه (لم أفهم بلاغة ومغازي هذا الجواب إلا وأنا أدون كل هذا) ثم نهرني بود عن مواصلة الحوار، وأمرني بالبحث عن عبد القادر في رحبة الغنم واستقدامه على وجه السرعة.

اشترى والدي في هذا اليوم خمسة عجول، أرسلناها في شاحنة إلى الضيعة بعين نزاغ، وقبل العاشرة كنا بالمقهى حيث بقينا إلى حدود الواحدة ظُهرا. نمنا لساعة كاملة بعد الغذاء، ثم سألني بويا عن وجهتي.. فقلت له بأنني سأعود إلى الدار البيضاء لما تَخفُّ الحرارة، ثم استغربتُ لمعاودته السؤال بشكل غريب، كما لو أنه على علم بأنني كذبتُ عليه.

كنتُ مدعوا لسهرة خاصة من طرف صالح الوراقي (وهو ليس بالاسم الحقيقي لهذا الصديق) صديق قديم أصفه بالإقطاعي الحداثي، لم يحصل على الشهادة الإعدادية ولكنه يجيد القراءة من تعوده قراءة الصحف باستمرار. وهو الآن من الفلاحين الشباب، له خبرة كبيرة بالفلاحة، فضلا عن امتلاكه لعدد كبير من الأراضي السقوية والبورية. من خصوصياته أنه يحب الغناء والطرب كثيرا، لذلك يسعى من حين لآخر إلى إحياء حفلة يستمتع فيها بالطرب الشعبي الأصيل، والهابط أيضا. يعبر باستمرار عن حنينه الدائم إلى عهود الإقطاعيين الكبار في مغرب القرن الفائت.. ومن علامات هذا حبه للفن الشعبي وكراهيته للمثقفين.

كنتُ أول الحاضرين بالضيعة التي توجد قرب الغابة ونسميها ربوة الروح، بجانبها منزل كبير من طابق أرضي بُنيَ على ربوة تطل، في شموخ، على حقول الذرة، خلفنا الغابة بصمتها المُريب. بها صالون مغربي واسع

جدا تتفرع عنه غرف وحمامات حديثة وحديقة أكثر اتساعا وخُضرة.

وبعد ساعتين، سيحضر ثلاثة من الأصدقاء من نفس الناحية التي نوجد بها، أعرف اثنين فقط، أما الثالث الذي لا أعرفه فهو من أبناء أخواله. قمتُ وهممتُ بالخروج دون أن أُكلم أحدا. أحس صالح وعلم أني لا أجالس في سهرة أحدا لا أعرفه، ولهذا السبب سأتركهم وأعود إلى الدار البيضاء. لم يتركني أصل إلى سيارتي، وفي الحديقة فاوضني بأن يطرده، فرفضتُ وقلت له بأنه لم يعد يجيد تدبير أموره. وخلال حديثنا خرج الشخص المعني بالأمر صامتا، واسمه محمد، . لمحته وهو يضع رجليه على عتبة البيت، ثم لم أشأ النظر في وجهه، وحينما اقترب منا وكان على بُعد حوالي مترين، رفع إلينا رأسه وقال : السلام عليكم. إشارة منه بالانصراف بعدما أحس، وربما سمع ما دار بيني وبين صالح. آنذاك رفعتُ عينيَّ أنظرُ إليه، فلمحت عينيه وقد اغرورقتا بالدموع، لم أشعر حينها بيدي وهي تمتد إلى ذراعه، شدَدْتُهُ بقوة وقد أحسست بفظاظتي وأنانيتي وحرصي الزائد. اعتذرتُ منه وأفهموه الأمر كما لو أنه مبدأ مقدس.ثم بقينا وصرنا أصدقاء، ولما استطال الليل سيشرح لي صالح حقيقة أخرى حول استقدام محمد، وتتعلق بكونه خسر أموالا طائلة على امرأة بيضاوية لعبت به طوال سنة ونصف.

أُسميه "قايد القياد"، لأن صالح الوراقي يريد أن يحيا حياة كبار قواد المغرب في القرون الثلاثة الأخيرة، وأنا من كنتُ قد ملأتُ رأسه بسيرِ أولئك، كما أنه قد قرأ روايتي "زمن الشاوية" وتأثر بشخصياتها ولم يعد يريد أن يقرأ شيئا آخر؛فقد كنتُ أوهمته بأنه سليل علي الشاوي (والأمر قد يكون حقيقة كما قد يكون محض وَهْمٍ وليس كذبا).

في مثل هذه الحفلات، والتي تمر في جو فني، نستمتع فيه بالطرب

الشعبي وبكافة أشهى المأكولات والفواكه الموسمية، يُرتب صالح للأمر على طريقة كبار الحُكَّام: أربعةٌ ممن يشتغلون بالضيعة الكبرى يوزعون المهام بينهم، الأول مُكلف بالأكل والشواء والثالث مهمته الإتيان بالفرقة الموسيقية وإرجاعها بعد نهاية السهرة. أما الرابع مُوِيلِيدْ (تصغير لاسم ميلود)، وهذا يهمني لأنه صديقي- وهو على هيئة سانشو - مهمته الوقوف على عتبة الباب يؤدي المهام التي يراها في عيني سيده صالح.

مع صالح أحس دوما، في خاطري، بالرغبة في أن أكونَهُ..فلاحا فقط. أعيش الماضي والحاضر..بل أعيش زمن كافة أجدادي المنعمين؛ وربما ما أنا فيه الآن هو شكل آخر لما أحلم به.

كنتُ لابسا سروالاً جينز فَقَدَ الكثير من زرقته، وقميصا بنصف أكمام، سماوي اللون، نزعتُه فبقيتُ بسليب أبيض بدون أكمام، نأكل كل أنواع الفواكه الجافة والموسمية الموضوعة أمامنا بسخاء.

العاشرة ليلا، وصلَت المرسيدس والكات كات محملتين بالفرقة الموسيقية رفقة الرجل الثاني المكلف بهذا الأمر فقط. فدخلن دخول الفاتحات..أربع فنانات (هوانم) فيما بين العقد الثاني والثالث من عمرهن، استُقدمن من مدينة خريبكة يتوسطهن شيخ كمنجة في متوسط العمر. سلمن علينا ثم جلسن في مكان خُصِّص لهن.

بدأنا، في الجزء الأول من السهرة، مثل متصوفة هنود، قابعين في حدود الاستمتاع، سماعا، بأناشيد شعبية من فن المرساوي. بدتْ لي شخصيا مثل مزامير تسري في الروح فيقشعر لها البدن وتصل العقل فيسْكَر لكننا وفي مثل كل التجمعات البشرية، تحولنا بفعل الوعي الشعبي، خلال الجزء الثاني والأكبر من سهرتنا المهربة عن البشر، إلى ثوار حقيقيين، فتخلصنا

من كل القيم البالية ومن ذلك السكون الذي نحميه بقواعد اللعبة الاجتماعية ونحركه بما نحمله من نظريات لن تصمد جميعها تحت عَفْطَةٍ واحدة من قدم فنانة وهي ترقص على جرَّات عُيوط الشيخ المحترم.

انتقلنا إلى المرحلة الواقعية لنجرب قُدراتنا على التأطير والتنظير في الواقع الملموس، فدخلنا في عمق أغان تبوح بكل شئ والتي لا تعتبر الخطاب طبقات - كما فعلتُ مع هذا النص - جوٌّ روحاني مائة بالمائة.. قام فيه صالح برقصة بدوية، سقط على إثرها..فأسرع مْوِيلِيدْ يجري ليحمل سيده..ولم أدر متى نهض من داخلي شخص يُشبهني(لم يلتفتْ إليَّ أو يستأذن من خيالي) فرقصَ رقصاً بدويا ورجوليا، كما راقص المجموعة كلها رقصا رومانسيا طاهرا ومعبرا.. لا وصف أو سرد أو حوار فيه..فقط الروحانية والمجاهدة حتى تقطعت عباءة الفقيه - وأنا مشدوهٌ وساهٍ في فِعْلِه الغَريب - رقَصَ كمن ينتقم من شئ. كمن جاءته بشارة من السماء. كمن رأى الجنة ودخلها. هو لهو وخشوع في صورة رقص.. كمن يَدُكُّ الأرض على تلك النظريات والسرديات والندوات والكتابات والروايات والمناقشات والمزايدات والمناقصات وكل شئ خارج الحياة والممات..دَكًّا دَكًّا حتى أحس بطقطقات عظمه الرميم، وبأبخرة جسمه وسيول العرق تنهمر... فسقطتُ على الأرضَ مثل واحد من الثوار، سقطتُ في آخر معاركنا والتي كان فيها النصر يخفي الهزيمة ثم قمتُ وجلستُ مرتميا وسط ابتهالات العيطات التي لاتنتهي.

أحسست بأنني تطهَّرتُ وعدتُ كما كنتُ بريئا طُهرانيا.

بقيتْ ساعة على قيام الفجر، والبهجة لاتزال قائمة مشتعلة. انتبهتُ إلى مْوِيلِيدْ الذي مازال في وضعه الأول منذ بداية السهرة. كلمتُ صالح أن

يطلق سراحه ويحرره، فأمر له بزجاجة نبيذ من مؤونة سعادة الشيخ (محظور إدخال النبيذ إلى السهرة باستثناء الشيخ رئيس الفرقة الشعبية الذي من شروط حضوره، أن يأتوه بعدد معين من قناني النبيذ، فأُوتي بأكثر مما طلب، حيث وضع المطلوب إلى جواره ومن حين لآخر كان يعب منه عبا). وفعلا حمل الرجل الثاني الزجاجة لمُويليدْ وهو ينظر إلينا بنفس الجهامة والدهشة، معتبرا الإشارة من رأسينا إيذانا له بالتحرر.

لم تمر سوى ثوان حتى جلس القرفصاء واضعا قَرعتَهُ وبدأ يشرب منها مباشرة وهو يأكل الخبز. كنت أنتظر هذا المشهد، فلا تخلو جلسة من غرائب مُويليدْ.. ضحكت بجنون وسط صمت ووشوشات في لحظة استراحة الفرقة، فشعر صالح بحرَج حينما انتبه للأمر ونادى عليه مؤنبا ومشيرا إلى الأكل الوفير. فلم يفهم أحدهما شيئا لأن مُويليدْ ليس بجائع وإنما - كما سيشرح في شروحاته التي لاتنتهي - أن من عادته شرب النبيذ المر بتلك الطريقة التي يسميها القَطْعَة.

مُويليدْ في حوالي الثلاثين من عمره كما هو مثبت في الأوراق، لكن ملامحه تُنبئ عن الخمسين..جاء عند صالح منذ أزيد من خمس سنوات. أُعزه وأشفق عليه وأحب الحديث إليه، لأن كل أجوبته عجائبية وغريبة؛ ويصلح أن يكون شخصية روائية مهمة في السرد المغربي.

توقفتُ عن الضحك، نظرتُ إلى صالح.. فعلم أني أنهيتُ السهرة.

في غرفة جانبية، وبعد ما شربتُ كأسا كبيرة من عصير الليمون ممزوجا بالحامض والقرفة، نمت لساعتين قبل أن أقوم في اتجاه الدار البيضاء.

في طريقي كلمتُ البيت، وحينما وصلتُ حملتهم متوجهين إلى شاطئ عين الذئاب. لعبنا وغطستُ جسمي في ملوحة البحر الباردة ثم نمت لساعة

أسفل شمسيتنا بجوار زوجتي.

ولما عُدنا في الظهيرة، فاجأتنا ربة البيت المصونة بأكلة متكونة من رأس مبخر، كانت قد تركته على الفحم، وأكلة أخرى هيأتها من قبل، من الكبد والطحال المحشي، بالإضافة إلى لوازم أخرى تسميها الولية زينب بالشهيوات.

رسالة إلى الملك

وفي الغد كلمني صالح على المحمول، بعدما كنت اعتبرت الأمر بيني وبينه مجرد حديث وتفريغ، وقال لي :

- "مويليدْ يقول لكَ ادْعيهم لمولْ البْلادْ، ويقصد الملك.

وعلق صالح على هذا مستفسرا، رغم أنه لا يحب بدوره الثقافة ولا المثقفين ويكتفي بحب الفن والفنانين. قال لي:

- مادام الوزراء، بخصوص مسئولياتهم تجاه الوطن وحضارته وثقافاته ومكوناته، عاجزين فالتمسوا من مول البلاد مباشرة ودعوهم وشأنهم.

المسألة الثانية المرتبطة بالأولى، وبما قاله صديقي صالح، أن الكثير من المثقفين والمواطنين في عدد من الدول العربية وعند المواطنين المغاربة في المدن الصغيرة والنائية يعتقدون أن المثقف المغربي والأستاذ الجامعي يلتقي في مناسبات أو أخرى بالملك أو بمحيطه من المستشارين.

في رحلتنا إلى سطيف بالجزائر، خلال ملتقى الرواية المغربية، جاء مواطن جزائري إلى قاعة الملتقى في اليوم الثاني من الندوة يسأل عن رئيس الوفد المغربي، فدلّوه عليَّ. تقدم مني وسلم عليَّ بحرارة وقال بأنه مواطن جزائري ويحب المغرب، ثم طلب مني أن أُبلغ سلامه الحار جدا إلى الملك محمد السادس. فناديتُ على المخرج المغربي عبد اللطيف الطالبي، من فريق

القناة الثانية المرافق لنا وطلبت منه سماع ما قاله المواطن وتسجيل طلبه.

مثل هذا الطلب طلبه منا مواطن عراقي مرة أثناء زيارة تضامنية لنا إلى العراق سنة ٢٠٠٠، كنا نتجول ببغداد ليلا، وكان شهر رمضان، رفقة الأستاذ الصديق خ. س والصديق م. ب، وفجأة يستوقفنا مواطن عراقي بعدما سمعَنا نتكلم بلهجة مغايرة للهجاتهم، فسألنا.. ولما علم بأننا من المغرب الأقصى سَعد كثيرا وقدَّم لنا مشروبا ثم طلب منا أن نُسلم على ملك المغرب الشاب، مُحَمَّدْ السادس.

أسوق هذا الكلام للتدليل على حس عام مشترك بين المواطنين (من المغرب والعالم العربي)الذين يحبون المغرب وأهله، ربما، هم متأكدون أنه ليس هناك وزير مغربي يستحق بعث السلام إليه. لذلك لم يلجأ سكان الدواوير التي تمر منها طريق عين نزاغ، وهي خمسة كيلو مترات فقط، وتمتد إلى رأس العين بامزاب، فيها توجد ضيعتنا وأراضينا الفلاحية، لم أسمعهم قط يطلبون أو يبحثون عن مسئول جماعي أو غيره بالمدينة والولاية لتعبيد الطريق، وإنما أسمع تمنياتهم بأن يخبرهم الملك بأنه سيمر من هناك... ويتحقق ما كان حلما.

قوس مريم

حرارة مفرطة جعلت الفقيرة إلى الله، مريم، تتخلص من ملابسها وتبقى في ما يسترها فقط..تبحث عن الماء وتتمنى الذهاب إلى البحر. وشهر يونيو بالنسبة إليَّ من أكثر الشهور عملا.. وكان آخر جمعة من يونيو يوما بحريا، قضيناه بطماريس وقد أُوتيت مريم قوس المتعة عوما وجريا وصراخا..وفي طريق عودتنا خلال آخر النهار نامت ولم تستفق إلا في صباح يوم السبت.

٢- أرى ما أُريد وأكتبُ ما أُحب

كان أذان الفجر المنبعث من مسجد السنة، في علو كُدية الرياض العالي وحي الأندلس بالدار البيضاء، يسري في ظلام بدايات شهر يوليو مثل نور سماوي متسرب..صوت رخيم وحنون يدعو منذ ألف وخمسمائة سنة إلى لقاء الله والحياة.

كنتُ ما زلتُ مُمدَّدا على الفراش، أستمعُ إلى ابتهالاته الطالعة من قلب كبير يُخاطبنا ويتأملنا. ثم نهضتُ مع بدء الأذان :لبستُ التْشَامير وبي رغبة في الصعود إلى السطح. صعدتُ فلفحتْني ريح روحانية، لا شرقية ولا غربية، قادمة من السماء. لم أدرِ كم بقيتُ من الوقت متأملا ومصيخا إلى صوت يناديني.

مع مطلع شهر يوليو، تتغير الحياة وتصبح الأيام والليالي جزءاً من ذكريات فاضت عن أزمان سابقة. شعرتُ بالتعب في مساء اليوم الثاني، لبستُ لباس البيت، ثم جاءتني زوجتي بسطل ماء دافئ به بعض الملح، غطست فيه رجليَّ لبضع دقائق. قمتُ وأكلتُ أكلا خفيفا وصعدتُ للنوم. تمددتُ على فراش فوق الأرض وقد بدأ إحساسي بحرارة وحريق بعيني، تفحصَتْهُما الزوجة الفاضلة وقالت لي بأنهما مثل جمرة دم. بعد ذلك هيأَتْ لي ضمادتين من الكتان في حجم قطع طماطم مشطورة بحجم العين محشوتين ببعض البابونج وورق الشاي الأخضر، وبعد تدفئتهما بالبخار، مرَّرَتْ على عينيَّ مِرودا خشبيا عتيقا، من عود الكركاع، بعدما غمَّسَته في كُحْلٍ دمناتي أصيل. أحسستُ بمذاقاته حينما أعقبتْ ذلك بوضع الضمادتين، ثم ارتخيتُ أصيخ السمع إلى سريان الكحل بكل عروق رأسي وإلى ما يصلني من أصوات أطفالي وقد التفُّوا حول أمهم التي ظلت تأمرهم

بصوت خفيض أنْ يوقفوا ضجيجهم.

مع شهر يوليو تتغير بعض عاداتي بالبيت، حيث نتحرر من عُرف توقيت النوم، وتُصبح وتيرة رؤية التلفاز أكثر من ذي قبل، كما نتخلى عن النوم على الأسِرَّة وننتقلُ رُحَّلاً، إلى الصالونين الواسعين والمتقابلين بمدخل البيت، نُفرشهما بما يُلائم الأرض لننام في راحة واستمتاع.

الحج إلى البلاد

ركبتُ السيارة رفقة أبنائي وزوجتي نحو مدينة سطات لقضاء أسبوع كامل مع بويا وأمي.

سطات، عاصمة بلاد الشاوية، وروحها الحية. مدينة صغيرة كانت قبل بداية القرن الماضي عبارة عن تجمعات سكنية هنا وهناك، يطلق عليها النزالة حيث ينزل أفراد وعائلات من دواوير وقبائل الشاوية جاءوا للاستقرار قرب عيون المياه العذبة، أشهرها عوينة الحاجْبات..أما وادي بوموسى فإنه يخترق المدينة، على غرار المدن الأوروبية الكبرى والشهيرة. وطاب للنازحين الاستقرار أيضا إلى جوار القصبة الإسماعيلية وبين ضريحي بويا الغليمي وسيدي بوعبيد، وهما عالمان صالحان ووليان يحرسان مطلق الخير في مطلق الخيال.

وستعرف المدينة، منذ ثلاثينات القرن الماضي، نموا جديدا وحركة مازالت قائمة حتى الآن، فراكمتْ تاريخا اجتماعيا باذخا بأحداثه وشخصياته وأساطيره مازال مُبدَّدا في الذاكرة والحكي الشفاهي.

قال لي بويا يوم وصولي، بأن واحدا من ورثة عائلة(بلمعطي)، والذين فوَّتَ أغلب أفرادها إلينا أنصبتهم المشاعة من أراضيهم الفلاحية بالسكوريين وأولاد شعيب وموالين الواد، قد جاء إلى المقهى وهدده بالقتل.

بعد يومين وأنا جالس إلى جواره، ومعنا عدد من الفلاحين، جاءت زوجة نفس الرجل الذي هدد والدي، فسبتني أمام الجميع ثم هددتني بأنها ستستأجر اثنين من حي سيدي عبد الكريم كي يقوما بتصفيتي إن أنا لم أبتعد عن أرض الورثة. (وكان زوجها يطمع في غَصْب حقوق باقي إخوته).

قررنا دفع المسألة إلى النيابة العامة من خلال شكايتين، وقد جعلنا مرجعنا في هذه المسألة أساتذة كبار :جلال الطاهر، محمد الصبري وأحمد نور اليقين..استشرناهم ثم وضعتُ الشكايتين لدى السيد وكيل الملك، وفي الغد سجلنا أقوالنا وأقوال الشهود عند الشرطة القضائية بالمقاطعة الثانية.

إنها معارك عادية وضرورية لرفع تحديات الوقت. (في نهاية الشهر سيتدخل عدد من الأصدقاء للصلح بيننا بعد تعهد الرجل وزوجته والاعتراف بنا مالكين شرعيين، وانتهى الأمر).

الطواف اليومي

كل يوم في آخر المساء، أخرجُ رفقة علاء وزينب نمشي على أرجُلنا، ننعطف على حمام اقْرابْ ثم نهبطُ مرورا بمقهى بوشتى قبل أن ندخل المسرى الأبدي للمدينة :زنقة القائد على/ الذهايبية ؛وصولا إلى ساحة مقهى الساقية الحمراء سابقا والعمود الذي اشتهر بالجلوس تحته اضْريسة بكُلاَّباته الصدئة..دخولا زنقة مولاي يوسف حيث المسجد (وقبالته المكان الذي كنت أجتمعُ فيه رفقة أصدقائي ونحن تلاميذ)، مواصلين طوافنا انعطافا على اليسار بزنقة الشهداء قبل الدخول عبر زقاقين صغيرين يخترقان درب الصابون ويفضيان إلى مدرستي الأولى يوسف بن تاشفين/ القشلة، ثم الشارع الكبير الذي نتوقف فيه أخيرا لنشرب عصيرا أو نأكل شيئا.

كل هذه المسافة لا تأخذ منا أكثر من عشر دقائق. ولكنها قد تأخذ مني كثيرا إن أنا طاوعتُ مخيلتي لتذكر كل الخطوات، وهي كثيرة، رسمتُها طفلا وشابا يافعا :

أرى نفسي بقامتي وشَعر رأسي الكثيف وملامحي السمراء، رفقة أصدقائي :العربي الذهبي، محماد المودن، أحمد هادن ونور العابدين عبد الكريم... نمشي نحن الخمسة مثلما كان يمشي الفلاسفة في اليونان. أحاول أن أقنعهم بأن هذه الأرض التي هبطنا عليها أرض مقدسة.. فيضحكون وأواصل رسالتي فيهم وأنا أتساءل، مثل عرَّاب ضليع، إذا لم أُقنِع أصدقائي فكيف سيقتنع العالم بعد ذلك ؟

مات محماد المودن في حادثة سير بالجنوب المغربي سنة ١٩٨٧، وبعد عشرين عاما سيموت العربي الذهبي، بدوره، في حادثة سير وهو في طريقه إلى بني ملال.

التذكر صعب، وبقدر ما فيه من متعة، فهو مخلوط بالحسرة.

في سطات أشعر بمعنويات عالية، كما أشعر بالأمان وبأني، كما لو كنتُ نبيا حجته في وِجْدانه الذي يسع الأرض بترابها وصهدها وناسها، وحجته الكتابة، بل الرواية وهو أول روائي بالمدينة، هو صوت قبائل المزامزة وأولاد سيدي بنداود وأولاد بوزيري وأولاد سعيد بعاصمتنا الأثيرة سطات :فيما القبائل الأخرى لها أولياؤها وروائيوها الفرسان: أحمد المديني صوت قبائل أولاد حريز شرقا وغربا؛ ومبارك ربيع صوت قبائل أولاد عبو وبن معاشو ؛ والميلودي شغموم صوت قبائل امزاب كلها..وهم أخوالي بما يجري في عروقنا من دم واحد وما نحمله من خرافات العصر.

لم تُنجب الشاوية فلاسفة ؟ لأن الحكمة عندنا ضاعت وتبددت في

شفاهيات شعبنا، ولم يتبق منها سوى أقل من واحد بالمائة في الأمثال والحكايات والأغاني وفي كل كاشوش (صدر).ومثلما أنجبت أرض الفلاحين وخزان إفريقيا من الحبوب حكّائين شعبيين كبار في تاريخ المغرب، أنجبتْ أيضا ولا تزال، علماء وعالمات يعملون في لانازا الأمريكية وفي أكبر المؤسسات العلمية والاستراتيجية بأمريكا وأوروبا فضلا عن الآلاف من علماء الرياضيات والطب وغير ذلك من العلوم.

الأمر لا عصبية فيه، وأكيد أن مثله وأكثر في كل المناطق المغربية الأخرى سهولا وجبالا. فقط الواقع يحتاج إلى بحوث دقيقة لتصحيح صور نمطية أُلصقتْ بالفلاحين وبأبنائهم.

أمي وزينب

لا أعرفُ لماذا يحب بويا وأمي زينب ومريم حبا كبيرا، فيما يُعامَل علاء بحب لا إفراط فيه، ألأنَّ تكوين الرجل يحتاج إلى تربية تجعل منه رجلا صلبا يعرف كيف يتحكم في عواطفه ولا يغتر بالكلام أو يؤثر فيه؟.

أرى أمي، كما لو عادت إلى طفولتها، تُلاعب مريم وتحكي لزينب كل الأحاجي والحكايات التي ملأت بها رأسي صغيرا حتى ابتُليت...

عوَّدتُ أولادي على طريقة طبيعية في علاقتهم بي وبأمهم وبعائلتي، فهم ينادونني " بَّا" وفي مرات أخرى، للتعبير عن فرحهم القوي، ينادونني "بويا". كل صباح أو أثناء دخولي البيت يُقبِّلون يدي اليمنى قبل الارتماء عليّ بالعناق والبوس.. أما مريم التي لا تزال في طور تعلم هذه العلاقات، فكلما عدتُ من سفر أو دخلتُ البيت في أوبتي من العمل، وتسمع صوت الباب فإنها تصرخ فرحا ولا تعرف ماذا تفعل فتجري وتسقط على الأرض ثم تقوم لترتمي في أحضاني باحثة عن وجهي لتبوسه ثم تشرع في البحث داخل

جيوبي علها تجد شيئا مما وعدتُها به. ولابد أن تنام في كل عودة من سفر، في أحضاني فرحة، سعيدة، وكلما اقترب مني أخواها إلا وتصرخ، كما لو كنتُ ملْكها الخاص بها حتى تبرد وحشتها.

هناك سر بيننا جميعا أفشى به إليَّ علاء، ففي كل سفر لي داخل المغرب أو خارجه، تختلي زينب بنفسها يوميا داخل المكتب وتأخذ كتاب الله الموجود في أحد الرفوف، تفتحه لوحدها وتُخرج من بين صفحاته صورة لي، تنظر إليها ثم تُقَبِّلُها، فتعيدها إلى الرف وتخرج لتنخرط من جديد سعيدة ممتلئة القلب والروح. وكلما فاتحها أحد في الأمر تشرع بالبكاء..لأنه سرها الحميم.

دائما، ومنذ أن وعيتُ، تقول لي أمي، لي وحدي دون إخوتي السبعة، بأن الله يحرسني من شياطين الأرض وأنه خصَّ ملاكا بي، كانت تراه لما كنت رضيعا، يجلس بالقرب مني، وقد صدَّقتُ الأمر عن حب وطيب خاطر، وأصبحتُ مع الأيام أؤمن بهذه الكرامة الإلهية، كلما رأيتُ بعض العلامات العجيبة التي تحصل معي، أحتفظ بها لنفسي ولا أحكيها إلا لأمي.

أصبحتْ مهمة الملاك نفسه، بالإضافة إلى حراستي، القيام بتدوين كل ما أقوم به وأقوله وما أفعله. وسيقدم الدفتر للمولى عز وجل في اليوم الموعود.

خَطَرَ لي خاطر، ماذا يا ترى يكون قد كتب عني ؟لماذا لا أُدَوِّنُ بنفسي ما أعلمه ويكتبُ عني ملاكي ما لا أعلمه ؟ كان بودي أن أحاوره في بعض ما يكتب عني وتأويل كل ذلك.

حوار الملائكة

عدتُ إلى الدار البيضاء، وفي الخامسة صباحا استفقتُ.. فأخذت الماء

وسقيتُ شجرة الليمون وباقي الأحواض في الحديقة الشرقية للبيت، ثم عدتُ وارتديت لباسي الرياضي واتجهت نحو حديقة لارميطاج. كانت غاصة بالرجال والنساء الذين يمارسون رياضة الجري والحركات. دخلت بينهم لساعة إلا الربع قبل أن أنسل إلى الملعب المجاور في الجهة الأخرى ولعبت لساعة مقابلة ودية في كرة القدم مع أصدقاء لا أعرفهم.

رجعتُ إلى البيت واستحممتُ ثم تسللت بجوار مريم وهي لا تزال نائمة، أخذتُ برفق يدها اليمنى وبدأتُ أعُدُّ في أصابعها بما سأجلب بعضه لها في المساء، شرعتُ أنطق الكلمة فتكررها ورائي وهي مغمضة العينين بعدما أَحَسَّتْ بوجودي وأرادت الدخول في اللعبة، وبين الهنيهة والأخرى تتلصص عليَّ من خلال فتحها الضيق لعينها اليمنى. أقول الكاوكاو فتردد ورائي :كاكاو، سويتيس/ سيتيس، بيمو/ بيمو، دانون/ دانون، فورماجة/ موماجة. وحينما أتمم الحساب في يمناها، أواصل كما تواصل معي في أصابع اليد اليسرى، بينما تبقى اليمنى مضمومة الأصابع. أقول مسكة /ك، فنيد/فنيد، رايبي /غايبي، زريعة /زغيعة. تجمع أصابع يسراها هي الأخرى، ثم تَمُدُّ إليَّ أصابع رِجْلها اليمنى لأواصل العد، فأمرر أناملي على بطن رِجلها فتضحك وتتلوى ثم تفتح عينيها وتقوم فتجري إلى المكتب وترتمي على الكنبة بحثا عن اللعبة اليومية.

نحن في عطلة، يكرر علاء الجملة، فأؤكد له الأمر، يقوم فيستخرج كل لُعبه القديمة، ومحفظة خاصة بأدوات العمل المنزلية، يصلح، يكسر، يرمي ثم يقوم معي لنصلح بعض ما تعطل في البيت..جهاز البارابول الذي لا نرى برامجه إلا قليلا أثناء الليل، وحينما ننتهي نأخذ الكرة وندخل الصالون لنعيث فيه كما نشاء من خلال مقابلة بيني وبينه، أُمثل فيها فريق النهضة

السطاتية، فيما يمثل ابني فريق الرجاء البيضاوي.

منذ ثلاث سنوات، حينما كان في السابعة من عمره بدأ يحب الكرة واللعب وفريق الرجاء بشكل سري قبل أن يعلن لي ذلك صراحة. هذه السنة أصبح يعلق على الحائط المجاور لمكتبه مقالات مضادة لفريق الوداد اقتطعها من الجرائد التي أجئ بها، وكلما كانت هناك مقابلة بين الرجاء والوداد أسأله سؤالا روتينيا واحدا : من سينتصر ؟ يفكر مليا ثم يقول لي : النهضة السطاتية.

في آخر ديربي هذه السنة، انشغلتُ عن السؤال فبادرني :

- بَا، شكون غادي يربح الرجاء أو الوداد؟

- أجبته : نون سين... أتعرفها؟

- نعم، النهضة السطاتية.

حلم في يوليو

حفاظا على روابطنا المغاربية، الثقافية، سافرت رفقة أحد أصدقائي إلى طرابلس للمشاركة في لقاء ثقافي، ليبي- تونسي. قضينا ثلاثة أيام ثم عدنا على عجل.

في أوبتي أحسستُ بإرهاق شديد، وفي الليل زارتني حمى شديدة، لم تنفع معها الأدوية المستعجلة، وخلال الصباح كنتُ عاجزا عن الحركة ومنهكا، وعرفتُ أن اللوزتين ملتهبتان، فزرت الطبيب، وهي أول مرة في حياتي أمرض بسببهما. أقعدني المرض لمدة أسبوع وأنا أتناول أدوية حيوية مضادة، وأشرب صباح - مساء شرابي المفضل من عصير البرتقال الممزوج بالليمون والقرفة.

في اليوم الثاني، من وعكتي الصحية، هاتفني صديقي ليطمئن على

صحتي فأخبرته بعدم قدرتي على السفر إلى صنعاء، وطلبتُ منه الاعتذار نيابة عني، فأخبرني أنه سيراسلهم كونه هو الآخر لن يسافر.

بقيتُ بالبيت وقد تحولتُ إلى طفل هادئ في نظر زوجتي، التي تجلب لي بين حين وآخر أكلة خفيفة أو مشروبا من عصير يخفف عني الحرارة، ولا تتوقف عن لف رأسي بضمادات تحشو تحتها قطع الليمون والخيار والمخينيسة.

اليوم الثاني كان صعبا حرارة وعرق بلَّلَ كل ملابسي، وفي الليل رأيتُ حلما مزعجا، كنت أراه دائما كلما مرضتُ، حتى إني صرت حافظا لتفاصيله.

رأيتُ نفسي ماشيا في شارع ساكن لا حركة فيه. أمشي دونما التفات، وفجأة، أحسست بسكين حادة تنغرس في ظهري عميقا، فأشعر ببرودة مفاجئة تسري في كل مفاصلي، شلل يُطبق على تفكيري فأرتخي وأبدأ في التهاوي. أجاهد كيْ ألتفتَ لرؤية من طعنني..فأعجز عن الرؤية لأن عيني كانتا قد امتلأتا بالدموع أو الدم.

لست نادما على شئ فقد عشتُ كما أردتُ، فخورا بحياتي وشجرة أنسابي من أبي وأمي وقبيلتي، ولست خاشيا الموت وإنما يؤلمني الغدر.

حينما استفقتُ مذعورا، وكان ظلام دامس وثقيل، كانت الدموع لا تزال تملأ عيني. لم أتبين كم الساعة. استغفرتُ ربي العظيم، ثم قمتُ وحملتُ بين ذراعي ابنتي زينب إلى جواري ونمتُ حتى الصباح.

قمتُ حزينا وصامتا لا أُكلّمُ أحدا.

لو فكرتُ في القيمة الوحيدة التي لا أقايضها ولو بروحي، ولا أبحثُ لها عن مبررات مهما كان الوضع، لوجدتُ أنها الإخلاص وعدم الغدر بكل

أشكاله وتفاصيله وفي جميع مناحي الحياة؛ وهو المبدأ الذي يؤسس بيتي ويجمعني بأصدقائي..الإخلاص التام. بينما ما فرَّقني ويُفرقني عن بعض الأصدقاء الآخرين هو الغدر الذي يمارسونه يوميا وبدون أي رادع أخلاقي أو اجتماعي أو ثقافي.

إنَّ من يطعنُك غدرا، يمكن أن يفعل أي شئ ويمارس كل الموبقات لكون نفسه ذليلة وبها عطب لا يبرأ، فقيمة الإخلاص هي السمو بالنفس التي تجعلكَ تشعر بامتلاءٍ كاملٍ ودائمٍ بالحب والطمأنينة.

●●●

شُفِيتُ بعض الشئ رغم الإحساس المستمر بالإعياء الذي استمر إلى بداية شهر غشت. فذهبت ليومين إلى الرباط في ندوة اتحاد كتاب المغرب حيث التقيتُ بأصدقاء أعزهم ؛ ولما عدتُ يوم السبت عاودني التعب ونزلة برد حادة. بقيت يوم الأحد كله بالبيت وفي الغد سافرت إلى سطات مع الأولاد لثلاثة أيام.

بسطات، التقيتُ بصالح الوراقي، وكان قد كلمني هاتفيا في منتصف يوليو حينما صدرت لي بالجرائد وشايات شهر يونيو، ووجد نفسه فيها، فعبر لي عن إعجابه وقال لي بنوع من الجرأة بأنه بإمكاني كتابة اسمه الحقيقي. ركبنا سيارته الكاتكات. شعرتُ به سعيدا بسهرة تحولت من ليلة عابرة إلى حكاية صيفية.

وصلنا الضيعة بعدما عرجنا على مركز سيدي العايدي، ومن عند بعض أصدقائه جاء بِقُلَّةٍ مُلِئَت عسلا حرا مع ديكين شامخين. وقبل انصرافنا التقينا مْويليدْ والذي علم عن طريق صالح بما كتبتُه عنه ليلة السهرة، وعن الوزراء والرسائل إلى الملك.

قال لي مْوِيلِيدْ: آسي الأستاذ، خَصْنَا نْدِيرُو ليكْ كلَّ سيمانا سهرة..وأنت تَكْتَبْ علينا حتى يعرفنا الملك ديالنا والملك ديال فرنسا والطاليان.

ضحكنا ثم انصرفنا إلى سطات التي لا أجد لها بديلا في هذا العالم.

طاب يومك جدى راعا

بقيتُ لوحدي مع أني في المساء، بعدما خرجت زوجتي والأولاد في جولة بالمدينة. تحدثنا طويلا ونحن نشرب القهوة، أشتكي لها وتشتكي لي..تحكي لي عن أخبار كثيرة تراها بالتلفزة وتسألني عنها.

مرة، قالت لي أني الأقرب إلى قلبها والأكثر معزة، فلم أسألها في التفاصيل، لأنني أحسست بشعور المحبة القوية..وذاك يكفيني عن أي تعبير.

أمي امرأة، الآن هي في السبعين أطال الله عمرها، أمازيغية تزوجها بويا محمد بن عبد السلام بعد عودته من الحرب العالمية الثانية وانخراطه في حياة التجارة بالأسواق. رَوَتْ لي مرارا حكاية والدها الحاج الحسين وفيقي المكنى ب " راعا" والذي توفي في أواسط السبعينات من القرن العشرين.

في هذا المساء كنت قد جئتُها بصورة كبيرة له، وضعتها في إطار على الحائط بعدما قبَّلْتُها ثم تذكرتُ مرة أخرى ما روته لي في السابق وهي تتأمل صورته:

كانوا ثلاثة إخوة فقهاء في عز شبابهم، خرجوا ليلا من الساقية الحمراء بالصحراء، موطنهم الأصلي، في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، كل واحد منهم يحمل على كتفيه كيسا من الكتان مليئا بالكتب الدينية والمخطوطات.

خرجوا دون أن يعرف أحد لماذا غادروا الصحراء في اتجاه فضاءات أخرى. افترقوا بعدما قرروا قرارهم، فتوجه الأول إلى الحج دون أن يُعرف له أثر بعد ذلك وحتى الآن، أما الثاني فقد واصل سيره إلى منطقة بَزُو حيث استقر، فيما استوطن الثالث منطقة اسمها دمنات، وهم أمازيغ يعيشون على الفلاحة والرعي وبعض التجارة.

هذا الأخير، بدمنات، تزوج وأنجب الحسين والداودي ورقية. ويروي الحسين، جدي، أن أمهم ماتت وهم صغار فلم تمض سوى أربعين يوما حتى مات أبوهم أيضا حزنا عليها. ووجد الإخوة الثلاثة أنفسهم، في العشرية الأولى من القرن العشرين مع دخول الفرنسيين إلى الدار البيضاء، يتامى.. أوسطهم الحسين في الثالثة عشر من عمره، أما رقية، أختهم الوحيدة، ففي العاشرة من عمرها، أخذها شيخ القبيلة منهم ضمن حريمه، وستصبح بعد أربع سنوات زوجة من زوجاته، خلفت له دزينة أطفال لا نعرف منهم أحدا. وسينتظر الداودي بداية الحرب العالمية الأولى لينخرط جنديا ضمن الجيش الفرنسي ويرحل إلى أوروبا ثم يبقي هناك، ولم يعد يزور البلاد إلا لماما.. ثم شارك في الحرب العالمية الثانية حتى أصبح جنرالا واستقر نهائيا مع أولاده وزوجته الفرنسية ولا نعرف عنه شيئا الآن.

بقي الحسين وحيدا يعمل بمجهوده العضلي لما لم يستطع أن يكون مثل والده، فقيها يحفظ كتاب الله ويعلم تأويله..ثم عمل في تجارة الخيل والبغال مع محماد ابن عمه الذي استقر ببزو، لكنه لم يقدر على مغامراتها التي تُعرِّضهُما باستمرار للأخطار. فعاد واستقر بدمنات وسيجد امرأة مات زوجها وترك لها ابنتين توأم إحداهما اسمها حليمة، هي جدتي بعدما أصبحت زوجة الحسين. ولما تمادت الإقامة الفرنسية العامة في استعباد

الأهالي، باع جدي الحسين اثني عشر قنطارا من القمح وبقرتين ثم حمل ما خف من أثاث على حمار وشق الطريق من دمنات في اتجاه مراكش ثم واصل السير إلى مدينة تسمى سطات، وذلك سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف.

كانت سطات عبارة عن عراصي ونوايل..شَعَرَ -كما سيبوح لأبنائه بعد سنوات، بعدما أصبح واحدا من رجالات المدينة - بالراحة والطمأنينة التي أشعر بهما الآن، فقال جدي لزوجته حليمة، وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها بعد :هنا سنضرب الأوتاد ونخلف الأولاد.

أصبح فلاحا في العراصي التي كانت تنتج الخضر والفواكه عن طريق السقي، ثم مَلاَّكا لعدد منها.

(وستعمد الدولة المغربية ممثلة في السلطات المحلية بمختلف درجاتها إلى اغتصاب تلك الأراضي من أبنائه دون وجه حق أو تعويض محترم، وبعدما أصبحت تلك الأراضي ضمن نفوذ المدار الحضري للمدينة، منها ما تحول سابقا إلى مقر ولاية سطات والملعب الرئيسي لكرة القدم وماتبقى جزء كبير منه تحول إلى غنائم بين مسئولين في المدينة).

عاش جدي راعا سعيدا ويتوفى إلى رحمة ربي في أواسط السبعينات بعدما خلف خمسة أبناء : ولدان وثلاث بنات، بينهن أمي، وحج مرتين على الباخرة. أما جدتي حليمة والتي حجت بدورها مرة واحدة، فقد توفيت قبل عشر سنوات.

أُحِسُّ بأن دمي نهر شاوي جارف يجري بلا توقف، ترفده بقوة دماء صحراوية افريقية وأخرى أمازيغية..تنوع وحياة في لقاء بويا بن عبد السلام بأمي بنت الحاج راعا خلال زواجهما سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف.

صلاة مريم

في كل أوقات الصلوات، باستثناء الفجر، كانت الفقيرة إلى الله، مريم، تجري حينما تسمع صوت الأذان، فتنتظر أمي التي تتهيأ للصلاة ثم تقترب منها وتفعل مثلها كما تفعل مع أمها بالدار البيضاء..تصلي وتكرر بعض الكلمات، لكن أهم مرحلة تعجبها هي التشهد والتسليم خصوصا في حركة سبابتها وإدارة رأسها يمينا وشمالا. فيما لا تجرؤ على فعل نفس الشئ مع بويا أثناء صلاته.

٣- لماذا نسيتُ الكلام قليلا..؟

(بخور ورمان وعرس بدوي على إيقاع الأغاني القديمة، وغشت يُشهِر ألواحه على ثوار الشاوية، ثم ملامح قصيرة، للضرورة، من سيرة الكاتب)

اعْلاَشْ دْخلتْ جْنانْ المشماش؟

قررتُ، في شهر أغسطس، التحرر من كل شئ يربطني بالشهور الفائتة..فلم أعُد أقْرَبُ الكتابة أو جهاز الكمبيوتر، كما تخليتُ عن الاطلاع على البريد الاليكتروني، وخاطبتُ أصدقائي بتأجيل لقاءاتنا بمقهى الشاوية إلى ما بعد العاشر من سبتمبر.

صرتُ حرا إلا من علاقتي بنفسي وعائلتي والأرض. وربما الأمر ليس هكذا، وإنما هو مرتبط بحالة أخرى..فمع دخول شهر أغسطس، غمرتني الحياة مثل مَدٍّ هادرٍ حتى غطَّتني كاملا ولم يَعُد رأسي يتنفس خارج شلاَّلها الذي يجرفني مثل ريشة عصفور أو ورقة مشماش..فصرت كما أريد لنفسي مواطنا بدون قيود أو التزامات، ينتمي إلى أرضه ومواطنيه، منشغل وغير منشغل أيضا. وفي هذه المرحلة تبدو لي الكتابة - ضمن قناعات أكثر جذرية وإحساس يؤمن بالبداهة والحدس - تبدو لي ضعفا ووهما وانشغالا في الاختلاق والتلفيق، وهو أمر يُناقض الحياة التي هي الشكل التعبيري الأضخم والأقدر على احتواء كل شئ.

في هذه اللحظات، أكون بعيدا عن الرغبة في الكتابة متبرما منها، فأنسى الكلام والقول قليلا..هل هي حالة من الوحم الطبيعي في نفسي التي تختمر بها عناصر جديدة ؟

الكتابة بالنسبة لي مثل عرصة من كل الفواكه، أخرج منها وأعود إليها كلما غمرتني رائحة فاكهة جديدة..وفي كل دخول تسألني نفسي، لماذا دخلتُ

جُنان المشماش؟

سعدتُ مثل طفل بدخول فاكهة الرمان حيث أعتبرها أهم فاكهة في هذه الدنيا..وهو الأمر الذي يتبادر إلى خاطري حينما يُطِلُّ المشماش والخوخ والعنب والبطيخ... فواكه تصبح جزءاً من حياتي اليومية ومن متعة ربانية في هذه الدنيا.

دم السلالة

عَالَمَان منفصلان داخل البيت وخارجه، أعيشهما بشكل يومي ودائم.. يحياهما كل إنسان بانشغالاتهما وتدابيرهما المتقلبة. خارج البيت هو جوهر الصراع والقسوة وإنْ بدا في لحظات محسوبة غير ما يجري، لذلك أغبط العديد من أصدقائنا على عالمهم الموحد، البسيط والروتيني، والذي يجدون فيه متسعا من الوقت لعيش الفراغ بكل أشكاله، حتى إنهم كل مساء يجدون فائضا زمنيا لا يعرفون ماذا يفعلون به !.

أما عالم البيت، فهو عندي لحظة هُدنة وترتيب للقادم، بعيدا عن مجازفات اليوم. أدخل البيت لأتحرر من عهود طاحنة وملابسات اليوم. لذلك فإنني بالبيت، فضلا عن القراءة والكتابة، في الصباح الباكر أو في لحظات من نهاية الأسبوع اضطرارا، أعيش الحياة التي أريد. مثلا، يروق لي ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، من ضمن هواياتي الخاصة، أن أستخرج صندوقا نحاسيا صغيرا أخبئ فيه عددا من أهم أنواع البخور، ذات أصول هندية ويمنية. أتفقدها بتؤدة وتأمل يعتمد اللمس والشم والإحساس الداخلي.. ثم أختار النوع الذي سأمنحه فرصة مشاركة أنفاسي وأنفاس أسرتي.

تعمل زوجتي على ترتيب واستكمال عملية توزيع البخور على البيت

فتصبح الروائح التي عطرت المكان جزءاً من حياته وحياتنا، يزيده طبق من الورود المجففة، يتوسط البيت، بهاء وديمومة.

ويهمني كثيرا الاعتناء بهذا الصندوق والطبق المصنوع من الدوم، مثل عقود أعزها وأستريح لها، ولا أرى من ينوب عني في الإحساس بها والبحث باستمرار عن المؤونة التي أختزنها لفصول السنة من أجود البخور، فيما لا أستعمل العطور الكيميائية.

فاصل

أغسطس شهر التذكر والتطهر، يختزل أعمارنا ويُعيدنا إلى الطبيعة الأولى في علاقة مباشرة مع هوِّياتنا. ومن خصيصاته أن فجره يحمل نكهة حزينة، بينما غروبه ملئ بالفرح والأسرار.

كنتُ ومازلتُ مفتونا بهذا الفجر الذي يتمطط كَمَدٍّ الحياة لكفِّها الخرافي السخي على الحقول بوعوده اليومية ومفاجآته المركونة في خزائنه المغلقة. كل شهر أو فصل يكون لفجره لون وصوت وأحاسيس وأسرار، لكن فجر أغسطس حزين، به ضجر خفيف يخفيه ولا يعلنه، على عكس ديسمبر ويناير.

أما غروب أغسطس – كما أتخيله باطمئنان – فإنه مثل الفقيرة إلى الله مريم، ابنتي، ومن قبل كنتُ أراه في صورة الولية الطاهرة فاطنة بكت الطاهر، جدتي.

فجأة خارج مواقيت الزمان الطبيعي، يبدأ غروب هذا الشهر في التشكل من عناصر ومواد روحانية تعكس دهشة غريبة في النفس، كما لو أنها دهشة الأنبياء الأولى التي ورَّثوها لنا لما سقطت على الحقول والقلوب.

دم التراب

حياتنا مليئة بالاعتقادات والظن والاحتمال واليقين البديهي..وهي التي

تفتل رؤيتنا وترسم لها أقدارها إلى جانب الثوابت الكبرى.

كيف نُكيِّف تلك الاعتقادات والقواعد التي نُراكمها فتصبح جزءا محركا لحياتنا ولثوابتنا أيضا؟

بالنسبة لي، هناك هوية أخرى قوية في حياتي، تبنيها علاقتي بفكرة "العائلة" ثم الأرض، كلاهما يحققان نظاما معقدا تصبح فيه حياتي الأخرى بالدار البيضاء، في العمل أو خارجه، طرفا تابعا للقيم التي تحكم هويتي.

هوية الدم في العائلة التي لها عرَّابٌ واحد هو بويا، كما ندعوه جميعا، بينما يدعوه الأطفال والنساء بالأب الكبير، وهي تؤدي نفس المعنى الذي يجعل من محمد بن عبد السلام، بويا، عرَّابا له عائلة صغيرة داخلية، وأخرى كبيرة خارجية من أصدقائه ورفاقه. له صفات القائد والحكيم والأمين، من صفاته القسوة والعفو. لا يصل إلى يقين ما إلا عبر الظن والتخمين وحدوسه الروحانية.

مع تعاقب الأيام صرتُ مساعدا لبويا وخزينة أسراره، أساهم إلى جواره في ترتيب القرارات. أمي تقول إني نسخة منه في شكل جديد.

في هذه الهوية، بدون وضعي في هذا النظام سأحس بالنقص، لأن دم السلالة حصن عال للنفس والروح والقيم، سلالتي القريبة جدا من أنفاسي أو سلالتي التي يربطني بها المكان والأرض والجهة بكل التراب الظاهر والغابر.

علاقة معقدة، ناتجة بالتأكيد عن نظام سُلالي يربطنا بأجدادنا وبالأحداث التي عاشوها، وأعيدُ اليوم تأويلها. هو نفس نظام الثوار، وربما لكوني كاتبا وأستاذا جامعيا، أجدُ في الأرض التي أنتمي إليها، في

تاريخها وتاريخ رجالاتها ونسائها، مادة ثرية لأيقونات كونية، ولخصوصية أُعَبِّرُ بها عن رموز تنطلق من الجزئي والهامشي، من الحدثي والشخصي لتصبح شيئا كليا ومركزيا وجمعيًّا.

بين هوية العائلة وهوية المكان تختلط ثقافات شتى، عروبية وأمازيغية وإفريقية، تعبر عنها أنظمة وأنساق دائمة التشكل. لذلك ليست لي - بتاتا - طموحات في المجال المهني أو أنني أبحث عن سبل، كيفما كانت لأصبح مثلما يحلم الكثيرون، قناصلة في الداخل وفي الخارج. يكفيني فقط أني سليل أنبياء هذه الأرض وأوليائها وثوارها، ومفوض للدفاع عن رسالاتهم وأحلامهم، ونشر نبضات أرواحهم التي لا تتوقف أبدا.

كثيرا ما أتأمل..

على الرغم من استمرار انشغالي في قضايا تتعلق بالأرض واستكمال إجراءاتها، حيث أصبحت لنا هوية ترابية بقبائل أولاد بوزيري، تربطنا بالشاوية الجنوبية وهو ما منعني من الابتعاد والسفر مع الأبناء إلى طنجة وأصيلا، كما كان مقررا، واكتفينا بالبقاء في محيط قريب من الدار البيضاء، على أبواب طماريس البحرية وسيدي رحال الشاطئ.

قضينا أياما متفرقة، لكنها ممتعة..انتهت بسلخ جلود الأطفال الذين شبعوا من الرمل والبحر والشمس، وما أثارني هو الذهول الذي رأيته على وجه مريم وهي تقشر جلدها ببطء وخوف واندهاش.

في الأسبوع الأول كنتُ متعبا. إرهاق عام دفعني وأنا مُقبل على السفر إلى سطات، إلى العدول عن الذهاب بالسيارة. فقمت باكرا وتوجهت إلى طريق مديونة - القريعة عبر سيارة أجرة صغيرة، في انتظار سيارة أجرة كبيرة نحو سطات.

مرت أكثر من نصف ساعة، كل سيارات الأجرة المارة محملة بالعدد الكافي، مما اضطررت معه إلى ركوب أول حافلة تتوقف، شعرت بالحدس، لاهترائها، أنني ركبتُها مرارا مذ كنت طالبا بالدار البيضاء.

حكاية قديمة فى صيف جديد

أغسطس الذي يمر من أمامي، في ثياب خفيفة، شهر قديم وحلم شمسي يُنوِّرُ باقيَ الشهور.

ركبتُ الحافلة الحمراء العتيقة، القادمة من محطة أولاد زيان، أو من أي نفق كانت مختبئة فيه. وأنا لا أتصور ركوب شيء آخر في مسافة ٧٢ كيلو متراً إلى سطات في طريق منبسطة ومستقيمة سنقضيها في زمن يتجاوز ساعتين ممددتين مثل سعال عجوز متهالك. في حين لا تتجاوز أية سيارة في الطريق السيار أربعين دقيقة أو أقل.

بالتأكيد.. العلامات نفسها لا تتبدل : مديونة، النواصر، برشيد، سيدي العايدي ثم الفيلاج الأثري، والشخص ذاته هو أنا، كما الحافلة المتهالكة التي تجمعني بها الصدفة حتى أدمنت انتظارها أو هي التي تتعمد انتظاري... لها القدرة على أن تُلهمني قوة داخلية بتأملات أستمدُّها من شساعة وثبات الحقول.

ليست الحافلة متهالكة، بل رؤيتنا التي تهدمت، أما هي فتمشي متخايلة على الأرض تحترم سفرنا الفعلي والروحي. وكان علي ألا أبالي بما سيقال أبدا وأجعل المسافة -كلها - في ذهني ووجداني، أقطعها يوميا كما لو أني أرتدي قميصي الأزرق بنصف الأكمام.

صهد تدلّت له ألسنة الأطفال والعجائز، فصاروا يمررون زجاجات الماء بينهم دون جدوى. لم أنتبه للمشهد لأنه مألوف... فنحن البريون نعشق

السباحة في التراب والصهد، ونتعايش مع كل الرياح.

كل الأغاني الجميلة في خيالنا، سمعتُها عبر كاسيتات الحافلة، بصخب وتكرار. اللهب ثم العرق المتقاطر من كل جسدي لم يمنع أذني من التركيز أو عيني من الانتشار امتدادا في الحقول.

صوت الفنان ميلود المغاري يأتينا بصعوبة وهو يقول :

أوليدي يا أوليدي الدايم ربي/ تعالى لمكاني تْشُوفْ حالي/ الطير الحر ما يخرج فركوا.

جـوج خـواتم كُلْهَـا وْدَكُّـو/ مَـالْك يا نفـسي مْـعَـذْبـاني/ مَـالْكِ يا لياام.سَاعْفيني.

كما لو أنه فيض حب زُلال كان معتقلا في خوابي معتقة، ثم فجأة يكسر كل شيء ويجرفني عميقا بعنف ناعم. أغمض عيني -دون بصري- أحس بانجـراف وسط شـلالات الشـوق، لحظتـهـا أبحث عن حـبل أربط به هذا الاندفاع الروحاني فلا أجد غير أبخرة الانتشاء التي لن تزيدني إلا هبوطا.

قصبة مديونة تختزن ألسنة حارة لصيف غشت... تتكلم عن الشيخ الذي صعد الربوة وقال :

- "لا أتخيل كيف أصير حينما أفارقك. أنتظرك كل يوم حينما تدفعين بالشمس إلى الغروب، هل أستطيع أن أحيا بعدما أفقد - في مساء واحد وكل يوم - شمسين لابد منهما؟".

قال لي الذي يجلس إلى جواري(وكنتُ وحدي) : "قضينا كل عمرنا حتى الآن في مَدٍّ عظيم. ما العلم والتعلم والكتابة... سوى متنفس ل"حرْكتنا" في هذه الحياة وسط "جُنانات "الرمان العامرة بالرغائب وارتعاشات المتعة؟. كأننا أباطرة فَقْدنا الزمن وملكنا الأزل حتى نكون نافذين وناجزين. نحن

محاربون لن نستريح إلا تحت التراب".

عدت أنظر إلى الامتداد والصهد داخل الحافلة، والعرق الذي يتحول إلى سائل وأبخرة تتعانق بداخلي لشحذ قدرتي على اقتلاع التذكرات الذائبة من خوابيها.

قال لي (بل قلت لنفسي): سأتذكر تخايل الريح ببياضها الخيالي الأشد خفة من رذاذ الزبد، سأتذكر التفاتة شامة قبل قرن كامل لما أحست بانتعاش لذيذ وغريب، بوجه اليقين الثمل بالاحتمالات، بكلما، بلكن، بربما... سأتذكر غضبها مثل الريش يوم جاءت ثم ارتمت على صدري وكان الظلام ينظر إلينا بامتنان وكل حين يعض على شفتيه، ويتألم لأنها كانت تبكي في صمت ثم تتحدث عن رعب أخافها..وتقول لي :

نبغي عْدُونا يعمى / وأنا وأنت نشوف

نبغي عدونا يعمى / وأنا وأنت نْقُودُو

دوائر مربعة

لم يدوَّن في الأوراق الرسمية أني ولدت في الأسبوع الثالث من عام أربع وستين وتسعمائة وألف، لأن والدي محمد بن عبد السلام لما اضطر إلى إنجاز الدفتر العائلي للحالة المدنية، في نهاية الستينات، غيَّرَ كل التواريخ بالنسبة لي ولإخوتي، كما غير في اسمين من أسمائهما وصارا حتى الآن، باسمين اثنين، الأول هو المتداول والمعمول به عمليا؛ والاسم الآخر في الأوراق الرسمية.. وهو لعب لم يفسره لي والدي حتى الآن ويكتفي بالحديث في ما يخصني بالقول بأنه أسماني على اسم صديق أمازيغي له.. فيما قالت لي أمي بأن والدها الحاج راعا هو من اقترح اسمي على والدي.

قيل لي أيضا بأن شهر أغسطس الذي ولدت فيه واستُبدِل بشهر

ديسمبر، كان في تلك السنة ممطرا على غير العادة وسُمي صيفنا شتاءً..وليس غريبا أن يولد اثنان من أبنائي في شهر أغسطس.

نحن ثمانية أخوة، أنا سادسهم. أربع بنات وأربعة ذكور. مات منا سمير في سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف، دون احتساب اثنين ماتا في سن صغيرة : حسن وفتيحة.

نقطة فاصلة

في منتصف شهر أغسطس، لبيتُ دعوة بعض أصدقائي إلى عرس في البادية بقبائل المذاكرة، لدى صديق لهم، عم العريس، وهو معلم بالمنطقة لا معرفة لي به، واشترطت ألا أذهب حتى كلموه بالهاتف واستشاروه في استقدامي، وإن رأوا الأمر لا يحتاج إلى كل هذه الاستشارة والتحوّطات.

كنت في حاجة إلى الاستمتاع بتفاصيل عرس خارج تقاليد المدينة وأصباغها ؛خصوصا وأني وصلت باكرا.. فوجدتهم قد هيأوا لنا سرادقا كبيرا وسط الدوار إلى جانب بيوتهم. كنا أزيد من سبعين نفرا من كل الأعمار في البداية، بينما النساء دخلن فضاءً واسعا وسط البيت والغرف المتفرعة. يتهيأن لليلة جامعة للعرس والدُّخلة.

كان بعض شباب العائلتين هم من يقومون بالخدمة..وضعوا ثلاث صينيات للشاي ببراريد كبيرة مع كل المعدات الأخرى أمام شيخ من الشيوخ الحاضرين، والذي هَمَّ بأشغال صناعته حيث يبدو أنه مدرب عليها جيدا.

انطلقتْ تلاوة القرآن الكريم مع سبعة فقهاء كانوا جالسين قُبالتي، لم أنتبه إليهم في البداية رغم جلابيبهم وسُحناتهم المميزة. وكانت قراءاتهم مغربية عن طريق التلاوة الجهورية التي تتوقف عند كلمات معلومة

ومسجوعة بصوت عال، توقُّفٌ ممدد يعودون بعده إلى التلاوة السريعة وهي قراءة تقليدية مغربية، يجيدها الفقهاء في الحفلات وفي المآتم أيضا وأيام الجمعة في المقابر.

وأنا أستمعُ إليهم مرت بذهني حادثة جعلتني أبتسم لوحدي. فقبل سنتين، وذات سبت حينما كان علاء بالقسم الثالث الابتدائي، وضمن تهييئه لدروسه ليوم الاثنين اهتم بحفظ الآيات القرآنية لسورة الضحى، وخلال مراجعتي معه جعلته يستظهر الآيات بطريقة الفقهاء، وهو أمر أعجبه فحفظها بسرعة. وفي يوم الاثنين، وأثناء عودته في منتصف النهار، فاضت عيناه بالدموع لما رآني وبدأ يجهش بالبكاء وفمه يرتعد، أخذته إلي بسرعة فشرح لي بأن المعلمة أشبعته ضربا على كفي يديه حينما استظهر الآية بتلك الطريقة، وقالت له :

- واشْ أنتَ فقيه في المقبرة ؟ هنا مدرسة آمولاي؟

بقيتُ مشدوها للحكاية، زامًا فمي، أحبسُ ضحكة قوية جراء ما سمعتُ، ولما رآني هكذا سبقني وتحول بكاؤه إلى ضحك دون توقف. ضحكنا ولم يعد إلى طريقة الفقهاء، واكتفى، بعد ذلك اليوم، بقراءة المعلمة المحترمة.

●●●

قبل أن أدخل المدرسة، ولجتُ المسيد عند الفقيه الحاج أحمد لسنة واحدة، حفظتُ خلالها عددا كبيرا من سور القرآن الكريم بالحفظ الجماعي والقراءة على لوحة خشبية كُتبت بالسمق على الصلصال. ثم سجلتني أختي حكيمة بمدرسة يوسف بن تاشفين والتي كانت في الأصل معسكرا للجنود، ولا تُعرَف إلا باسم القشلة، ونحن جنودها الصغار :تعلمتُ فيها حب العلم من خلال الحروف وتركيب الجمل والإدمان على المطالعة وسط انشغالاتي

الصغيرة والكبيرة بالمدينة والبادية.

كنتُ في سن علاء الآن (عشر سنوات)أعيش في الأسبوع الواحد أكثر من حياة واحدة، في البيت والمدرسة، ثم في الضيعة والشارع ويوم السبت في السوق خلال العطل المدرسية.

بعد نجاحي في الشهادة الابتدائية انتقلت إلى ثانوية ابن عباد، والتي يسميها الفلاحون سوق التبن، قضيت فيها سبع سنوات للحصول على البكالوريا، وفي هذه الفترة تشكل وعيي الثقافي والاجتماعي والسياسي.

●●●

في حوالي الحادية عشرة والنصف ليلا جِئَ لنا بالأكل، دجاج بالمرق تلاه لحم بالبرقوق. ولما رُفعت الأطباق، انسل الفقهاء فاسحين المجال للطرب، فنانات شعبيات، كبيرات في السن، كل واحدة منهن يُعَبِّر الهرم فيها عن بؤسه بطريقة ما. أحسستُ على الفور بالضجر يتملكني، وبينما هن يعملن على تسوية ملابسهن وتجميع ما ترهَّلَ من لحومهن وهنّ واقفات متهالكات يضربن ضربا مبرحا في الطعاريج والبنادر- كأنها مصنوعة من جلودهن النتنة- أنقذني أصدقائي الذين دعوني وبتنسيق مع صديقهم عم العريس بالانتقال إلى بيته المجاور لمكان العرس.

في الطابق الثاني، دخلنا صالونا ضيقا ومستطيلا ذا نافذة واحدة تطل على سرادق العرس، جلست قربها. كنا ستة جِئَ لنا بالشاي وأطباق بها اللوز والتمر والزبيب. عاد إلي الإحساس الطبيعي وشعرت بطمأنينة بالغة.

أخبرني واحد من أصدقائي الثلاثة، وكلهم من رجال التعليم الابتدائي، بأننا سنستمتع بليلة من الفن الرفيع الذي أُحب، وهو أساس مجيئنا. لم ننتظر كثيرا حتى دخل علينا رجل في الثلاثين من عمره تقريبا، عليه ملامح

بدوية بارزة، يلبس جلبابا قصيرا ويحمل كيسا من أكياس الدقيق بداخله كمنجته ولوازمها.

قدَّمه لنا عم العريس بأنه فنان من الدوار ويسمونه عبد الحليم حافظ..ضحكنا وهَمَّ حليم بكمنجته وهَمَّتْ به، فأتحفنا بأنغام وأغان تعود إلى ريبيرتوار كل المراحل التاريخية والشعبية السابقة، فيها الهزل والحب والعذاب والود والعتاب، كما استمتعنا معه بأغان من تأليفه وتلحينه، رغم بساطتها وعفويتها لكنها تعبر عن صدق وفنية وعي شعبي جماعي.

غنىَّ لنا حليم بصوته الرجولي الطروب، بضمير الرجل والأنثى، وبضميرنا نحن المتحلقون حوله في غرفة ضيقة ومستطيلة. كنت قرب النافذة، أتابع عيوط حليم الغرقى في الحنين والوجدان، وفي نفس الوقت أراقب السرادق من عل وما يجري حوله من مناوشات بعض عزارى الدوار الذين رغبوا في الدخول بالقوة وقد شدتهم أغاني الفنانات الشعبيات الهرمات..كل ذلك يجري بالالتماس ثم السب والرشق بالحجارة، لما لم يسمحوا لهم بالدخول. وسيتكرر المشهد عدة مرات لكنه سيعرف ذروته حينما دخلت الفنانات الهرمات في أغنية "العلوة" وجذبتها الخاصة.

في عزلتنا نحن، رفقة حليم، كان الجميع سعيدا بتلك الأغاني منقطعا عما يجري بالخارج، لكن الفجر سيأتي بما لم يكن إلا في علم الغيب، ليكشف حدثا لم نتوقعه..صخب وضجيج بدأ يتعالى من الجهة التي خُصصت لدُخلة العريس على عروسه، إنها الشرارة الأولى -كما قدَّرتُ الأمر- لذلك أنقذنا عم العريس لما جاء إلينا يطلب بارتباك واضح أن ننهي اللقاء، ثم التفتَ إلينا نحن الأربعة وخاطبنا باحترام متصنع، فيه بعض التوتر، وسألنا إن كنا نريد النوم حتى الصباح... ثم انصرف دون أن يسمع

ردًا منا.

قمتُ كما قام الآخرون للانصراف، سلمتُ على الجميع واتجهت نحو سيارتي وقد بدأت شرارة العنف المصحوب بالكلام الفاضح. ضغطتُ على الدواسة في اتجاه مدينة سطات.

من أكون؟

لماذا نسيتُ الكلام قليلا وحولت بصري إلى أصدقائي القدامى، أكتب تأويلات لجزء يسير من أفعالهم..أسرد فقط الإشارة دون العبارة؛ وأنا أعرف عنهم تفاصيل حيواتهم الداخلية، شساعة وجدانهم وبداهة التصور.

الفرس الذي تركه لي جدي مربوطا في السْمَارْ، مَضَغَ الرسن وراح ولم تبق لي غير نفسي، فكل المعارك انتهت، فقط معركة النفس والقيم وحروب الإطاحة بكل ما هو جميل، تكاد تنهي عملها.

الآن، وجدت شيئا أتشبثُ به عند أجدادي وجداتي وأصدقائي الذين أحبهم أكثر من نفسي.. ووجدت شيئا أكتب عنه وأفخر به، يُقوِّمني وأمشي على هدْيه. ماذا سنترك نحن لأبنائنا وحفدتنا؟. بعد مائة سنة – في تقديري – سيكون أصغر حفيد لي في السبعين من عمره، هل سيجد شيئا جميلا من أثرنا يحميه ويعتز به؟

أتخيل في لحظات صفو، كلما كنتُ رفقة أصدقائي، أهل الثقة والصدق، أننا صورة حديثة بألوان طبيعية لصورة نورانية تجمع عبد السلام بن خليفة والأحمر بن منصور ومسعود ولد رحيمو والقرشي بن الرغاي وحمو الشرقي وبوعزة بن الشرقي والحاج محمد... يتداولون ثم يبسطون في الحديث ويضحكون من قلوبهم قبل أن نواصل الحديث في آفاق ما نعمل وكيف نجدد في آليات عملنا.

٤- زَلّةُ العَاشِق

عناق حميمي بين الدخول الاجتماعي والجامعي وبداية رمضان في اليوم الثاني من سبتمبر، والذي صادف عودتي المبكرة إلى الكلية لمناقشة أطاريح جامعية خلال يوم ونصف اليوم، بعد ذلك تفرغت للأبناء، إذْ رُحْتُ مع علاء وسجلته بالقسم الخامس أما زينب فبالقسم الثاني، وكنتُ معهما شاعرا بإحساس مفعم بالسعادة كما لو أنيَّ من سيلج المدرسة من جديد..وبعد يومين توجهنا إلى الحبوس على أقدامنا مرورا من شارع ٢ مارس ثم انعرجنا على درب مارتيني/ القسطلاني وصولا إلى الحبوس ببهائه العميق وتلادة حيطانه وأزقته. دائما كنتُ أتمنى أن أسكن بالحبوس في بيت عتيق، واسع جدا، بداخله رياض وشجر رمان وليمون.

دخلنا مكتبة دار الثقافة فاقتنينا كل المقررات الدراسية. وفي اليوم التالي توجهنا إلى شارع الفداء/ درب السلطان بقصد استكمال شراء الدفاتر والأقلام وباقي الحاجيات، فيما تكلفت سيدة بيتنا الفاضلة، بعد ذلك، بترتيب ما تبقى من تغليف وكتابة العناوين والأسماء.

أما المكتب الذي يجمعنا داخل البيت للدراسة والمراجعة فهو عبارة عن غرفة واسعة تطل نوافذها على فضاء الحديقة الشرقية للبيت، وقد عدنا إلى ترتيبه بصيغة جديدة مغايرة للترتيب الذي قضينا به السنة الفارطة. يوجد به مكتبي الذي هو عبارة عن طاولة مستطيلة كبيرة من الخشب الرفيع، وهي أحب إلي من المكاتب الضيقة. أجلس عليها لوحدي كما تصلح أن نجلس عليها جميعا للدراسة والمراجعة. إلى جواري على اليمين مكتب صغير خاص بزينب، وفي الجهة المقابلة لنا يوجد مكتب علاء، تتوسطنا كنبة وثيرة من جزأين، أمامها طاولة خشبية صغيرة وعلى طول جانب واحد من الحائط

مكتبة خشبية حائطية لوضع المقررات والدفاتر وأهم الكتب والملفات التي نحتاج إليها.

أما الفقيرة إلى الله، مريم، فكل الأماكن هي مكتبها، لذلك تحرص على الانتقال بين الجميع، وكلما ذهب علاء وزينب إلى المدرسة تتمتع بالجلوس في كل مكتب مرة، تفتش وترسم وتملأ الأوراق - التي أخصها بها وبعض الدفاتر الفارغة- بتخطيطات سوريالية.

أسكن ببيت ذي واجهتين، في حي متكون من فيللات صغيرة، يتكون أولا من طابق سفلي يوجد به مطبخ وحمام وصالون واسع للجلوس، ثم غرفة صغيرة تضم ملابس الأولاد اليومية، بالإضافة إلى غرفة واسعة تم تجهيزها لتكون مكتبا عمليا، وهو مفتوح على باحة غربية عارية، بها عدد من الأغراس وشجرة سفرجل. وفي هذا الطابق السفلي نقضي اليوم كله إلى حدود الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة على أكثر تقدير بعد تناولنا العشاء، لنصعد إلى الطابق الأول والمتكون من صالونين متقابلين وغرفتي نوم وحمَّامين. ويعتبر هذا الطابق المدخل الرئيسي والذي يطل على باحة عارية شرقية بها أيضا أغراس وشجيرة ليمون، وعبر هذا الفضاء يوجد الباب الرئيسي الأول للبيت.

ومن الطابق الأول تتفرع أدراج داخلية صاعدة من الطابق السفلي نحو الطابق العلوي والذي توجد به ثلاث غرف وصالون وبهو وحمام ومطبخ، مازالت فارغة لا نستغلها، توجد بها فقط غرفة كبرى استعملتها مكتبة رئيسية تجمع، في شكل متناسق، كل المراجع والمؤلفات التي في حوزتي. وقد عمدتُ خلال هذا الشهر، في أيام معدودات قبل موعد الإفطار بساعتين، الصعود إلى المكتبة الرئيسية، مُعيدا ترتيب الكتب والمجلات والملفات، كما

عملت على تحيين فهارسها.

القمطر السحرى

عاد علاء إلى عادة الاستيقاظ باكرا، يغسل وجهه، ثم يجلس إلى مكتبه يرتب أوراقه ويعيد أو يستكمل مراجعة دروسه اليومية، وحينما ينتهي يعود إلى قمطره السحري المليء بعدد من الألعاب اليدوية الصغيرة، والتي يصنعها أو يختلقها من ألعاب قديمة.

هذه الأيام، استعاد حبه الأثير في اللعب.. الخذروف (الطرومبية) التي أصبح يجيد صقل مهمازها وإدارتها بحرفية عالية تزند نارا على الأرض وتكسر خردوات أصدقائه. في كل أسفاري لا يطلب مني سوى الإتيان له بهذه اللعب البسيطة: البيليت والخذروف، ويتمنى يوما السفر معي خارج المغرب، لوحدينا دون أمه أو أخته ويبيت بالفندق ومتمنيا أن أعتمد عليه لأنه أصبح رجلا كما يقول لي.

لا يخفي حبه لأشيائه الصغيرة ورغباته الطفولية، مثلا حينما أقول له بأننا سنروح إلى السينما عقب كل نتيجة مدرسية جيدة، يصرخ بملء فمه وهو يرقص، الله أكبر، الله أكبر.فتح ونصر.

●●●

شهر رمضان من أحب الشهور إلى نفسي. عادات جديدة وطقوس ذات نكهة روحانية، أبذل فيه نفس المجهود الذي أبذله في الشهور الأخرى وأكثر، وفي كل يوم بعد الفطور أشعر براحة وطمأنينة.

في هذا الشهر من كل سنة أعود إلى ترتيب ملفات كتاباتي، وتكون شهيتي مفتوحة للشروع في كتابة تأليف جديد واستكمال العمل الأقرب إلى الانتهاء، وكانت هذه السنة مكرسة للتأليف النقدي بكتاب (مرايا التأويل).

أما روايتي الجديدة (أنا أيضا..تخمينات مهملة) فقد نشرتها الجريدة الأولى/ المغربية مسلسلة يوميا خلال شهر رمضان..في انتظار صدورها في كتاب لدى الدار العربية للعلوم، ناشرون ببيروت.

●●●

أحب الكتابة مثل رسالة سماوية خص الله بها بعضا من عباده دون الآخرين.

كان طموحي دائما أن أكون كاتبا أو أي شيء يجعلني أحمل المعرفة، (أو بالأحرى واحدا من جنود القبيلة.. بيتي على ظهر فرسي، صيفا وشتاء) من قبل، حينما دخلت القسم الأول بابتدائية يوسف بن تاشفين/ القشلة طلبَ منا المعلم في نهاية السنة، بعدما تعلمنا فك الحروف وتركيبها، أن نكتبَ رغباتنا في ما نريد أن نكونه مستقبلا، فكتبتُ أني أريد أن أصير معلما. وبعد ثلاث سنوات سألَنا معلم آخر نفس السؤال.. فقلتُ له:أريد أن أصبح فلاحا مثل والدي. أما المرة الثالثة التي أذكر أني سُئِلت فيها وكانت بالسنة الثانية من السلك الإعدادي، فقد رفضت تدوين أية رغبة، مما خلق توترا بيني وبين أستاذي الفاضل حين تشبثتُ برأيي، وأذكر قولي له ما معناه: أني حر في الامتناع والمقاطعة.

حديث ومغزل

على مائدة الغذاء أو العشاء، تعوَّد َعلاء أن يحكي لنا بعض ما يقع في فصله بالمدرسة من قبل المعلمة، له أو لبعض أصدقائه، ثم تتدخل زينب فتصدق على بعض كلامه أو تكذبه، مرجعها فيما تسمعه بساحة المدرسة.. وفي بعض الأحيان يحكي من أجل التغطية على حدث لا يريد الإفصاح عنه كضرب المعلمة له.. وهنا تتدخل زينب لتقول إنها سمعت من زميلاته بالفصل

بأن المعلمة ضربته وزميله... يقاطعها علاء نافيا ثم يؤكد في النهاية وهو يدبج لنا تبريرات له ولأصدقائه، ففي كل آخر حصة مع انتهاء الدرس يشرع في الثرثرة. ولما نسأله لماذا يشوش على الآخرين يقول وهو يبحث عن إقناعنا وعيناه قد جحظتا.. بل كنت أتكلم وصديقي حول الدرس.

مرة، أخرجَ البيبليت في نهاية الحصة وأدارها بسرعة مما أثار صخبا وفرحا بين تلاميذ الفصل.

وبقدر ما يواظب على دروسه بجد، فإنه لا يترك فرصة تُهدر دون الاستفادة منها في اللعب.

على مدار السنة الدراسية ومن الاثنين إلى الجمعة، عدا يوم الأربعاء، يعود من المدرسة رفقة أخته زينب في الساعة الرابعة، فتكون أمامه ساعتان للأكل واللعب والتفرج على الرسوم المتحركة في التلفزة المغربية، وفي السادسة والربع يبدأ في أداء واجباته المدرسية إلى غاية الساعة الثامنة أو أكثر قليلا، تراقبه في الغالب أمه، كما أجالسه أحيانا، خصوصا في فترات المراقبات والامتحانات.

ما الحياة؟

لا أريد ربط الكتابة بما هو غيبي، ولكني أعتقد أن الصدفة تلعب دورا كبيرا مع الكاتب والقارئ معًا. الكتابة ليست بأية حال لعبة أو وقتا ثالثا أو هواية للتفريغ، وإنما هي جزء من الحياة التي نتنفسها فضلا عن كونها شيئا نبيلا ومقدسا، و " مهنة " أزلية في اكتشاف حريتك وحرية الآخرين. هي المجال الأسمى- مثل مجالات أخرى- للصراع الحقيقي ضد القهر والظلم والنسيان، والمساهمة في بناء ذاكرة رمزية ومرجعية تؤسس لوعي مشترك وحس يوسع متخيلنا الكلي.

إن ارتباطي بالكتابة نابع من اعتقادي أني ضيعت حلمي في أن أصير فلاحا لا أعرف القراءة والكتابة، وهي رغبة حقيقية كنت أتمناها. مرة قلت لزوجتي وقد بلغ علاء الخامسة من عمره وكنا على أهبة تسجيله بالمدرسة:

- " أتمنى أن أتركه أميا"... ثم حركت رأسي حتى يسقط منه هذا العبث.

هكذا، ولأني انجرفت خارج الحلم، صرت مندفعا بأقصى ما في وسعي للدخول في حلم الكتابة باعتبارها فلاحة بطريقة أخرى في العالم وكائناته.

الكتابة إما أن تجعلك مُهجَّنا وضعيفا.. فاقدا للتوهج الطبيعي، محرِّفا وحبَّاكا لن يهتم أحد بما تكتب في النص الأول أو الأخير مادام النص أعجز من صاحبه، رخوا يعاني من ضيق التنفس والحياة. أو تجعل منك قديسا مؤمنا بالفن وقضاياه، وهو الأمر السوي والنادر.

في طفولتي الأولى، كان لي دفتر أكتب عليه " إنشاءات" حرة من مشاهداتي، وكان ذلك قليلا لانشغالي الدائم. أتذكر نصا نثريا كنت كتبته عن واقع البادية... حول الحصاد والحيوانات والصهد... وأنا الآن أتساءل هل هو نفسه النص الذي مازال ينكتب في نصوصي الحالية ؟ لذلك فإن ارتباطي بالكتابة مازال في التشكل والمراجعات على النص الأول ولن ينتهي أبدا...

كان لي ابن خال، توفي قبل عشرين عاما، تربينا معا منذ طفولتنا، هو الذي كان يطلع على ما أكتبه. أتذكره الآن إنه بادرني بسؤال استفهامي عميق لمَّا قرأ من دفتري: " هل كتبت كل هذا من رأسك ؟ ". نعم، شيء يراودني باستمرار بأني لن أكتب لأحد ولا لنفسي أيضا، بل للذين تركونا دائما.. اللامرئيين الذين راحوا أو سيأتون، المتنورين شديدي الإشعاع.

●●●

بعد منتصف شهر رمضان، أمطار تعيد الحياة إلى النفوس. شعرت بانفراج كبير في خاطري..فعلاقتي بالمطر روحية أكثر من علاقتي بالصهد. كلمتُ والدي بالهاتف وسألته عن المطر بالبلد فقال لي: إن الله لا ينسانا.

في الغد سافرت إلى سطات، وهناك حملتُ بويا معي في السيارة، وطُفنا تحت أمطار تغازل الأرض، بمجموع أراضينا ونحن نتحدث عما يشاع من أمر الطائرة المروحية التي طافت بسهول الترس طويلا وهي تلتقط صوراً للحقول، وكيف شاع الخبر بأنهم يريدون التهيئة لمطار خاص برجال الأعمال بالمنطقة، كما يبحثون عن مسالك جديدة لتعبيد الطريق من سطات إلى رأس العين بامزاب مرورا بأولاد شعيب.

ربي إني أنتظر، صيفا وشتاء، المطر منزلا من عندك، تمدنا به بأياديك زُلالاً يمسح زلاتنا الصغيرة.

الدُّنُوُّ من نفسي

في مرحلة أولى، بدأتُ أكتبُ الشعر لأني كنت أقرأه بكثرة ومعجب بشعراء الجاهلية، ثم اكتشفتُ إن غوايتي بسِيرِهم هي المدخل الحقيقي لإعجابي وحفظي لأشعارهم، كما إن الطفولة، كل طفولتنا هي عبارة عن قصيدة جميلة تتخللها توترات ومقاطع حالمة تحتاج إلى تأطير كل فيضها وفيض الشباب في إطار يستجمع مشاعرنا وكأن الشعر في حياتنا هو النهر الذي لابد لنا أن نسبح فيه. الشعر تكثيف قوي للخطاب يلتقط ويلمح ويختصر مختزنا حكيا مقيدا، بينما الرواية نثر يغوص في المعرفة بحثا عن تحليلات وتأملات موسعة وبناءات مفتوحة.

باستمرار، أقرأ الشعر الجاهلي والعربي عامة وغيره، كما أقرأ بشغف كبير التاريخ والنثر القديم فضلا عن الأشكال الإبداعية الحديثة:لهذا فحينما

أكتب الرواية (وليس الشعر أو القصة وهما مجالان لهما خصوصيات ومصاعب) فإن ذلك يجعلني أقرب إلى نفسي أولا، وأقدر على فهم الأشياء والدنو من الأشكال والحقول الأخرى. وازدَادَ ارتباطي بالرواية بنفس القدر الذي ازداد اهتمامي فيه بقراءات مختلفة بعين أخرى، ولعل توجهي- في مرحلة لاحقة- إلى دراسة الرواية في الجامعة وخصوصا في الدراسات العليا كان مجالا لتعميق معرفتي بالسرد.

وأنا أفكر اليوم في المسألة، أجد أن اختياراتي نابعة من الروح، بل من منطقة غامضة بداخلي هي نفسها الخازنة لأقداري..

كل كتابة لا تستقيم إلا بالمعرفة (وهي مستويات) وفي كل نص أكون منساقا إلى تحفيز الذاكرة والخيال فضلا عن الرجوع إلى قراءة مراجع كثيرة، من ثم فالرواية تحتاج إلى أكثر من كتابة. روايتي الأولى "مساء الشوق" كان عدد صفحاتها في المرحلة الأولى أزيد من ثلاثمائة صفحة، وبعد الاشتغال عليها صارت في تسعين صفحة فقط. نفس الأمر مع كل رواياتي الأخرى اللاحقة.

مرجعياتي المعرفية في تشكل دائم.. شأن الرواية التي أكتب، فهي بحث مستمر ليس عن قناعات أو بديهيات، وإنما عن أسئلة تعوزني لأطرحها على العديد من القضايا غير الثابتة في حياتنا، عن مدلول وجودنا وحياتنا، من ثم فمرجعياتي نفسها في بحث دائم عن " جهاز" من المفاهيم البسيطة والواضحة التي تيسر لي الفهم والتواصل.

لي وجه واحد، وأكثر من حياة أحياها من أجل لملمة شتات ضوء يكشف نورنا الباطني " التائه"، والذي سيقودنا إلى خلود حقيقي وولوج الحياة وإعطاء شرعية لوجودنا لا لأوهامنا أو لخيال مريض تَصدق علينا به

الآخر. يخطر لي دائما أن أسأل نفسي بود :ما هو رصيدنا الحقيقي بعد غربلة كل شيء ؟ ما موقعنا من كل ما يقع، هل الفنية تعني إقصاء التاريخي واليومي والأيديولوجي... لحساب من ؟ ماذا أنجزنا أمام تحديات ثقافية وحضارية... وأمام محاولات طمس هويتنا التاريخية وشل تفكيرنا ومصادرة كل قيم الإبداع والمقاومة؟.

أحس إني أقرب إلى أفكاري المتحررة والحرة التي تعبر عما بداخلي، ابتلينا بالاجتماعات الماراطونية وبالكلام في الممكن والمحتمل وفي الخاوي والعامر، لذلك لا وقت للهواية، ما دمنا قررنا احتراف الحياة فلنصارع إذن ضد من احترفوا اختراق مصائرنا وضد من يهددوننا في أصابعنا التي نكتب بها.

هل قلت كل شيء ؟

مر شهر رمضان، كنت وفيا فيه لعاداتي الأثيرة، يوميا أكتب لأربع ساعات متواصلة في أي وقت، صباحا أو قبل ساعة الإفطار وبعده، لذلك لا أتابع التلفزة المغربية بقناتيها إلا خلال الساعة الأولى بعد الإفطار، بعض التمثيليات والاسكيتشات التي تضحك أبنائي كثيرا كما لو أنها أُعِدَّتْ – عن طريق الخطأ– للأطفال.

أحب أن أرى عملا راقيا في المسرح على الخصوص ثم السينما، لكن الواقع الفني بالمغرب لا يحقق هذه المتمنيات، فقبل حوالي ثمانية أشهر أغلقت سينما الكواكب بدرب السلطان/ الفداء أبوابها، بعدما كنتُ آخذ معي علاء إليها.. أشتري له ساندويتشا وزجاجة كوكاكولا ثم نجلس لنتفرج في الشاشة الكبرى.

كانت سينما الكواكب أول فضاء ثقافي أقف على منصته أمام جمهور

عريض ذات يوم من سبتمبر١٩٨٣ في إطار نشاط ثقافي.

من حين لآخر كنت أبحث عن مسرحية بالدار البيضاء ندخلها معا أو بشكل عائلي فلا أجد، فأشعر بالأسى. لي قناعة منذ صغري إني أحب الفن ولا أحب أن أكون فنانا. أن أكون متفرجا على مسرح خشبي خلفه كواليس. أن أكون كاتبا يُحيي المعاني بالكلمات ويقودها أنى شاء.

●●●

الكلمات ضرورية ليس للتواصل فقط، وإنما أيضا للتذكر والتأمل في كل ما حولنا، ولعل مساحة الطفولة كمشهد (قد يخضع للتشذيب والتوضيب عند البعض) هي المساحة التي يبقى معها التواصل حميميا ومستمرا، وعليه فإني لست بعيدا عن طفولتي التي أعتبرها حافزا لشعلة حياتي هذه. لماذا ؟ لأن الطفولة هي المشاهد القريبة من التخيل، بل جذوره الأكثر ألفة والفصول المحتملة التي لا ينساها الإنسان في زحمة انشغالاته، وسط ضغط اللاشيء والأوهام والتشييدات التي تزعم إخفاء اليأس خلفها.

طفولة المبدع ليست بشيء معزول عما يحيط به، ولا أعتقد أن طفولتي هي شئ غير الدهشة العنيفة التي عشتها بعشق باذخ وسط حقول الشاوية وحيواناتها وناسها وزمنها المتقلب/ المتعاقب... مطامير كنا نملأها عاما بالشعير وموسما بما نختزنه من حكايات، وفي كل الأحوال كنت أنزل إليها للبحث عن خرافاتي الضائعة، كمن أنزل إلى الجحيم مرارا، فاكتويت بصهدها الساكن ونظرات الحشرات الشامتة وهي تخفي بتستر شديد قهقهاتها التي ستغيظني.

لم أكن أحلم في طفولتي تلك، إلا بالأمطار والعواصف غير المنتظرة، والمطامير وآلة الحصاد الصفراء التي ستشتعل فيها النيران فتحصد نارها

كل الزرع المتشوق إلى التهام مبكر، والكوانين الدائخة بروث البهائم... هكذا أحلم بالعصافير التي خدعت فخاخي وكل شباكي المنسوجة بخلاصات حيلي وتركت جرابي فارغة إلا من خيبة - تصيدتني- تتلوى جنب غوايات لا منتهية.

أنا أعي جيدا أن الكتابة وحدها لا تسوغ توضيح تضاريس الحياة، ولكنني أجزم بأن العيش فيها بالقيم الخالدة كفيل بإضاءة كل ما أفكر فيه لإبراز علاقتي مع الماضي والراهن، فقد تعلمت الكتابة من خلال ذلك الشعور المزدوج الذي شعرت به خلف الفخاخ.. والانطلاقة السائبة في الحقول عبر فصول بجَلالها... وأيضا سوق السبت الذي دخلته خلف والدي طفلا، فكنت أبقى مندهشا أراقب تلك الحياة التي تعتمد على خُدعات وحِيل واستعارة كبرى تولِّد سلطة رهيبة للغة.. قد يذوب المال أمامها وتجعله هامشيا.

●●●

بويا محمد ولد عبد السلام، في أواسط رمضان حملته بالسيارة وقد فاجأتنا الأمطار وكنت أتمم بعض الصفقات التجارية لصالح "العائلة"، وبعد ثلاث ساعات من المفاوضات الطويلة والقاسية على مرحلتين، ومع فريقين، كان والدي صامتا متفرجا ولما عدنا إلى البيت.سألني بلهجة من الاستغراب :

- في أي سوق تعلمتَ هذا..عَرِّفنا به نتعلم منه؟

ثم يتحدث إلى والدتي، أمامي، قائلا لها:

- ولدك أميمتي كيبيع الجنان فوق ظهر الجمل !.

مبالغة من بويا يشجع من خلالها تجربتي في المفاوضات مع البدو؛ وأنا

أؤكد دوما بأني تأثرت بهؤلاء وبالفلاحين.. لأن دخولي إلى سوق السبت كان يبدأ من حوالي الساعة الرابعة صباحا أو قبل ذلك بقليل، وأنا في التاسعة أو العاشرة من عمري... كان بويا يعتقدني رجلا أستطيع قبض العربون والمفاوضة بتلك السجالية، وأتعمد - كما كنتُ أرى في نماذجي المتعالية - أن أترك زبدا رقيقا يتسرب من جانبيْ فمي وأحفظ مئات الكلمات المسكوكة الخاصة بعوالم السوق... من هنا تعلمت، وأيضا من وجودي في الدار البيضاء بعد حصولي على البكالوريا وسط الجامعة والصحافة والعمل النقابي.

●●●

إنني أستلهم كيفية رسم الحكاية التي تعكس حرارة المتخيل ولهبه المستفز. والكتابة لا تحسم في شئ بالضرورة، ولكنها تظل مرفودة بالمد والجزر الذي يطبع حياتنا وحياة جيلنا... أشياء نعيها وأخرى لا نعيها...

لكل شيء مرجعية ومخيلتي هي غوايتي وجِرابي، وكثيرا ما أتساءل هل نحيا واقعنا أم نعيش متخيلنا ؟ أنا لستُ بعيدا عن نبضي كما لستُ بعيدا عن نبض الآخر.. هذا كل ما في الرواية : الحياة التي تصف الموت بدقة، والموت الذي يسرد الحياة بنفس الشغف المفقود. إنها - الحياة أم الرواية؟- منداف يتصيد الشرس والمنفلت أبدا.

الرواية اليوم تشكل بوتقة وليست ترفا أو هواية للزمن الثالث - إذا سلمتُ بالتقسيم الليبرالي للوقت- وسط تتالي النكسات والإحباطات، نحن في حاجة إلى تدوين حرارتنا المرتفعة (وقد تكون برودتنا أيضا) وربما نحن جميعا نكتب كتاب الليالي الثاني بصيغته الأخرى - كما في ألف ليلة وليلة- شطار ولصوص وجن وعفاريت (هل هناك فرق) يطيرون في السماء ويأتون

الخوارق وحفلات فوق الخيال تصرف فيها ميزانية الحبشة والشاوية، لكن الجن في الليالي الأولى كان طيبا وخدوما، أما اليوم فإنه مارد وقاتل وله أبشع الصور وأسوأ القيم. والكتابة الروائية هي وعي جسور لمواجهة هذه المسوخ والأوعاء الساقطة.

باعتباري كاتبا روائيا، أبحث عن وضوح فلسفتي وبساطتها لخلق إبداع فيه من المتعة والمعرفة، بالقدر الذي يجعل النظر إلى الأشياء من حولنا، متحررا بشكل آخر. ألتمس طريقي بمفردات تقارب ما أفكر فيه، ونفكر فيه. قواسم مشتركة للتعبير عن الواقع الخفي نحو الرواية، مستودع الأحلام المترسبة في النفس... والضيم العابر بعد لحظة ضجر صامت.

لماذا فقدنا انتباهنا؟

نحن المتكلمون منذ الأزل دون أن يتنبه إلينا أحد. وكل واحد منا حزين من أجل أنفسنا... وفي الحزن والغضب نتحسس الحكمة، بعيدا عن ردّات الفعل. كل واحد منا، بيد مرتعشة أبردَها الألم والخذلان، يبحث بداخله عن الإرث الضائع والمبدد، وعن رداء دافئ نرمي بداخله أفكارنا ومشاعرنا.

المرحلة شلّت كل شيء وأحرقت المصائر وخلقت أقدارا موازية لا شأن لها بأقدارنا، كأننا فقدنا شيئا... جوهر الروح ولا نملك - بمجاز عنيف - إلا نسخا كاربونية. ونسأل من سرق منا الحياة والقيم الجميلة ؟ متى نسترد حياتنا لأنا صرنا بدون قضية وأصبحنا قصة طويلة بدون أحلام..مشدودين، كالمرحلة المعلقة بهُدب دخاني، إلى جَمَلَيْن: جمل عطشان وجمل جوعان يجرّان ما في وسعهما في اتجاهين متعاكسين منذ قرون، بل منذ الأبد..منذ البحث المريع عن تبريرات مطلقة لوجودنا النسبي والزائد... حتى تعودنا أن نحفر كل صباح، حُفَرا صغيرة ندفن فيها أحلامنا دون

نحيب أو عزاء مألوف.

نفس أسئلة أجدادي أتبناها كما أتبنى أسئلة الحفدة القادمين، بالصيغة التي تتيح لي الفهم والتواصل والتوجه نحو انتصار القيم والمثل التي هي قضيتنا جميعا.

ليس هناك طالب ومطلوب، أولا وثانيا وعاشرا... هل نَجِدُ، من جديد، موقعا حقيقيا داخل المرحلة؟ نجد قدرة الاستيعاب والتحويل حتى نزن الواقع بصروفه، لا بالاستيهامات، وإن كنا في لحظة نتحسس فيها عيوننا التي ضاقت وقلوبنا إن كان نبضها الرخي يستطيع مسايرة الانهيارات الراهنة والمؤجلة.

هل أنا كاتب حقيقي أم إنني أنسخ إبداعات من أعتبرهم - في عُرف خاطئ - أناساً عاديين، والواقع يحرق ويكذب كل أو بعض ما تعارفنا عليه في لحظات حماس نادر..الآن - والكلام يخصني - نحن في حاجة إلى نسيان كل شيء كي نبدأ، وجراحاتنا هي التي ستذكرنا ونحن نتمم من خيالنا ما يُعدِّل الصورة، والرواية هي ذلك الخيال المعادل الذي لن يكون إلا بوجود واقع.

تغيير الأحلام أم تغيير الواقع ؟ هذا وهْمٌ أول - من بين مئات الأوهام التي لا بديل لها حتى الآن - وبعد انتهائي من روايتي الخامسة، هل أساهم فعلا في التأسيس لأحلام جديدة أم أنني أكرس عكسها. كيف لم أستطع، حتى الآن، التمييز بين الحلم والوهم، وماذا أريد بالضبط ؟

مريم تُجرب حظها

في اليوم السابع والعشرين من رمضان، كان علاء سعيدا بصيامه الأول..فقد أقفل عشر سنوات في نهاية أغسطس، وخاض تجربة جعلته

يشعر بأهمية فعل جميل. وإثر ذلك خرجنا في اليوم التالي جميعا إلى سيرك شعبي بالقريعة - درب السلطان، فركبوا في السيارات التي تشتغل بالطاقة الكهربائية وفي الطائرة وغيرها من الألعاب المسلية.

علاء يكتب قصصا من وحي البيبليت والطرومبية ويقول بأنه يريد بيعها لشراء دراجة أو معزة يستفيد من حليبها. فيما تكتفي مريم باستثمار الوقت الذي يوجد به علاء وزينب بالمدرسة، لتمارس كل هواياتهما تقليدا، فتكتب وتمثل أنها تقرأ وتفكر، ثم تأتي مرحلة فتح القمطر السحري لعلاء فتستخرج منه اللعب دون أن تستطيع استخدامها، فتكرر المحاولة وحينما تنهزم تعيد كل شيء إلى مكانه وتلجأ إلى لُعبها التي تجيد التفاهم معها بدون تعقيدات. والغريب أنها لا تيأس من تجريب فتح القمطر يوميا والبحث عن المعادلة الصعبة التي تجعل يدها خفيفة للعب بالبيبليت ومشتقاتها التي اخترعها علاء. كما تبحث عن صيغة لتكتب وترسم شيئا في الدفاتر يتحول، بقدرة العلي القدير، إلى نص يعبر عما تفكر وتحلم به. أو بالأحرى ما نسيتُ أن أفكر فيه... أنا والدها العزيز.

٥- (١٦ بحث فى وجدان أرض الحكايات)
سطات: مدينة الملائكة فقط

مقدمة خيالية

فواكه الخريف يزداد مذاقها إمتاعا، خصوصا في هذه المرحلة الماطرة من فصل الشتاء، والذي يبشر بوفرة مطرية استبشرت لها القلوب؛ فيما يستمر الرمان في تربع عروش كل الفاكهة رفقة آخر مرحلة من إنتاج البطيخ (الذي نسميه السويهلة) برائحته التي تغمر النفس قبل المكان. وهما معا غير عابئين بالأزمة المالية المصرفية التي أطبقت على العالم، أو بافتتاح الدورة الخريفية للبرلمان المغربي أو بخطبة هذا الوزير أو تلك الوزيرة أو استبشار نخبة من الفنانين والمثقفين الذين أصبحوا ضباطا بوسام ملكي.

قال لي أحد أصدقائي ونحن نتحدث في كل هذه الأزمات بأن الحل يكمن في الديمقراطية، ولا شيء غيرها.

لم يكن في خلدي البحث عن جواب ولم أعرف لماذا قلت له بأن الحل يكمن في تجاوز الأخطاء الثلاثة القاتلة في حياتنا...

قاطعني كمن يحفظ دروسه جيدا:

- هل تقصد الأخطاء القاتلة التي تحدث عنها المهدي بنبركة؟

انتهى من كلامه ولم أشأ الرد عليه بسرعة، بل تركته قليلا لعل كلامه يتقطر بشيء آخر لا أعرفه. ثم قلت له:

- لا يا عزيزي ما تحدث عنه بنبركة - واحسب معي بعقلك - قد أصبح ألف خطأ وألف خطيئة وألف شر وألف بلية. أما أنا فأتحدث عن ثلاثة أخطاء هي كالتالي : ضرورة أكل الفواكه بانتظام واستمتاع، وأخذ وجهة نظر أهالي المزامزة في الموضوع وثالثا وهو الأهم تفعيل القرارات، فمن غير

المعقول أن يبقى فنان/ مثقف أيامه ولياليه وهو قابع بالمقاهي بدون شغل وهو ضابط والبلاد في حاجة إليه ؟!

قال لي:

– أنت تعقد لي الحياة وتضرب المعاني.

قلت له:

– الحياة تستحق أن نعيشها كما نراها وكما لا نراها ولا تفتش إلا في ما تحب. هل فكرتَ يوما في تحديد منْ تكون وماذا تريد وما هي الأشياء التي تحبها وتحب فعلها مقابل الأشياء التي تكرهها وتنهى نفسك عن القيام بها ؟

– لا أعرف ولم أفكر في الأمر، فأنا أحيا يوما بيوم، وأعيش حياة بالتقسيط.

●●●

افتتحنا شهر أكتوبر بالعيد الصغير، عيد الفطر. ودَّعنا معه شهر رمضان بعد ألفة حميمة. في اليوم الثاني سافرت إلى مدينة سطات رفقة زوجتي وأبنائي لثلاثة أيام إلى جانب أمي وأبي وباقي أفراد العائلة.

كنتُ في اليوم الثالث حزينا وصامتا، في ذلك المساء الخريفي البارد، حيث شموس سطات رخية تتراجع بغنج فاضح إلى مراقدها، فشعرتُ برغبة جامحة في امتطاء الرياح. أحكمتُ إغلاق الجاكيت عليَّ، ثم أخرجت الفرس من الإسطبل.. بلونه الأسود الذي يغطيه كاملا. ألجمتُه وارتميتُ عليه بدون سرج..لأنطلق من حقول أولاد شعيب مرورا بمزارع أولاد سليمان نحو الغابة التي وصلتها لحظة كانت شمس الغروب، على شمالي، تواصل هبوطها الصعب، مودعة النور بشعاعاته الغريقة وقد صارت أرقَّ من نسيم

الفجر القادم... قبل أن أعود متمهلا من حيث أتيتُ، وكان الظلام قد احتل المكان.

بداية أسبوع مفتوحة

أمام باب بيتنا بالدار البيضاء، في الدرب، وهو حي أندلسي جميل، والذي يوجد في شكل دائرة مغلقة، لا يدخله سوى سكانه..يخرج الأطفال للعب مع أقرانهم، وتجلس الفقيرة إلى الله، الولية مريم أمام عتبة الباب تتفرج، وعلاء يلعب رفقة المهدي وأيوب وسي محمد. وفي كل مرة تأتي زينب لتلعب معهم فيطردها ثم يدخل إلى أمه يبكي، يطلب منها أن تمنع أخته من اللعب مع أصدقائه الذكور. بعد ذلك أصبحت تلعب مع صديقاتها هاجر وسُكينة ومريم.

قبل ثلاث سنوات عاد علاء ذات يوم إلى البيت وهو يبكي بعدما تعارك مع زميل له بالحي، فاستمعت إليه ثم نبهته، ففهم أن اللعب مع أقرانه فيه الخصام واللعب..لذلك لا داعي للتعود على أن نحل له مشاكله مع رفاقه..ولن نتدخل إلا إذا كان المتعارك معه أكبر منه.

الأطفال يلعبون ويتخاصمون ثم يعودون للعب وتسيان كل شيء في نفس اللحظة..ولزينب طريقة أغرب في حل مشاكلها مع قريناتها..ففي آخر مرة جاءني جار لي يشتكي لي من ابنتي التي عضت ابنته وتركت علامة زرقاء في أعلى ذراعها الأيمن وأراني ذلك. ولما دخلتُ وسألتُ ابنتي نزلتْ دموعها وهي تجهش وأفهمتني بأن هاجر سبتها البارحة ودفعتها أثناء اللعب، واليوم- بعدما نسيت غريمتها ما حدث - تحيَّنت لها الفرصة لتنتقم منها بتلك العضة السامة.

نفس الشيء سمعته عن علاء، فمرة وهو يلعب الكرة بالحي مع أصدقائه

اتفق اثنان ممن يلعبون ضده فضربوه ثم تفرق جمعهم، وفي نفس الأسبوع أقنع علاء صديقا له بمعاونته على استدراج "عدُوَّيه المفترضين" واحدا واحدا. وفعلا كان له أن أشبعهما ضربا وسبا ولم يعودا إلى الاقتراب منه.

لزينب قدرة عجيبة على استدرار الدموع من عينيها كلما شعرت بظلم أو أخذ أحد منها شيئا. ولها أيضا نفس المقدرة على الضحك وهي أول من ينام بالبيت وآخر من يستفيق.

تحبني كثيرا وتحب الخروج معي في نهاية الأسبوع سواء في السيارة أو مترجلين. لا تهمها من الرسوم المتحركة سوى" توم وجيري" مقابل الجري والركوب على دراجة أخيها. وكلما أحست بالتعب تبحث عن الطباشير لتكتب وترسم على السبورة. أو ترسم بأدواتها على ورقات بيضاء.

يوم الخميس، ونحن على مائدة الغداء نظر إليها علاء بدون كلام ثم رأيتُ دموعها تنزل، ولما استفسرته قال لي بأنها لا تريده أن يقول لي شيئا..فقد أخذتْ معها صورتي التي كانت تخبئها بالمكتب إلى المدرسة، وخلال حصة الاستراحة أخرجتها من جيبها ثم انزوت تنظر إليها..وكان أن رآها أخوها وسعى للوشاية بها كي يضحك منها ومن تصرفاتها.

تأملات تأويلية فى الاسم واللون

سطات مدينتي التي أنتسبُ إلى ترابها وروحها وتاريخها ، كل شيء فيها يحتمل التناسل والخصوبة بدءا من إنتاج القمح والشعير إلى توليد الحكايات وإلباسها للتاريخ المحلي الحافل بكل أنواع البطولات والكرامات.

يتمدد الخيال في البحث عن الجذر الضائع لاسم سطات بين رقم واسم علم، واحتمال ثالث غير مستكنه بعد. بالنسبة للرقم ١٦(سادس عشر) والذي يُنطَق في الدارجة المغربية(سطَّاشْ)، يُقال إنه تحول إلى سطات

تخفيفا لنسيان الموت الذي طال الستة عشر عالما في ظروف ما خلال القرن السادس عشر، (فنحن نسمي التذكرات الجارحة كي ننساها؟).

وقد يكون اسم سطات أيضا من اسم العلم زطّاط، وهو لقب كان يُطلق على الشخص النبيل والشجاع، المشتغل بحماية الركب والقوافل من مكان لآخر بمقابل. وظيفة ذات دلالة في فترة تاريخية استعاد فيها المكان قدرته على أن يكون جسرا للحفاظ على الحياة.

روايتان.. الأولى للموت تأكيدا، والثانية نفيا بالإضافة إلى احتمالات أخرى في أذهان قبائل المزامزة الذين يزرعون الحكايات ويحصدونها، وهي ليست بعيدة عن عمق و " قدسية" كرامات بويا حجاج شيخ الوقار وحارس العلوة، وسيدي محمد البهلول العزري الزهواني المؤسس لفضاء الحياة وسط موت الأشياء.

كل شيء في سطات احتمال لفرضيات (وقبائل المزامزة هم رحِم المدينة ومتنفسها)، كل حياة فيها ظل لماض مأهول حتى الإشباع بالحقيقة المتخفية في كرامات وأوهام وحروب ومنافي وصهد من جهة لا معلومة. كان لابد أن يقف بويا الغليمي، كبير أولياء المنطقة منذ القرن الثامن عشر، لمفاجأة كل ذلك الضيم الذي على يمينه يتمدد وقد عرَّش على سُحنات المزمزيين، والمتقطر سائلا أحمر من الرؤوس المعلقة على سور القصبة، حتى إن حُمرة السور اليوم، لا يمكن لأحد أن يشك في كونها فعلا هي لون الدماء التي تشربها التراب واصطبغ بها. ويعتقد كل أهالينا الذين لهم تاريخ بالمنطقة أن ذلك الحائط الإسماعيلي بلونه القاني هو دم سلالاتهم من شهداء تلك المرحلة.

شموس سطات

سطات مدينة ليس لها مثيل في العالم، صورة بالأبيض والأسود ولو

وجدت من يعتني بها لأصبحت مشهدا من الجنة التي وعدنا الله بها.

مكان ذو هواء صحي، لا رطوبة فيه، محاط بأجود الأراضي الفلاحية، مناخها ممطر شتاء وصاهد صيفا، يتوسطها نهر ويسكنها أناس يجسدون التعددية الكاملة لكافة القبائل المغربية من الشمال إلى الجنوب.

سطات جزء أساسي من كل القبائل المحيطة بها، ولذلك فقد ساهمت في إعمار الدار البيضاء وأعطتها الطابع الكوزموبوليتاني. وبقدر ما أنا فخور بالانتماء إلى مدينتي، أنا حزين لما آلت إليه : بناء طارئ لا يليق بحضارتنا، تدمير للوادي والبحيرة، هجوم على الغابة والعراصي المحيطة، سوء التسيير والتدبير وغياب إرادة حقيقية تفهم أن سطات هي تاريخ وحضارة وإرث جماعي يمكن عبر الاعتناء العقلاني به، أن تكون أحسن من كوينكا وطليطلة الإسبانيتين وأقرب إلى أثينا اليونانية وأنتيب الفرنسية.

سطات.. أيتها النفس، ليست مدينة، بل شلاّل من الخيالات ورواية أزلية أبطالها من كل الطبقات والفئات... من كبار الثوار والعلماء والفقهاء والأولياء... أهلها أكثرهم ملائكة وإن تحول بعضهم إلى شياطين، فلأنهم أرادوا ذلك ورغبوا فيه. وأنا أحب هذه المدينة مثلما أحب أهلها وتاريخها الذي يأسرني. رواية مفتوحة تتجدد فصولها كل يوم، أبطالها من البسطاء الذين يتحولون إلى ملاحم وأساطير وأغان.. أسماء أختار منها بعض من أتذكره في كل السنوات السابقة وقد غابت وبقيتْ نسيا موشوما في الرياح التي تهب على المدينة كل يوم.

الرَّاىْ: آخر ورقة فى اللعبة

طاعن في الخيبات بعد موت أخته " حمرية"، وبعد الخراب الذي عمَّ فضاءه الحميمي "نزالة الحْدِ" وقد كان شاهدا على بطولاته الخارقة.

شيخوخة تحمل ماضي البسالة والقوة وحزنا آسرا على النزالة ثم انتقاله إلى جحور بعيدة، مرمية على هامش سطات بمكان محاط بمقبرتين منسيتين، سموه دلاس لتزامن العبور إليه مع عرض مسلسل أمريكي بنفس الاسم. لهذا يبدو كل شيء في ظاهره تجديدا وفي باطنه خواء وظلمة مثل مشاهد سينمائية قاسية على طريقة أمريكية ساخرة أيضا.

كان شْعيْبا الرَّاي أحد أبطال مدينة سطات في العنف وواحدا من حماة النزالة، ولما بلغ الستين من عمره ودخل في مرحلة الشيخوخة صار هادئا لا يتكلم، يلبس جلبابا صوفيا قديما على جسده النحيل وقامته المتوسطة التي تحمل قسمات وجه بطولي علاه الخراب والتيه والصمت. يخرج كل يوم في سويعات ما بين الضحى والغروب من دالاس إلى خراب " نزالة الحد"، يسير في نفس الطرقات التي خطا فيها قبل نصف قرن خلف ثانوية ابن عباد والسوق القديم والطريق نحو امزاب.

منذ منتصف السبعينات لم يعد لأحد شئ ما يتحدث عنه، لهذا فكل حديث حميمي بهذه المدينة ينطلق من الماضي ومن النسيان... الكورس والفانتازيا، السوق القديم والشناقة وبائع القطران المنزوي في الأقصى، أسفله قليلا حيث كان يقف عمر العيار يروي الأزلية كل مساء. المحطة القديمة والخبازات والمارشي وأصحاب الشواية، وفي الجهة الأخرى الأقواس حيث باعة الحريرة والتقلية والشاي وذلك الحائط العجائبي الذي رُسِم عليه البراق بالألوان. السويقة بعزها الكلاسيكي، وحوانيت الأثواب. كافي كوميرس ومقهى بودرا ع..الملاح والمقاهي الصغرى التي تأوي المنفيين وهي لا تختلف أبدا عن الرصيف الذي كان يأوي الحصادين بالمناجل وتْباندا...

الحديقة التي كانت بحيواناتها، البوسطة ومدرسة التوحيد، البلدية التي كانت أول بلدية تبنى في المغرب كما قيل لنا بفخر. ملعب التنس، تيران الحلفة، ووادي بنموسى الذي جفت عيونه، والعراصي التي اشترتها البلدية في إطار نزع الملكية بأربعة دراهم للمتر.

سينما كاميرا التي عرضت أفلام جيمس دين، لي فان كليف، ايلي والاش، جيمس كوبيرن وأفلام كوبولا وسيرجي ليوني بموسيقى اينيوموريكوني... وحينما تهدمت هذه السينما، خرج هؤلاء الأبطال على أقدامهم متجهين نحو دالاس لكراء غرفة والتفكير في سيناريو جديد يجمعهم ! خرج أيضا عبد الله الضراوي وكل باعة المارشينوار أمام باب السينما يبحثون عن أبطال وبطولات لالتقاط أرزاقهم دون جدوى.

تهدم كل شيء وبقيت " طروادة" الفاقدة لمفتاحها الحقيقي منسية تنتظر المعجزة !؟

الوجه والقفا والقناع

في زنقة القائد علي المسماة الذهايبية، شرَّع الراهن كل ما لديه، فقد صارت الخبَّازات والخبازون يبيعون خبزهم اليومي مثلما صارت نساء وفتيات يبعن البغرير والمسمَّن إلى جانب بضاعة الشمال المتراكمة أمام العطارين وباعة الذهب. سلع من كل نوع، مأكولات وملابس واليكترونيات مغربة مكتوبة بالإسبانية أو الفرنسية في هذه السوق الحرة إلى جانب السلع الكلاسيكية عند العطارين، في سوق حرة تؤشر على تحولات جديدة في التجارة، وتجار جدد يؤمنون بقانون آخر غير أعراف تجار السويقة القديمة، لهم خطاب وأحلام، لكن الواقع أكبر منهم ومن زيف الصورة الملونة المكتوبة بخط آخر على تراب " بويا الغليمي".

في آخر الزنقة، وقف لسنوات " ضريسة" بشكارته السوداء، يحمل كلابه الحديدي، باحثا عن علة الفم للإنقضاض عليها، وداخل محفظته تلك، أضراس شتى تؤرخ لمسيرته الطويلة في تلك الحرفة، وأوراق عدلية وأخرى عُرفية يقول إنها دليل ملكيته لحائط كبير بحوانيته وللحائط الذي كانت السينما المتنقلة في الهواء الطلق تعرض عليه أفلامها. هل يصدق أحد السيد محمد الوافي الملقب حينا بضريسة وحينا آخر بالدكتور دينوا وألقاب كثيرة ؟ لا أحد طبعا.

في شارع عبد الرحمن سكيرج، الذي كان من قبل يسمى شارع النصر، جيوب صغيرة متفرعة، وهو عامر بالحوانيت والمقاهي الشعبية التي تبيع الحريرة وأطباق الكرعين بالحمص واللوبياء والتقلية.. كما أن هناك محلات مفتوحة باستمرار لبيع السمك المقلي والكفتة.. الروائح المتصاعدة، حرائق الرغبة تستجلب البدو القادمين من جهات أولاد سعيد والعراعير وموالين الواد، وأولاد سليمان.. ولِمَ لا من امزاب وأولاد احريز العظمى. شاحنات النقل للكراء وسيارات نقل بدون رخص في انتظار دائم، وحركة دائمة في الضلع غير المتساوي مع الضلعين الآخرين من المثلث. وقد شغل هذا المكان البال حتى إن بعض " المراقبين" صاروا من سكان فضائه يحرسون سهوه وفراغه... وهم عادة ما ينتمون إلى البسطاء ممن يلتقطون أرزاقهم هناك، كما أنهم تعاقبوا باستمرار على هذه المهمة بدءا من " الحاج بلحاج" الذي مات ذات صباح غامض إلى " باخا" الذي ودع هذه الحياة في صمت.. فلم يبق بعدهما غير " علي الشواف" و " جامايكا" بعد الجيل الأخير لشيكي والطوبيس وحمو زيا وحمو لعجل وتقهقر عبد الله المْسَطِّي مع أخته الروحانية.

على، العراف القديم الذى تهدمت بركته

كهل ذو عظم رقيق بجلباب لا لون له، وصوت سري واحد لم يبدله منذ قدومه قبل عشرين عاما. يطوف شارعا واحدا فقط، يلتقط منه ضحاياه من المسافرين المارين إلى مراكش جنوبا أو إلى الدار البيضاء شمالا.

يدنو منهم مثل السيد المسيح، وهم مترجلون أو متوقفون بسياراتهم. على رأسه يتدلى قُبٌّ جلبابه، فينطلق من غير تقديم نفسه: " غادي تسعدي غادي تفرحي.." ثم يطلب منهم مقابلا ماديا يسميه البركة، وإذا تمكن منها يعمل على مواصلة خطابه، "شوْفته " التي هي مشهد عصي لمخرج عالمي لا يُفَوِّتُ جزئية مثل هذه. في شوْفته المتكررة يتحدث عن فرح قادم وعن صديق أو عدو، ثم يطلب كف الزبون كلما أدرك أن فخه قد ضَمِنَ صيده، آنذاك يعاود طلب فتوح البركة مكررا ما قاله في البداية قبل أن ينتبه الزبون، ثم يمشي بعدما يَشُدُّ بيديه معا" قُبه" على رأسه في حركة لا إرادية لمخرج يبحث عن ممثل جديد في مكان آخر ولا تهمه الإضاءة أبدا، أو نبي خانته القبيلة..ولم يعد يهمه الوحي مطلقا.

مهاجر قادم من قبائل الجنوب في سنوات قحط خلت، وَجَدَ سطات وقد فَقَدَت من يرى سعدها، فامتهن تحمل هذه المسئولية الرمزية والتاريخية بتعويض رمزي يكفيه لسد رمقه وأداء أجرة النوم على الحصير في فضاء جماعي.

جامايكا يخيط قفطان العاصفة

يسمونه " جامايكا" لسواد بشرته، وشعره الراستا بشكل طبيعي، يستعطف الناس من أجل درهم أبيض. يذهب للمقهى لشرب كأسه وتدخين شقف قبل البدء في التقاط أعقاب السجائر.

قال عنه أحد رواد المقهى بأنه كان طفلا خجولا يختبئ خلف لونه، يعمل عند خياط بأصابعه في ضرب القضبان/ البرشمان، ثم تحول عند معلم آخر خاص بالنساء له سدة في حانوته يقيس فيها مقاسات القفاطين على النساء، وجامايكا في الأسفل يستمع فقط إلى هسيس المقاسات المعلقة، فنضجت رغباته مبكرا وانقاد تفكيره نحو السدة والقفاطين حتى صار معلما وارتبط بالنساء والعاصفة والمخدرات، فطار عقله، ونزل إلى المثلث يتفقد ما تبقى من قفاطينه الملتبسة ؟

●●●

صديقي يوسف، كاتب عمومي ومثقف، ويحمل شهادة لم يكتب لها أن تكتمل لأنه يعيش يوميا وبشكل عميق ومتماه هموم الوافدين عليه، ففي كل مساء، لحظة انتهائه من عمله، يكون مثقلا بكل تلك الشكاوى والمشاكل، فتطفو على سحنته ملامح القهر والضيم.

في كل مراسلاته وتقييداته التي يدونها للمواطنين، يكفيه معرفة المعلومات التقنية كي تشتغل الآلة، لأن يده دائما على " القرص"، وذاكرته خزان كبير وأثري لكل الصيغ المطلبية المؤثرة ؛ من ثمة فإن كل مشتك يجلس أمام يوسف سيشده أمران لا ثالث لهما إلى هذا الكاتب الحقيقي، أولا تماهيه العجيب مع الموضوع، وثانيا عباراته المسكوكة والنافذة إذ يُتوِّجها بجُملة بلاغية ذات إيحاءات متجذرة، وهي: " لهذه الأسباب ومن أجلها"..ثم يسرد بعدها مجموعة من الأسباب الكفيلة بإقناع المتلقي.

امرأة تشتكي من أبيها الذي أسماها زهرة، منذ أربعين عاما، باسم أختها، وله ابنة أخرى ثالثة من زوجة ثانية أسماها بنفس الاسم، فصارت له ثلاث زهرات. رجل يشتكي من زوجته التي وجد عندها رجلا آخر قالت له

إنه أبوها الحقيقي، وأدخلته في متاهات غريبة. شيخ يريد أن يحرر مقالة حول أرض " يتصارع" عليها ضد آخرين منذ أن كان شابا يافعا... لهذه الأسباب ومن أجلها يفكر يوسف الكاتب في أن أهمية الحياة تكمن في الصراع والوعي بهذا الصراع حتى لا يبقى هناك مكان لليأس أو العبث.

السوق القديم

من يذكر عمز العيار وأكلة الأفاعي وعيساوة والسباعيين، والجِمال المُكَارية والصاروخ وشكارة ضريسة.

السوق القديم، معبد هائل للحكايات، وقد تحول اليوم إلى إدارات ومنازل وصمت غريب لن ينسى أبدا السبوت والآحاد التي كان الناس يجددون خلالها دماءهم... وهناك بالجزء المنزوي من السوق شيوخ يخدمون الوظايف (برادع، وشواريات وكُفديات...) ويتحدثون بالحكمة.

بائع السكلة بصوته الشاحب مثل التَدقَّة، لعوينة ولد البورطي، زاكورا المسكون بالكتابة على الحائط، ولد البلدي صاحب الخيال المنفجر في اختراع بطولات وهمية ومازال ينتظر حبيبته التي خلبت وجدانه وما تبقى من عقله، مسيرة أثرية تساهم في التنفيس عن المواطنين.

هناك الربيب أيضا، رجل قصير القامة بمزماره المصنوع من قرن الثور.. وطاقيته الحمراء البالية، تناسب رداء الفرجة في حلقته ومسرحه الذي كانت تجتمع حوله أكثر مما يجتمع الآن بمسرح محمد الخامس !؟. لم يكن الربيب يحتاج إلى الكلام حتى يضحك الناس، لأنهم يعرفون أن هذا الرجل القصير، بعينيه الضيقتين، قادر على تحريك الكوميديا بالقلوب من خلال النظر إليه ثم بالاستماع إلى مسرحياته الجميلة.

يختفي الربيب لسنوات، قيل إنه دخل فيها السجن، وحينما يعود سيجد

السوق لم تعد سوقا والضحك صار نادرا.. فيعاود الوقوف بأمكنته القديمة ليستعيد مجد الفرجة، لكنه لا يقتنع بنفسه أو بجمهوره لأن السنوات التي غاب فيها ولدت ربائب كثيرة قلَّدته وجددت في أسلوبها.

ستتذكر سطات الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي بحسرة بالغة بطلا اسمه عمر العيار صاحب القضيب الحديدي الأبيض، وسلطة الحكي القاهرة التي كانت تشد إليه في صمت ورهبة، دائرة تجلس كما لو أنها في محراب حول راهب طاعن في الحكمة.

من فم عمر العيار، الذي لا يجف أبدا، يخرج الأبطال يتصارعون ويتقاتلون في حروب ومعارك، ونساء في عمر الزهور يولدن مثل الفاكهة، يحكي عنهن وعن زمنهن. كان على عمر العيار أن يقول كل شيء قبل أن يختفي، ويترك جمهوره تائها بين العيساوي والشيوخ آكلة الأفاعي... والمجذوب الذي يغرز السلك في خده دون أن تسيل الدماء... وشارب النار ونافخها.. والذي يشرب الماء الساخن ويمضغ الزجاج... والذي يحكي عن الموت وجماله.. ومن يشرح للناس أسباب الهزائم... والذي يبيع الحجابات.. والطرب... والكلام... والأوهام ومختلف الأعشاب البرية... إنهم أسياد الحقيقة وصُنَّاع الحياة الجميلة.

ولو كنت في سن تسمح لي آنذاك، بالكلام والنطق لجلست في حلقته الموسعة وسألته وهو المشبع بأرق الأبطال، عن تفاصيل حكايات تستعصي علي في سرودي الآن.

●●●

البطوار القديم، ذبائح فائرة وكلاب الكُرنة. خياطون عراة وخرازون حفاة ونجارون يتحدثون عن مسامير المائدة، أما العميان الثلاثة الذين لم

يجدوا نيتهم في عكازهم بل في امرأة تقودهم برغبة عمياء نحو أقدارهم اليومية فإنهم يتشممون العتاقة في شوارع متعبة بالصهد والثرثرة، خطواتهم تزداد سرعة بعد الزوال حتى لا يصادفوا الظلام، فلن يبصروا شيئا وتسقط نيتهم في الظلمة، وأكيد أنهم يعرفون أن شمس سطات تقوم من المزامزة وتغرب في حضن ولية طاهرة.

السبوت والآحاد وكل المساءات المطلية بالحنين، حنين المحارب، في السوق، هناك احتفال بالنسيان والتذكر... وخطوات (فاطنة الجلايدية) تقف في رحبة الجلود، تُقلب وتساوم على الأرخص، ومن حين لآخر تتوقف لتسحب أنفاسها وأنفاس سيجارة الكازاسبور.

فاطنة الجلايدية :اثنان في واحد.. رجل وامرأة ثالثهما وهْمٌ مركب... ويُروى أن أخاها في الأربعينات قد " سرق حقها" فاختارت أن تتحول إلى رجل رغم خط الوشم الظاهر عموديا على ذقنها. سميت الجلايدية لأنها تتاجر في جلود الأغنام والبطاين، ولكنها لا تغامر بالمتاجرة في جلود الأبقار أو الجمال التي كانت تدخل سطات قادمة من الصحراء، يسوقها صحراويون يستقرون بفندق/ اسطبل مشهور بطريق بولعوان، فيزورهم "الحاج راعا" يسأل عن جذوره المتنقلة، من عمق الجنوب في نهاية القرن التاسع عشر إلى دمنات ومنها إلى سطات. والجمال المُكارية كما كان (الصاروخ) يسميها قاسية وعنيفة، لكنه الوحيد الذي يستطيع تطويعها وحملها على كتفيه بشجاعة نادرة.

بالقرب من السوق القديم في الجهة الشرقية، توجد منطقة (الكنانط) حيث يقف شيخ برُزَّته وجلبابه كل يوم سبت بعد الزوال، يسمى السباعي، ينتظر قدوم الجِمال للفصد عن طريق غرز مسمار طويل وحاد، يسمى

"الشفا"، في عرق الدم الخاسر لينفجر مَعينه فائرا متعاليا.

هناك سُباعي آخر، مختص في الكي، رجل أسمر، قرب السوق من الجهة الجنوبية وأمام الباب الخلفي- الداخلي لثانوية ابن عباد داخل فَنْدق/ اسطبل يتسع لبرَّاكة وفضاء واسع، يدخله في كل السبوت والآحاد فيخصص صباح السبت لمداواة البهائم، وبعد الزوال يشرع في كَيِّ الرجال، أما زوال يوم الأحد فيخصصه للنساء والأطفال الرضع. يجلس السباعي بجلبابه الساركة قرب عتبة البرَّاكة، ومن حين لآخر تمتد يد الشريف السباعي، إلى القضيب الحديدي الساخن من كانونه اللاهب، في حركة مدربة لكيِّ كل الأمراض.

مات السباعيان، ومات بالتأكيد عمر العيار والصاروخ، وتاه "المومينين"، الرجل الأعمى الطيب الذي كان يوهم كل سكان المدينة بأنه يخرج للسعي في رزقه ورزق زوجته التي يسميها " الأميرة". تنتظر في نوالة بنزالة الحد تهيئ له ما طاب ولذ من الشهيوات.

صياد الخيال الضائع

قال لي صديقي يوسف الكاتب بأنه يؤرخ للأفول بمدينة سطات، منذ رحيل خربوش الذي كان يصطاد الكلاب الضالة بالمدينة، حينما كان يقود عربة البلدية الاستثنائية بحصانها المعتوه، وذات الطلاء الأخضر، حاملا "السلبة" من القنب مربوطة في عصاه الطويلة، وبيده الأخرى قطعة من اللحم (وعادة ما يكون عبارة عن رئات البهائم) يُغري بها الكلاب الضالة بالمدينة، وكلما اقترب كلب يكون خربوش جاهزا لرمي السلبة على عنقه، ثم يجره بعد ذلك ويرميه في "عربة الموت البلدي". (ونحن أطفال في وَسَطنا الأزلي كنا نحيي السيد خربوش، كلما اصطاد كلبا، بأغنية تليق بالمشهد

وهي مُحرفة عن أغنية لعبد الحليم حافظ، نقول فيها :رميتِ السلّبا وجرّيتِ الكلبَ يا خربوشا...). أضاف يوسف ما معناه أن خربوش ضروري في كل فترة.

الستينات كانت العقد الذهبي بعده جاءت السبعينات تعيش على فتات الضوء وفي الثمانينات مات " المومينين" وماتت أميرته وكل الشخصيات الأساسية في رواية اسمها سطات.

●●●

عاش بسطات، في الملاح، يهود كانت لهم علاقات حميمية مع السكان، فأسلم منهم من أسلم وسافر أغلبهم إلى فرنسا وأمريكا وكندا وفلسطين. وفي العقدين الأخيرين، أصبح أبناء اليهود السطاتيين في مراكز سياسية واقتصادية استراتيجية داخل حكوماتهم ومؤسساتهم..وما زالوا حتى الآن يزورون حيهم القديم ومزاراتهم "المقدسة".

في سطات تتعايش الأحلام حتى لا تنسى كل أبنائها، لا تنسى ولد التركية والحاج قاسم وقد ساهما، من خلال مكتبتيهما لبيع الدفاتر والأقلام والقصص، في تعليم أجيال. كما لا تنسى بويا الغليمي وسيدي بوعبيد ولالة ميمونة وسيدي عبد الكريم وسيدي المختار الزكاني وباقي الأولياء والعلماء والفقهاء..حُرّاس خيالنا.

نهاية أسبوع بدون مفاجآت

يوم السبت، استفقت في الخامسة صباحا، وفي المكتب استكملت قراءة آخر صفحات الفصل الرابع من كتاب جاك دريدا الكراماتولوجيا (في علم الكتابة)، ثم عدت إلى البحث في دراسة لي حول المحكي البوليسي. وفي الثامنة والنصف تناولنا، جميعا، فطور الصباح، لأواصل العمل بالمكتب إلى

حدود الساعة الحادية عشرة والنصف، موعد ذهابي للاستحمام بحمام عمومي قريب منا رفقة علاء كما تعودنا في نهاية كل أسبوع. ولأول مرة تفاجئني مريم بطلب الذهاب معنا، فلم ألتفت إليها ولكنها ألحت وبدأت تقبل يدي وتجرني من ملابسي لتقبل وجهي والدموع بعينيها. حاولت أنا وأمها إفهامها بأننا نذهب إلى حمام الرجال وهناك حمام آخر للنساء..فلم تفهم هذه الحدود لأنها مازالت صغيرة ولن تقفل سنواتها الثلاث إلا في شهر يناير المقبل. وأخيرا أخذتها معي لأول وآخر مرة، فاستحممنا جميعا وعادت سعيدة إلى البيت.

في الواحدة زوالا، عدنا إلى البيت وتناولنا وجبة غداء من السمك ونمت لساعة، ثم قمت لمراجعة حصص الدروس مع علاء إلى حدود الخامسة والنصف حيث تركته يتمم إنجاز أشغاله. خرجت من البيت في السادسة لمتابعة ندوة نقدية.

في الصباح الباكر جدا من يوم الأحد توجهتُ إلى سطات لحضور انطلاق موسم الحرث عندنا..وقد عمل العمال الزراعيون على تحميل أكياس البذور إلى المزارع..لكن الأمطار، دون سابق إنذار صريح ستفاجئنا بالهطول وبغزارة مما جعلنا نتوقف ونؤجل الحرث إلى موعد لاحق.

عدتُ رفقة بويا إلى المدينة، وبمقهى بوشتى أخذنا موقعنا على الكراسي الخارجية كما تعودنا، نحتسي الشاي ونتحدث.. ومن حين لآخر يأتي من يسلم علينا، أو من يقبل يد والدي احتراما له وتقديرا أو لأنه كان هو معلمه وراعيه..وكنت للحظة أتمنى لو يتم تقبيل يدي أيضا.

التحق بنا ثلاثة من الفلاحين الذين يوصيني دائما بويا بالحذر منهم ومن مكرهم، وقد جاءوا للحديث معنا بشأن وساطة بيننا وبين آخرين بخصوص

مخارجة وقسمة أراض شياع بيننا.

انتقلنا إلى داخل المقهى حتى لا يسمعنا أحد واستمرت مفاوضاتنا الأولية لأزيد من ساعتين، وهي منهجية لا تحسم في التفاصيل ولكنها تؤكد على المبدأ، ثم ضربنا بعد ذلك موعدا بعد الزوال لمواصلة الحديث بشكل عملي.

انتهينا ثم عدنا إلى مكاننا الأول بالكراسي الخارجية حيث وجدنا قاسم وابنه رفقة اثنين ينتظروننا بنفس المكان. قاسم كان صديقا لجدي عبد السلام لذلك أعزه وأساعده في ما أقدر عليه. ونحن نتحدث ونحتسي الشاي يقطع والدي الحديث - بعد مرور وقت طويل - ليفاجئني بسؤال عن هوية السيدين الجالسين وسطنا، وكنت أعتقد في البداية أنهما جاءا معهما. لكن قاسم وابنه نظرا إلينا بدهشة وقالا إنهما وجداهما جالسين ولا علاقة لهما بهما.. والغريب أن أحدهما كان صامتا يستمع ويشير برأسه والآخر يناقش معنا كما لو أنه واحد منا حقيقة.

قمنا إلى البيت، تناولنا وجبة "كسكس" من القمح الخالص، ولم ننعم بقيلولة كاملة لأننا سنعود إلى البادية لأجل استكمال المفاوضات بعين المكان وكل الترتيبات الموازية، فلم نتوصل إلى شيء ملموس وأجلنا الأمر للأسبوع الموالي ونحن في وقت متأخر من المساء..لأشُدَّ الرحال بعد ذلك إلى الدار البيضاء التي وصلتها في التاسعة ليلا.

يوم الجمعة الذي صادف نهاية الشهر، قضيتُه كله بالرباط مشاركا في ندوة بكلية الآداب تكريما للناقد والباحث عبد الحميد عقار، وهناك التقيتُ بمولاي أحمد المديني الذي كان كعادته دمثا وإنسانيا ونبيلا كما التقيت بمبارك ربيع وأصدقاء من فاس ومكناس ومراكش.

●●●

قال لي وهو قريب من روحي:

- لماذا تُلح على كل تلك الطهرانية، إنها تخفي شيئا لا تريد قوله؟

قلت له:

- بل ما لا أريد قوله هو ما يخفي أنوار الطهرانية.

ثم عدتُ أفكر بداخلي في كون هذه الطهرانية هي ما يُحصِّنُني من الرَّجات المستمرة في كثير من قيم المثقفين وهي ما يجعلني أحفظ الود لأصدقائي وأساتذتي.

في لحظات الغروب تتحول المدينة إلى نهر تغتسل فيه كل الملائكة من آثام وتأويل النهارات الطويلة..لتبدأ دورة الحقيقة، وتنطلق من مراتعها الغابرة تلك الرياح التي تتلمس طريقها، يوميا وفي نفس الموعد، تتسلل في البداية من أسفل بطن الغروب المترهل والذائب مثل دموع الفقيرات الوليات الميمونات الجالسات على رَبَوَات مُخضبة بعرق الفرسان الضائعين تعمل على تدوين حكايات الملائكة في مآقي عيونهن بكُحْلها الرباني.

٦- قوسُ الأموَى

في مسيرة الأفراد والمجتمعات لا تسير الحياة بشكل خطي وإنما عبر حلقات دائرية، غير متشابهة ولكنها تكمل بعضها البعض ؛المهم فيها أن كل حلقة تحقق أمرين يجعلانها في الآن نفسه، امتدادا خفيا للحلقات السابقة كما تبدو أيضا مستقلة ببعض خصوصياتها.

من هنا أعتبر أن حلقة أساسية بدأت في المغرب منذ استقلاله في نهاية الخمسينات من القرن العشرين (والأكيد أن هناك حلقات دائرية صغرى تتشكل وتنتهي ثم تعود لتنفتح داخل هذه الحلقة الكبرى) وهي الآن توشك أو تستعصي على الانغلاق حتى تتيح لنا بدء حلقة جديدة.

في بداية هذه الدائرة، كانت أخطاؤنا عفوية..لكننا الآن نعيش ركامات أخطاء قصدية تتهدد وجودنا الثقافي والاجتماعي والسياسي والحضاري. كل واحد منا يتمنى انغلاق هذه الدائرة التي تحولت بفعل كل ما راكمته إلى بالُون يمتص كل شيء.

يوم دخلتُ المدرسة

كل إنسان يحب ما يريد وتنمو شخصيته وفق نسيج دقيق ومنطقي من مسارات تستقطبه في كل مراحل حياته وتؤثر فيه، خصوصا في جانب الفكر والقيم.

وقد تعلمت كثيرا إلى جانب والدي محمد بن عبد السلام، مدرستي الرمزية الأولى، بمدينتي، وتشبعتُ بأحلام فرساننا ؛ وفي السوق رأيتُ كيف يتم بناء لغة لا علاقة لها بلغة اليومي الذي نعيشه في البيت وخارجه. كما كانت الحقول - وهي صفحة بيضاء - امتدادا لأوراقي الخاصة أكتب عليها

ما أشاء.

في الدار البيضاء سيصبح الوعي مرتبا أكثر داخل الجامعة والعمل الصحفي والثقافي والجمعوي. ضمن هذا وغيره من جزئيات وتفاصيل أعرفها ولا أعرفها من أفكار ومشاعر في مجال الحياة، صار لي بترتيب رباني أب روحي سيغير كثيرا من حياتي فيما يتعلق بالقيم والرؤية إلى المجتمع، إنه محمد نوبير الأموي..الذي هو مدرسة مفتوحة على الحياة، على العفة والصدق والإيثار على النفس والدفاع عن الحق والحرية بدون حساب. علمني كيف أكون محاربا في معارك أحبها.

وقد كنتُ دون العشرين من عمري حينما زرته ورأيته أول مرة في مايو ١٩٨٣ مع وفد من الصحفيين بالسجن المدني اغبيلة بالدار البيضاء، حيث كان معتقلا عقب إضراب ٢٠ يونيو ١٩٨١ . وقفت إلى جانب الزوار..ثم فجأة يخاطبني وكان قد قرأ لي مقالة نشرتها قبل تلك الزيارة بأيام.

حينما أفرجوا عنه في ١٩ نوفمبر١٩٨٣عدتُ لزيارته ببيته بالمعاريف رفقة عدد من الصحفيين والأصدقاء ومنذ ذلك التاريخ صرتُ ابنا روحيا للأموي، أحِسُّ إلى جواره بطمأنينة لا حدود لها رغم صعوبة الوضع العام الذي كنا نعمل فيه إلى جانبه بقسم الإعلام.

العمل النقابي والاجتماعي ورشة كبرى، وأعتقد أنه بعد لحظة صاخبة من الوعي وتشكله بالمغرب، وبعد نضج حقيقي للفكر الثوري وللمعرفة عموما- خلال القرن العشرين على الأقل- حصل تطابق بين الممارسة في تجسيد الأفكار واختبار الشعارات وبين الرؤية النظرية والوعي بالمجتمع، بعد تمهيدات عنيفة مع نخبة من المفكرين الثوريين بالمغرب، مَثَّلهم بشكل

صادق المهدي بنبركة، ولاحقا عدد من رفاقه الذين واصلوا تطوير الرؤية والوعي.

ولأول مرة في تاريخ المغرب الحديث، وفي تجربة فريدة - لا تزال في حاجة إلى بحوث أكاديمية حقيقية تُقَيِّمُها وتستجلي نتائجها - يحصل تطابق بين الممارسة والرؤية ضمن وعي نقابي، وذلك سنة ١٩٧٨ في إطار مركزية نقابية عمالية مغربية سُميت بالكونفدرالية الديمقراطية للشغل، والتي استطاعت انطلاقا من هذه الخلفيات والطموحات المرتبطة بكل آفاق الفكر التنويري والثوري أن تحول مسار الفكر التقليدي، تصارعه وتقاتله، وبالتالي، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية القرن كانت السي دي تي - كما يحلو للمغاربة عموما تسميتها - وراء كل التحولات الاجتماعية، إنها مدرسة ثورية مفتوحة على التجريب والإبداع في أرض الواقع، مفتوحة للتفكير في المجتمع والذات، وأفخر أني ابن هذه المدرسة وابن أفكارها وقيمها التي تصب فيما أؤمن به بخصوص الأرض والفلاحين.

●●●

أيام نوفمبر ماطرة وباردة، الأرض فيها تحضن الزرع وتغذيه بحنين أمومي دافئ.

لا تزال الأزمة الاقتصادية العالمية تنيخ بكلاكلها على الاقتصاديات الهشة غير أننا نسمع مسئولين هنا وهناك يتحدثون عن سلامة اقتصادنا ومناعته من هذا القدر المحتوم. في حين طلع أكثر من تقرير دولي ومحلي ينبئ بأننا في أسوأ حال، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.

- يعني أننا بلد منكوب ؟

- بل نحن في الدرجة القصوى من مستويات النكبة يا سيدي.

- أتقصد السكتة القلبية ؟.

- الأمر لا يحتمل كلمات رنانة أو توصيفات سريعة، وإنما يكفي فهم كيف تحول مفهوم الحياة عند المواطن من الاستمتاع بأيامه ولياليه وبمواطنته كاملة، إلى الجري وراء العيش يوما بيوم، ثم صار العبث بالحياة كما لو أنها لعبة يملكها أي واحد يرميها أو ترميه في أية لحظة دون وداع حقيقي.

لم تعد الحياة في جوهرها كما خُلِق الإنسان لها وخلقت له..فطال حياتنا غبار وسخام وزيف، حتى بعُدَت عنا وصارت تحتاج منا إلى مجهود ملحمي للتنقيب عنها واكتشافها من جديد.

- أنت يا أخي ترسم نفس اللوحة بما يوافق لحظتك النفسية ومزاجك.

- ربما.. ولكن أمطار شهر نوفمبر تذكرني بالأرض كثيرا . واستمتعت خلاله بقراءة ديوان سقط الزند لأبي العلاء بشروحات التبريزي والبطليوسي والخوارزمي.

صورتان بلون الروح

كنت ما أزال طالبا جامعيا بالدار البيضاء حينما ألحقني الأموي للاشتغال بقسم الإعلام النقابي والدراسات الاجتماعية سنة ١٩٨٤ إلى جانب الصديق محمد عطيف ونخبة من خيرة النقابيين ورجالات الفكر منهم علال بلعربي وأحمد أخميس والمرحوم محمد أديب..وغيرهم ممن جمعتني بهم سنوات طوال في العمل الصحفي بالإضافة إلى مسئولياتهم النقابية والتنظيمية.

محمد عطيف، وهو مثقف نقابي وأديب وصحفي يمتاز بخصال الصدق والعفة والأمانة، سلوك حفظ له بريق لغته وفرادة صوته ودقة كلماته؛ وقد اشتغلنا منذ ذلك الحين في جريدة السي دي تي العمالية – وهي من أقدم الجرائد المغربية – كما أصدرنا معا أربعة عشر كتابا في المجال الاجتماعي والنقابي وفي التأريخ لتجربة السي دي تي. ولم ينقطع أبدا بيننا ذلك الحماس للتأليف المشترك والتفكير كيف يمكننا أن نكون بالفعل مثقفين عضويين نرد جزءا يسيرا من الدين للمدرسة التي منحتنا أفقا نصون فيه قيمنا وحريتنا.

●●●

محمد نوبير الأموي واحد من رجال مغاربة معدودين ممن كان لهم دور كبير وفاعل في العديد من الأحداث والتحولات في المغرب الاجتماعي والسياسي خلال القرن العشرين، فقد عاش في فضاءات النزال والصراع أو في أقبية السجون أو قريبا من لحظة اغتيال كانت في فترات كثيرة وشيكة منه. عاش حياة واحدة تلد كل يوم حيوات جديدة من رحمها اللاهب، مذ كان شابا يافعا، وفي اللحظة التي سيكلفه فيها المهدي بنبركة وهو في السابعة والعشرين من عمره، بمسئولية نقابية، ليصبح في مارس ١٩٦٣ على رأس اللجنة العمالية بالرباط لإعادة تصحيح الوضع النقابي في إطار التصدي للقيادة البيروقراطية.

كان المهدي بنبركة، بفكره الثاقب وروحه الخلاقة وقدراته السياسية، يحمل بداخله حلم وجود منظمة نقابية– قاطرة تسحق بهديرها وفعلها كل العثرات والخيبات – وقد رأى في ذلك المناضل الشاب الذي عينه مسئولا،

إطارا ملائما، بعدما تيقن من قدراته، الملفتة للنظر، في ثلاث محطات ومعارك حاسمة.

فهذا الأموي وهو في خضم التعبئة للإضراب العام للعمال (٢٦ ديسمبر ١٩٦١) ورغم ما سيتعرض له من اعتداء وحشي وحكم جائر (ستة أشهر)، فإن ذلك لم يزده إلا إصرارا على خوض المعارك الأخرى في الواجهة النقابية، ليقود مسيرة احتجاجية قوية من أجل إرجاع التلاميذ المطرودين، فيعتقل من جديد ويحاكم بستة أشهر أخرى، وكأنه كان يتهيأ لمعركة ثالثة بحماس الشباب المسنود بزعيم أممي مثل المهدي بنبركة، وبوعي محارب عاش وسط المجاهدين، فيدخل معركة مقاطعة الاستفتاء على أول مشروع للدستور بالمغرب، وقد تربصوا به دون أن ينالوا منه.

●●●

في المكتب العلّوي من بيتي توجد إلى جانب لوحة تشكيلية كبيرة، صورة لوالدي محمد بن عبد السلام على لوحة قماشية بريشة الفنان إدريس بنادي وإلى جوارها صورة للأموي، رافعا يده اليمنى وهو يبتسم.

حينما كنت أرتب، قبل سنتين، هذا المكتب وكان علاء يساعدني في ترتيب الصور سألني عن صورة الأموي. ومن ثمة بات يعرفه. بعد ذلك صحبته ذات مرة معي إلى زيارته. هذه الأيام سمعني وأنا أخبر محمد عطيف هاتفيا بأنني سأكون غدا في النقابة دون أن أتحدث عما أنا ذاهب لأجله. في الصباح وأنا أستعد للخروج من البيت، قال لي علاء بأنه يريد الذهاب رفقتي عوض بقائه في البيت، بسبب زكام حاد منعه من الذهاب إلى مدرسته. فأجبته بأنني سأخرجه يوم السبت لما يصبح عفِيًّا. ثم يفاجئني

بأنه يريد الذهاب معي عند الأموي بالنقابة.

شعرتُ بأنه استنتج ذلك من مكالمة الأمس، ثم وعدته بأخذه معي لاحقا. وأنا معتز بأن يحب أبنائي من أحب من عائلتي وأصدقائي وأساتذتي. والأموي جزء مني بفكره وأخلاقه ومواقفه وقد شعرت بتلك الألفة منذ التقيته خلف القضبان وفي بيته وإلى جواره في النقابة بقسم الإعلام أو حينما حضر زواجي أو خلال حضوره يوم ناقشتُ أطروحتي لدكتوراه الدولة في الآداب، أو حينما كنت أرافقه يوميا، على متن سيارته، من الدارالبيضاء إلى الرباط أثناء محاكمته الشهيرة في أبريل ١٩٩٢ بعدما دبرت له الحكومة المغربية ملفا سياسيا كعادتها معه في ظروف مشابهة من قبل.

تعوَّد أن يأخذ الكلمة منذ اليوم الأول للمحاكمة، وكان إلى جانبه أزيد من ٢٠٠٠ محام من كل المغرب تطوعوا للدفاع عنه، وكنت أتعلم من مرافعاته السياسية والأدبية.. وفي اليوم السادس والأخير من المحاكمة في شقها الابتدائي يوم سابع عشر ابريل، وخلال قدومنا من الدار البيضاء كان إحساسه بأن الحكم جاهز وأنهم يريدونه لذلك جاء يحمل معه القرآن الكريم وجلبابا صوفيا ومقدرة عالية للتحدي والدفاع عن قضيتنا جميعا. وصلنا الرباط مبكرين، وأمام الهيئة تكلم القاضي بألسنته المتنافرة وأعطى للأموي ما اعتقده كلمة ختامية.

تقدم بويا الأموي حاملا، بشماله، قوسه الحتمي الذي لم يكن ليراه أحد غيرنا، وبيمينه كمش على شيء كمن تهيأ أو هَمَّ ببذره. كانت نظراته حاسمة لا تقبل التفاوض. بسمل وحمدل ثم التفت نحوي في الصف الثاني- داخل قاعة فيها العشرات فقط، فيما الآلاف من المحامين والمواطنين ورجال

الإعلام في الشوارع الخلفية - بوجه وضاء يلمع منه نور رباني، فرأيت في ثوان التفاتات الأنبياء إلى أرواحكم السخية، وأدركتُ أنه شجرة وارفة لن تهزها كل الرياح والعواصف. بدأ جملته ثم عاد يوجه كلامه إلى الهيئة التي غاصت في حكم جاهز قبل الفجر:

- " أريد أن أصل إلى القول بأن القوس قد أوتيت باريها وأنا مناضل ومصارع ولا أعرف أين يمكن أن يقف الصراع.

وإني اليوم لأشكر الله وأعتبره من خلال هذه المحاكمة أنه قد نصر عبده وهزم أنصار الفساد لأنه أتاح لي الفرصة. فقد كنتُ كما لو أني وحيد فإذا بي أحس بأنني لست وحدي وأمة كلها معي. دخلت وجلا خائفا فإذا بي الآن جريء وأكثر شجاعة. دخلت - وربما - كنت مترددا فإذا بي الآن حاسم في كل شيء. والآن يرفع أبو غيفارة رأسه وينشر كفنه وقد جئت البارحة بثيابي مطهرة استعدادا... وإني لمرتاح حتى إذا لاقيت الله سوف ألقاه وهو عني راض وأمتي عني راضية.

أنا إنسان جموح، وفي بعض المرات أكون شرسا. لقد دخلت وفي صدري وفي نيتي العديد مما التقطته من معاناة واضطهاد طبقي ومرارة مما يتعرض له العمال وعموم الجماهير من قهر لأجعل من هذه المناسبة مناسبة لا للتنديد ولكن لما هو قريب من الثأر ولو على مستوى الحديث. "

من داخل السجن أرسل إليَّ الأموي رسالة من ثلاثين صفحة بلغة فنية راقية تضمنت عددا من الالتماعات وملاحظاته إثر قراءته لروايتي "زمن الشاوية". رسالة تمنعني من إيرادها ملاحظة كتبها في هامش الصفحة الأولى تقول: مراسلة شخصية غير صالحة أو معدة للنشر.

سيرة الضوء

محمد نوبير الأموي الذي انخرط منذ حداثة سنه، في معارك لاتحصى، سيكتشف فيه، المهدي بنبركة مبكرا تلك القدرة العالية على الصمود والأمانة والعطاء، وعلى التنظيم والتعبئة، وعلى الخطابة العفوية بلغة عربية فصيحة باذخة بالشعر العربي والأمثال الدالة أو بلغة دارجة شامخة بأبعادها المحلية الموحدة. أو حينما ينتفض فتضيق الأوراق بين يديه، كما تفر وتختفي الكلمات العادية من قاموسه لتحل محلها الجمل الأكثر صدقا وحقيقة.

ولم يخطئ المحللون لحظتئذ في تقييم الأموي وقدراته على تحويل مجرى المغرب الاجتماعي والسياسي وهو يقود سفينة السي دي تي في رحلة المصاعب والمخاطر إلى شُطآن الأمان والانتصار. رحلة أطول من رحلة جلجامش بحثا عن نبتة الخلود سيكتبها على ألواح صنع منها قوسه الأبدي.

لَوْ يلتفتُ، لهُنيهة، إلى الوشاة والقتلة، لن يجد خيرا من المتنبي حينما صرخ في وجه من نعوه في مجالسهم :

كمْ قد قُتلتُ وكم قدْ مُتُّ عندكُمُ ثم انتفضْتُ فَزَالَ القبرُ والكَفَنُ

أو يستحضر القصيدة السادسة عشرة لأبي العلاء المعري من (سقط الزند)، والتي مطلعها : " ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل". وكأن شاعر معرة النعمان قد كتب قصيدة للأموي في زمنه هذا.

ولد الأموي يوم ٢١ نوفمبر١٩٣٦ بدوار ملكو قبيلة المعاريف إقليم سطات/ الشاوية من والده حمان الأشهب بن عمر الزيراوي ومن والدته عائشة بنت بوعزة المزمزية. وقد حفظ القرآن الكريم بكُتاب القرية، ثم أخذه أخوه إلى الدار البيضاء ليتابع دراسته الابتدائية بمدرسة اتحاد الحي

الصناعي قبل أن يتوجه لمتابعة دراسته في كلية بن يوسف بمراكش فجامعة القرويين بفاس... رحلة في طلب العلم وتأكيد الذات، وهو ما سينعكس على ثقافة الأموي الموسوعية في مجال الأدب قديما وحديثا والتحليل والتأويل والفقه.

في سنة ١٩٥٦ سيعمل في التعليم بالدار البيضاء ثم بالرباط إلى حدود ١٩٦٤ حيث سيلتحق بمركز تكوين المفتشين ليصبح مفتشا للتعليم سنة ١٩٦٥ بخريبكة فالرباط.

شارك كعنصر فاعل ضمن خلايا جيش الأطلس التنفيذي في حركة المقاومة السرية، كما انخرط في وقت مبكر في العمل السياسي ضمن حزب الاستقلال منذ ١٩٥٢ مثلما انخرط في العمل النقابي ضمن صفوف الاتحاد المغربي للشغل فور التحاقه بالتعليم سنة ١٩٥٧ . والتحق عنصرا فاعلا ضمن حركة ٢٥ يناير١٩٥٩، حيث سينشط نقابيا وسياسيا إلى جانب المهدي بنبركة، ويقود معارك حقيقية منذ بداية ١٩٦١ في حزب القوات الشعبية أو المنظمة النقابية، وضمن الاتحاد الوطني لجمعيات آباء التلاميذ بالمغرب حيث كان كاتبا عاما منذ مايو ١٩٦٢، وقد قاد حركات إرجاع التلاميذ المطرودين أو مقاطعة الاستفتاء على أول دستور.

وحينما سيعينه المهدي بنبركة مسئولا عن اللجنة العمالية بالرباط في مارس ١٩٦٣ من أجل التصحيح والبناء، ظل يناضل وينظم شبكات للاتصال عبر مختلف التراب الوطني، كما سيشرف على تأطير الكفاحات العمالية. وسيجري توقيفه عن العمل في مايو ٦٧ لنشاطه النقابي والسياسي وهو آنذاك بخريبكة، فيتم التراجع عن القرار بعد حركة إضراب تضامنية واسعة، وستعمل الآلة القمعية على تصيده إثر حركة الاحتجاج

على مشروع الدستور ويقدم إلى المحاكمة في يوليو ١٩٧٠ .

وكانوا يعتقدون أنه سيهدأ ويخفف من حركاته المتعددة فيحمل على المشاركة في تأطير وتوجيه أطول إضراب لعمال الفوسفات بخريبكة (أكتوبر ١٩٧١) ويترأس تجمعا نقابيا تعليميا بالرباط في (٩ ديسمبر ٧٢) يهاجمون إثرها ثم يقود مظاهرة احتجاجية إلى وزارة التعليم، حيث يسقط العديد من الضحايا المصابين بجروح، وقد أشرف على إضرابات احتجاجية في ديسمبر٧٢ تربصوا به واختطفوه في السادس عشر من نفس الشهر والسنة في الدار البيضاء وأخضعوه لتعذيب وحشي بدار المقري بالرباط لأسبوع كامل، ثم احتفظوا به هناك إلى أبريل ٧٣، لينقل بعد ذلك إلى معتقل سري بالدارالبيضاء مع سبعمائة معتقل من كل أنحاء المغرب ومن جميع الفئات ومختلف التيارات، وسيطلق سراحه يوم ٢٥ أبريل ١٩٧٤ في حالة صحية متدهورة، ليستأنف نشاطه السياسي بانتخابه في اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، أثناء انعقاد المؤتمر الاستثنائي (١٠ يناير١٩٧٥)، كما سيستأنف نشاطه النقابي لتأسيس مركزية نقابية، عبر تأسيس نقابات في كل القطاعات ويعمل على تأطير إضرابات ربيع ٧٧-٧٨ وصولا إلى المؤتمر التأسيسي للسي دي تي حيث انتخب كاتبا عاما.

●●●

منذ ذلك التاريخ حتى الآن... مذاق آخر للصراع والبناء، فقد دخل السجن وخرج منه وعاد دون أن يغير ذلك شعرة في مفرقه. ومع مرور الزمن سيصبح صراعه متعددا مع جهات مرئية وأخرى لا مرئية؛ ولعل أسوأ اللحظات التي عاشها الأموي وتؤله هي خيانة بعض ممن كانوا

مقربين منه وتحولوا إلى "أعداء مفترضين" ووشاة ولم تعد تقنعهم الحياة إلى جانب البسطاء وهم يبحثون عن أمل الخلاص بدون مفاوضات مدسوسة أو حسابات مخدومة.

أقواس الفجر

كنتُ أسعى منذ مدة لكتابة رواية أستلهم فيها سيرة الأموي..فلم أستطع ثم أردت أن أجرب محكي بورتريه، فكتبت في ٢٠٠٥ فصلا أولا من رواية لم يُكتب لها أن تكتمل. لم أستطع تحويل المد الهائل من الوقائع والمعارك والتفاصيل إلى تخييل. فقد بدا الخيال قصيرا وقاصرا أمام سيرته الباذخة بالحياة..والفصل الوحيد الذي كتبته أو جزء منه بالأحرى توقفتُ عن الاستمرار فيه، ربما لأن الخيال لم يقنعني في رسم الأموي كما هو، وعدت لأفكر بصيغة أخرى لم أهتد إلى صياغتها بعدُ بشكل فني.

ما أكتبه من حديث وإبداع ومن تأليف يعبر عن رؤاي ووجهة نظري في كل شيء يحيط بي ويشغلني سواء تعلق بالكتابة أو بالمجتمع أو بالتاريخ عبر نوافذ يومية من حياتي أو حياة من أحبهم، هي إطارات لجعل السياق موضوعيا. إنني لا أجيد حفر الأنفاق للكلمات ولكني أحب أن يكون لي نهر أستحم فيه باستمرار بمياه متجددة أرمي فيه رمياتي وكل ما أبدعه من سفن وبواخر..أتركها تسير لتصل إلى شواطئ أخرى يقبلها من يقبلها ويرميها بالحجارة أو النار من يرميها.

الفصل الوحيد الذي كتبتُ تضمن عنوانا مؤقتا وهو: "قوس الفجر". كما أني أعطيت للأموي اسم فارس دون الإشارة، على الأقل في هذا الفصل، إلى الاسم الكامل.

عنونت الفقرة الأولى بما يلي :الفجر يفك أزراره :

"ساعات قليلة على فجر بداية الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر الهادر. ظلام مكثف وغامق تتأبط ذراعاته الهلامية غيوم ثقيلة هبطت على كافة السهول. وقد استمر فارس يخترق بسيارته الطريق الضيقة، بأضواء لم تُغير من قوتها، وهو متجه نحو خلوته التي اختارها قبل سنوات معدودات، بعيدا عن مدينة الدار البيضاء بنحو مائة كيلو متر.

لم يأخذ النوم منه شيئا وهو يسوق بنفسه مخترقا امتداد الظلام والضباب والصمت، وهذا جزء من رمزية حياته التي يريدها بعينين مفتوحتين لأكبر وقت ممكن.. يضغط قليلا على زر المذياع دونما أن يغير من نظراته الملتصقة بشعاعات نور السيارة الممدد مثل لسان مشتعل، ثم ينتبه، وبنفس الحركة يضغط على زر زجاج الباب الأيمن حتى تتسرب منه أدخنة سجائره المتعاقبة.

لم تبق على وصوله سوى خمسة كيلومترات في ممر غير معبد يقود نحو بيته في ذلك الفضاء وسط الحقول وبيوت الفلاحين المتناثرة وقبة السماء المنذورة لحراسته.

الساعة تشير إلى الخامسة صباحا، مذيع الإذاعة الوطنية يسرد مجموعة من الأخبار على شكل فلاشات سريعة أهمها كلامه عن مواصلة جلسات الاستماع إلى شهادات معتقلين مغاربة تعرضوا للتعذيب من طرف الدولة المغربية. حول "فارس" من نظرته باهتمام إلى المذياع في لمحة سريعة كما لو أنه يبغي رؤية ما يقال.. ثم يغير، درجة أعلى، من سرعة السيارة، دون أن يتطاير الغبار خلفها. الغبار الذي أحس بثقل عبَّر عنه بالنهوض خلف العجلات مباشرة، قيد أنملة، ثم السقوط مباشرة، فالذرات فوق كاهلها ثوبان من رائحة الظلام والندى.

حينما أوقفَ محرك سيارته ونزل منها حاملا محفظته وبعض الجرائد والمجلات، لم ينتبه لنباح الكلاب والحركات الأولى الخجولة للدجاج والبط. رفع رأسه إلى السماء ينظر إلى آثار عقود مرت من حياته أثقل من قرون تعود به إلى جهاده جوار الأنبياء، تمزقت ثيابه ونعاله لكن روحه مرسومة بخط مغربي لم تستطع الغيوم تغييبها. تقدم دون التفات، وقد نسي أضواء السيارة مشتعلة، فهو ما زال قويا رغم كل الهيتات التي مرت عليه. يحتفظ بجمال هيبته وذكائه الوقاد ونُكَته التي تخفي في أية لحظة جبالا من الغضب السعير.

دخل البيت. طلب فنجان قهوة سوداء، ثم لبس جلبابه الصوفي وطاقية رمادية... هَمَّ بدخول مكتبه، لكنه توقف قليلا أمام الباب، كونه يشعر في كل مرة برهبة وخشوع، فهو يحب أن يصلي الفجر هناك.

لمعتْ عيناه كما لو تذكر شيئا يشدُّه إلى التذكرات حينما دخل المكتب، خصوصا لما التفتَ نحو الصور الأربعة الكبرى المثبتة على الجدار العريض. تقدم منها يتأمل دون أن يشغل ضوء المكتب... جمال عبد الناصر، عبد الكريم الخطابي، المهدي بنبركة، غيفارا... وفي جزء مقابل من المكتب صورة له بالأبيض والأسود وهو دون العشرين، مقتطعة من إحدى المجلات الفرنسية، يبدو فيها وسط مظاهرة شعبية في مواجهة عساكر فرنسيين.

مكتبة مطرزة بكل أنواع الكتب بدءا بالسيرة النبوية وكتب المتصوفة والفقهاء إلى تآليف الفلسفة والماركسية والقومية..والروايات والدواوين الشعرية؛ وفي جزء آخر تتراكم ملفات ومقررات وصور وشرائط.

جلس على الكنبة في استرخاء وسط الظلام، وضع رجليه على الطاولة الأمامية، وعلى وجهه لا تزال مسحة خشوع مستمر وهو يتأمل سيولا رقيقة

تهبط عموديا على زجاج النافذة المقوسة والمطلة على الحديقة قُبالة شجرة الرمان. همَّ بإشعال سيجارته في هدوء، فلم تسعفه الولاعة ثم رمي بيده اليسرى باحثا عن عود كبريت على الطاولة.

تمدد مرة أخرى. أرجع رأسه إلى الخلف. أغمض عينيه مثل محارب تاريخي يحمل بيمينه كفنه المُطهَّر، وبشماله قوسه الأبدي. هو الآن في قيلولة ليلية، سيعود بعد قليل إلى ساحاته المفضلة، وهو من خَبَرَ حروب نصف قرن، في كل مرة كان يدخل حربا يهرق على جنباتها كل دمائه، ولا تكاد تنتهي حتى يجد من يدفعه إلى ساحات أخرى فيضطر إلى توزيع دمه حصصا حصصا.

التفتَ يرى ما جرى في البداية.

ثلاث سنوات مرت على استقلال البلاد، رآها أطول جنازة صاخبة لتوديع حصة كبرى من الدم والأحلام المعمدة بمشاعره ونواياه، صار يفرك كل ما اعتقده قادما فلا يجد غير حبات يابسة وأشواك تلهو وسط ساحات فارغة.. سقط فيها كل الشهداء - بعلمهم أو بغير علمهم- فسَادَ رسلٌ مزيفون يصنعون الأوهام الأكيدة سعيا لإدخال البلاد من الوهم الأصغر إلى الوهم الأكبر.

- إني أشك هل قاومنا وجاهدنا من أجل الحرية، أم من أجل جزيرة من الدسائس والتصفيات ؟ (تساءل بنفس قريبة من الحزن وهو إلى جانب صديقه).

- علينا أن نحفظ بعض الأمل في ما سيأتي...

- (قاطعهُ وهو يهم بالانصراف) ألم تحضر اجتماعات النقابة ؟ وكيف يستبعدوننا... نحن حطب وتبن فقط...

- المهم أننا حققنا الاستقلال والنصر.

(مد يده إلى جيب سرواله يبحث عن شيء ما، وهو يعلم أنه لن يجد شيئا، لكنه ظل يبحث ليتوقف ويقول):

- يا صديقي، حققنا النصر الذي يخفي الهزيمة. هيا، إننا نفتقد شيئا عظيما في ما نحسه ولا ندركه.

- ألم تقل لي بأننا مع المهدي سنمتلك حريتنا بأيدينا.

- نعم، هيا الآن، إلى الدار البيضاء فلنا موعد معه هذا المساء.

●●●

ستكون هذه الرجات المعلومة التي بدأ يحسها فارس بعقله وشعوره بداية تشكل وعيه بالتناقضات وبمجرى الوهم المغربي بشعاراته في واقع لم ينضج وانشغل بأسلوب ضاج بالاقتتال ما دامت مساحة الحوار والإنصات والاختلاف منعدمة.

سيفهم أن الاقتتال بين جزء كبير مما تبقى من رجالات المقاومة هو حلقة في مرحلة تصفيات عدمية تحركها الأهواء والزعامات والحسابات البسيطة والمعقدة بفعل ذاتي وسلطوي، داخلي وخارجي، ثم أدرك أن أول ملامح الكآبة سببه السلطة ومن يطمحون إلى الاستحواذ لوحدهم عليها.

شعر فارس بأن المهدي بنبركة قد فهم حركات واختلالات المرحلة، لذلك كان يحضر كافة محاضراته بالبيضاء والرباط ويحاول أن يلتقط إجابات عما يجري وماذا يمكن أن يفعله.

كان مأخوذا به وبديناميته وصدقه ورغبته الصريحة في بناء الحلم الجماعي الذي صار يتهدم يوميا. مثلما ظل منبهرا بسيرة محمد الرسول وكافة الأنبياء المجاهدين والعلماء والفقهاء، وبسيرة الأمير الخطابي

وغيفارا، وبسير الفلاحين البسطاء الذين إن ضحكوا أو غضبوا، سيان، تهتز الأرض من تحت أقدامهم.

من أكون من بين هؤلاء؟ يقول في نفسه ملتفتا نحونا.

التخمينات التي رسموها أم الأفكار النورانية أم لحظات التملص من الإحباط في صيف اليوم الطويل الصاهد بدون شتاء؟.

كل يوم يمر، تزداد ضراوة العبث في اللوحة دهشة، فالسعار حول السلطة فاض في مجاري لاهبة، والتصفيات اشتعلت في الرطب واليابس..في الزمن والعباد..في المكان والحقيقة والأحلام والرماد.

- هل يمكن للثوري أن يتحول إلى مجرم بين مرحلتين ؟ أم أنهم كانوا صورة يمكن لأي مواطن بسيط أن يكونها وأكثر (قال في نفسه).

ثلاث سنوات، بعد الاستقلال، كانت كافية لاكتمال مشهد خارق في فقدان السيطرة على الطموحات وعلى محو كل الخطوات السابقة بارتجاف كبير وجفاف يطول القلب والحلق والرؤية، وفارس في هذه السنوات يسير بخطوات الذهول وسط دورة الزمان الأولى وقد تمخضت عن النصر هزائمه المتربصة بكل الثواني والأيام.

- لم أعد أرى شيئا، ساحة النزال لغير ما وُجدت له. الحرية، جنازتنا المجهولة، فقدوا السيطرة وفقدنا الطريق لا حميدة لا فلوس (عاد، يقول في خاطره).

●●●

خرج بلباسه الأبيض أمام الباب الكبير المطل على الحقول، وعصارة التعب بادية على وجهه وباقي جسده، لكن نظرته لم تفقد حرارتها. وضع يده اليسرى على شُجيرة الخوخ القريبة، وظل يمدد نظراته بعيدا دون أن

ينتبه إلى جريان الزمن السريع والمطرد.

عاد بسرعة إلى مكتبه ينظر في عناوين الجرائد المغربية، ليعود بعد ذلك إلى الكتابة.. يكتب ست صفحات، يقرأها مصححا ومضيفا وحاذفا، ثم يبعثها عبر الفاكس ويجري بضع مكالمات هاتفية، ولا يعود إلا ليحرر بعض الكتابات أو يدون بعض الأفكار في دفتر صغير، وكلما تعب بعد ساعات جارية، يطلب فنجان شاي ساخن بسكر قليل، ثم يتمدد قليلا على الكنبة، يدخن سيجارته ويرتشف شايه.

بقي لفترة متمددا، وفجأة كما لو أحس بشعاعات الغروب تجري إلى مراقدها الأزلية، قام إلى الباحة الخارجية. مشى ثم توقف قرب شجيرة اللوز الناضجة بنوارها القادم. التفت بسرعة فبدت نظرته في اتجاه المساء الشاوي المسفوح ذهبا بعيدا.. بين آخر السماء وحقول محمد بن عبد السلام. كَمَشَ يديه ثم بسطهما راميا كما يفعل الفلاحون في بذر الزرع.. وأغمض عينيه.

هل يريد أن يزرع التذكر في محاريث النسيان؟ أم يبذر الفجر القادم في عش الغروب القدري ؟

٧- معجم موسيقى
فكر بهدوء واضرب بقوة
عبد الكريم الخطابى

اعتذار متأخر للدم

انتهت سنة أخرى وحلَّ عام جديد، جاء مثل قفزة بزانة مكسورة - بعدد قبائلنا - وأنا عاجز عن الكتابة والتفكير. مرت هذه المرة بمفاجآت على غير العادة..بعد شهر ديسمبر الذي اجتمع فيه عيد الأضحى وفاتح محرم والسنة الميلادية الجديدة والهجوم على أهالينا خلال ثلاثة أسابيع وافية في قطاع غزة بفلسطين..كما عرفت بلادنا زيادات في عدد من أسعار النقل والبنزين والحليب ومواد أخرى أساسية، وشكوى الفنانين من ركود سوق الفن بالمغرب.

جو بارد وأمطار لا تنقطع إلا لتعود مصاحبة لرعود تقصف الفراغ الذي امتلأ من حولنا، وبروق تهز الأيام وهي ورقة خفيفة عامرة بالعجز جعلتني أقفز مثل عداء بدون رقم أو زانة.. أمشي فوق أرض محترقة. لم تعد حياتنا طبيعية وروتينية مثلما كانت، كما أصبحتُ عنيفا، سريع الغضب..بالتأكيد جرَّاء ما جرى لدمنا الفلسطيني وما يجري. أتتبع يوميا قنوات الأخبار بحثا عن انتصار أو انفراج وأنا عاجز كل العجز مثل الملايين لا أملك غير الغضب والغضب والغضب.

- مساؤك سعيد يا صديقي. هل هي ضربة يأس وإحباط مما يجري ؟ أتستطيع أحداث مثل هذه أن تغلب الروح وتكسر تلك النوتة الموسيقية التي تضمن التوازن ؟

- بل شيء آخر- بداخلك- يهزم الروح..ابحثْ عنه في نفسك. .تجده.

أرمي يدي داخل نفسي.. فلا أجد سوى حزن الأنبياء المعتق وتأملاتهم في حالنا ؛رماد ساخن لبكاء حارق وصراخ لم يجف بعد.

قال لي صاحبي وهو متعجل:

- أين أنت ذاهب ؟

- انتظر - قلت له - ولا تتكلم. دعني أهبط إلى روحي، أفتش عنها. الصوت كان صوتي..به بحة وطبقات أصوات ممحوة. مثل حواف تلك المائدة التي وُضع عليها العشاء الأخير. هناك رجل نوراني في الثالثة والثلاثين من عمره محاط بحواريه.. خلفه غدرُ اليهود يتربص به.

تلمستُ وجههُ الحزين فسرى سؤالي إليه... نزلتَ الناصرة والجليل والقدس، وكنتَ دوما تلتفتُ نحو دمنا الذي ساح في غزة..ثم تعود لتلتفتَ وأنتَ حزين إلى كل جهات دمنا المسفوح لأننا مسلمون لا مستسلمون. اسمح لي يا ربي أن أقبِّل الأرض بين يديك وأنا أقول لأمتي أنكَ كلما فكرتَ فينا بكيت.

كم عدد المظاهرات التي خرجنا فيها. لا أعرف..ولكنها كلها حول شيء فقدناه أو في طريق فقده..مسيرات كنا نودع خلالها كل شيء حتى أصبح سيرُنا اليومي والعادي في الشارع مسيرة لتوديع شيء دون أن ندري.

أنا متأكم، أحتاج بعد كل معركة إلى رواية قصيرة جدا لا تتجاوز صفحاتها ظهيرة يوم من أيام الشتاء القديمة أو نوتة موسيقية خالدة..أحياها كما لم تنكتب، قبل أن أعود إلى ساحات التخييل وسواحل الأبخرة.

نفس الشيء بعد كل نص أكتبه..أحتاج إلى فترة نقاهة لأتخلص من آثاره ومن ضرباته وكل المفاوضات السريعة مع المعاني وكل ذلك الفراغ

المتعمد الذي يسقط فيه من يسقط !

ها قد أصبح دمنا محيطا سائلا بين محيطين، وصرنا أمة بلا دم..نحن فقط ظاهرة صوتية ننتصر في المظاهرات والاحتجاجات..فيما أنبياء الله الذين اختارهم من الأطفال يموتون في غزة وهم يبتسمون. وغيرهم يقول: "اقتلوا الأطفال واطرحوهم أرضا يخْلُ لكم وجه العرب ".

●●●

تربصوا بي بعدما حرصتُ أن يبقى ثوبي نظيفا ونحن نمشي وسط الوحل. كانوا على يميني وشمالي وقد هموا للإيقاع بي..ولكنني كنتُ أعض على مصيري بكل ما أُوتيتُ.

قبل أن أخرج، قالت لي أمي: هل أنتَ راحل إلى المدينة..لا تنس في طريقك غزة والناصرة والبيت. ثم سلمتني كُحْلا لعينيَّ، من البرد والغدر.. وقالت لي خذهُ يا ابني حتى تُدفِئَ عينيك يا محمد.

ـ اسمي شُعيب يا أمي !

ابتسمتْ وصمتت لفترة ثم أردفت :أنت معجمي..انظر جيدا فالكحل أضاء كل السبل..سبُلُهم..أنتَ خطوة أخرى في مصيرهم.

أنتَ مثلهم. بل أنتَ الشبيه المطلق لهم ؛وأنتَ النفس الأبدية التي ظلت تُعد للمعارك والفتوحات وهي في الكهف..فنسيت نفسها حتى الآن.

شعرتُ برغبة روحانية في البكاء مثلكم. عدتُ وجلستُ بالقرب منها ثم دفنتُ رأسي بسرعة في حضنها..بل في ثدييها اللذين رضعتُ منهما عامين كاملين.. وشرعتُ في البكاء..بكيتُ دموعا تتقطر حارة تساوي ما شربتُه حليبا..بكيتُ يا محمد القدر الذي يغسل مصيرنا.

قالت لي:

– يكفي ما بكيتَ..قم والعب الآن ولا تنس أن تحفظ معجم الموسيقى ؟

– أي معجم يا أمي ؟

– لا تلتفت كثيرا، وارحل فالطريق طويل إلى نفسك.. هناك تجد جلودك ونعالك القديمة في الكهوف التي رهنها الله لكَ ، ستجدُ الأغاني التي رسمتْ روحك عاليا..هناك دائما.

يا أمي: ليتني كنتُ...

علمتني أمي الحكي من خلال معجمها النهاري الذي كله أمثلة وحِكم تفسر التدبير اليومي للحياة داخل البيت ؛ وبالليل تروي لنا عن والدي مما سمعته من عماتي ونساء كثيرات وصلن إلى أخباره – فهو متكتم لا يروي شيئا عن نفسه – كما تروي لنا عن والدها الحاج راعا وسلالته الربانية ورحلاتهم المعراجية من ربوات الساقية الحمراء إلى دمنات ثم سطات. أما الشق الآخر من الحكايات فهي حكايات تعود إلى المتخيل الأمازيغي والشاوي.

في الرابعة عشرة من عمري كنتُ قد استمعت إلى كل حكاياتها وامتلأتُ بها، فالتجأت إلى قراءة ألف ليلة وليلة ومؤلفات قصصية متداولة. وفي نفس السنة بدأتُ أجربُ الحكي ليلا لأخوتي مما سمعته من أمي ومما قرأتُ ومن خيالي، مُحَرِّفا ومُضيفا حتى لا أروي لهم ما سمعوه حرفيا.. كأن أغيِّر في الأحداث، خصوصا النهايات التي كنت أجيد تمطيطها بالتشويق.

الآن أريد أن أكون ذلك الطفل الذي كنته في السادسة من عمري، نبي كامل بدون خطايا شعبه، خال من النوايا البشرية :صفحة بيضاء تكتب عليها أمي حكاياتها الجميلة ويوَقّع عليها والدي.

أمي... أنا الآن أحمل في يدي اليمنى خبز الشعير وبعض الزبيب. أتوجه إلى المْسَيَّدْ عند سيدي وفقيهي مولاي أحمد، الشيخ الوقور، بوجهه المشع نورا وبركة. أتمنى الآن لو كان حيا لارتميتُ على يديه أقبلُهُما عمرا كاملا..فقيهي الأول الذي علمني القرآن الكريم على لوح خشبي طُليَ بالصلصال وكُتب بالسمق.

ليتني كنتُ الآن مكانه بجلبابي أجلس حيثُ جلس ؛أُعَلِّمُ الأطفال، على الحصير الأصفر، ما علمني في نفس الألواح وبنفس الأقلام القصبية المبراة بأناة وفن، وأبصر أمامي نفسي في صورة طفل في السادسة من عمره، لونه أسمر وعيناه جاحظتان بالدهشة، فيهما غفلة البدو ونوايا ربانية، وفي جزء جانبي ظليل - به كل الزخم الروحاني الذي حملته - تختبئ تدابيري الشيطانية لما نخرج أو نلعب أيام عطلنا نحمل فخاخنا وشباكنا التقليدية المتربصة.

مازلت حتى الآن مع أساتذتي، وهم لا يشعرون، أحس بنفس الإحساس أمامهم.. ذلك الطفل الذي يعتبرهم أولياء وأنبياء ومجاهدين، يحملون العلم والوحي والمستقبل... مازلت أحفظ أسماءهم واحدا واحدا في شجرة روحي المورقة بمحبتهم من المسيد إلى مدرسة ابن تاشفين إلى ثانوية ابن عباد إلى جامعتي الدار البيضاء والرباط... كلما رأيتُ واحدا منهم يتحرك الحب في قلبي وروحي وينتابني شعور جليل واطمئنان سام.

يوميات غزة بدون موسيقى

إحساس مشترك وعام بأننا نعيش نكبة أعنف من تلك التي مرت علينا من قبل. وبالتأكيد، ستبرز مفاهيم قوية تعبر عن واقعنا الجديد، تَجْرفُ كل الكلمات البائرة والتقييمات "المخدومة" بكل الأصباغ التي يُراد بها تزييف ما

نحن فيه. ليس هناك تكرار، وهي إحدى معجزات كوننا. هناك تطور يأخذ مُدَدا في اتجاهات ما وبوتيرة معينة، ينتقل من مرحلة إلى أخرى.

توتر اجتماعي نتيجة الغلاء في عدد من أسعار المواد الأساسية رغم الانخفاض المهم في سعر البترول عالميا وتحقيق مداخيل مهمة من مبيعات الفوسفات الخام. أصبحت الحياة التي نعيشها مثل رواية بدون موسيقى، مفتوحة يكتبها الجميع، لا قانون فيها سوى شرط وحيد يُلزم الجميع بألا حق لأحد في كتابة النهاية.. فهي متروكة للشخصيات.

ثلاثة أسابيع من الحرب على غزة كانت طويلة وبئيسة وغاضبة. ضربة وعي أخرى قاسية.

الأسبوع الأول: الكنايات الجريحة

في صبيحة يوم السبت ٢٧ ديسمبر..الساعة تشير إلى الخامسة إلا الربع. ارتديتُ جلبابي الصوفي وجواربي. أعدتُ الغطاء على الأطفال، وكان الظلام لا يزال ثقيلا ورخِيا. غسلتُ وجهي وأطرافي بماء ساخن، ثم هبطتُ إلى مكتبي. أشعلتُ المذياع ثم أطفأته لأُشعل الحاسوب ومن خلاله شغَّلتُ موقعا خاصا بالشيخ المقرئ عبد الباسط عبد الصمد. لدي رغبة منذ البارحة للاستماع إلى سورة يوسف بصوته الرخيم.

تمددتُ على الكنبة وتناولتُ ديوانا شعريا كنت قرأته في الصيف الماضي بعنوان "ما الذي يرى المرء حين يرى ؟" للشاعر يواخيم ساتوريوس. لم أشعر بالوقت ثم نهضت وتناولت رواية "امرأة النسيان" لمحمد برادة والتي كنت قرأتها ثلاث مرات من قبل.. أما هذه المرة فعدتُ تحديدا إلى صفحات بعينها كنتُ تركتُ بها علامات مميزة.. وهي تربو عن الثلاثين صفحة متفرقة.

كان في نيتي هذا اليوم، بعد تناول الفطور، الاختلاء لكتابة يوميات شهر ديسمبر، وفي ذهني خطاطة عامة للبدء من ثلاثة أفكار فقط، وهي عيد الأضحى وكيف قضيته ثم فاتح محرم وأخيرا الأمطار التي روت أرواحنا قبل الأرض.

لا أعرف لماذا خطر ببالي أن أؤجل الكتابة إلى ما بعد الزوال يوم الثلاثاء، فلدي ثلاث ساعات قبل اللقاء بأصدقائي بمقهى الشاوية. وضعت القلم بل خبأته وجمعت الأوراق في ملف خاص بها ثم صعدت إلى الطابق الأول، دخلت الفراش. تمددت في كسل إلى الثامنة تقريبا لأقوم على ضوء يوم جديد هو يوم عطلة.

في ذلك اليوم، وقبل أن أعلم بخبر قصف غزة جوا من طرف العدو الصهيوني، تصفحتُ الجرائد المغربية، وقد تضمنت أخبارا عادية وقصيرة عن الوضع الاجتماعي المقلق إلى جوار أخبار عدد من الفنانين والفنانات وأسرارهم الثمينة !بالإضافة إلى حوادث من قبيل فتاة تطعن خطيبها بسكين حادة.

مر الأسبوع الأول وقد توقفت عن القراءة والكتابة، وصرت مدمنا على متابعة الأخبار في القنوات العربية والدولية في الصباح والظهيرة والمساء. وفيه استكملت إجراءات سُلفة بنكية كنت في أمَس الحاجة إليها، بعدما لم أشأ اللجوء إلى والدي أو غيره من أصدقائي.

أحسستُ بأن إسرائيل لا تضرب غزة فقط وإنما تقصف مليارا من المسلمين في كل بقاع العالم. غزة هي مجرد كناية تنوب عنا جميعا.

الأسبوع الثاني: همس النهار

كنتُ أقول لنفسي وأصدقائي بأنه علينا أن نبقى أقوياء ولا نستسلم لهذا

الواقع ؛لذلك لم نؤجل أنشطتنا الثقافية التي تربطنا بغيرنا، خصوصا وأننا من خلالها، نعبر عن تضامننا مع إخوتنا هناك بغزة. كما نعبر في المظاهرات التي شاركنا فيها بالدار البيضاء والرباط.

سعيتُ لحمل أي كتاب فلم أقدر، كما سعيت لحمل القلم والكتابة فلم أقدر أيضا وبقيتُ متابعا - على غير عادتي - للتحليلات والأخبار في كل القنوات الممكنة.

جرائد هذا الأسبوع مهتمة بزواج سري لفنانة شعبية مشهورة داخل المغرب وخارجه من رجل أعمال وبحضور بناتها وقد جعلتْ منه اليومية المغربية مادة أساسية في الصفحة الأولى بعدد من الصور ومقالة شغلت حيزا كبيرا. كما تواصل جرائد أخرى جمع عدد من الأخبار حول غزة والمجتمع والحوادث المتعلقة بالمخدرات والجنس والقتل والمطر، وصحف أخرى تقص أثر السادة الوزراء وتبحث في ملابسهم وجيوبهم وأفكارهم.

في هذا الأسبوع انطلقت منذ خامس يناير حملة تلقي طلبات التسجيل ونقل القيد في اللوائح الانتخابية الخاصة باستحقاقات شهر يونيو القادم.

الأسبوع الثالث: تقرير ونهاية

استمرت المظاهرات والأمطار والزيادات في الأسعار والخلافات القاتلة بين الأدباء. كما تستمر الصحافة الوطنية في نشر أحداث طريفة ومهمة عن راقصة مراكشية تقتل زوجها لأجل عيون عشيقها الثري..فيما صفحات أخرى تُخبرُ عن حوادث مماثلة مستقاة حرفيا من ملفات الشرطة القضائية ومن قاعات المحاكم.

قرأتُ مقالا طريفا في جرأته وهو في الحقيقة بيان أصدرته النقابة الوطنية للصحافة بالمغرب بالدار البيضاء عقب ندوة في موضوع "الرشوة

والصحافة "، وهو يدق ناقوس الخطر حول آفة تفشي الرشوة بالجسم الصحفي المكتوب والسمعي البصري بالمغرب.

أما غزة فصامدة وسط كل هذا وذاك ووسط اجتماعات ضخمة وكثيرة للرؤساء والملوك والأمراء العرب ؛لكن إسرائيل تقرر توقيف حربها الغاشمة يوم سابع عشر يناير، بعد اثنين وعشرين يوما خلفت استشهاد أزيد من ١٦٣٠ شهيدا وإصابات لا تحصى في صفوف حوالي ستة آلاف مواطن فلسطيني.

وأنا جالس إلى جواره بالمقهى، كانت الأمطار قد بدأت تعاود الهطول، كأنما تذكر شيئا وقال لي بويا بغضب وبصوت فيه تأنيب : لماذا لجأت إلى سلفة من البنك ؟. أنكرتُ وأنا أتساءل عمن أخبره بالأمر؛ لكنه لم يصدقني وظل مُصرا على تأنيبي وقال لي كلاما أدركتُ معه إلى أي حد كان غاضبا مني. قال بأنه كان ينوي ألا يكلمني، وكان علي أن أعود إليه لا إلى مؤسسة قادت العديد من أبنائها إلى مآزق حقيقية.

ورغم ذلك بقيت مُصرا على إنكاري.

هل نكون مثل ما كنا ؟

انتهت الحرب لتستمر حروب أخرى، وقد بقيتُ أياما أُخَر متوجسا قبل أن أعود إلى حياتي الطبيعية :

متابعة أخبار الظهيرة أو المساء في القناة الثانية والأولى ؛ النوم في الظهيرة ؛الاطلاع على البريد الاليكتروني والرد على الرسائل كل يوم سبت فقط؛ مراقبة صندوق البريد بعد زوال كل يوم ثلاثاء، حيث تصلني الرسائل والمجلات ؛ الاجتماع الرسمي بالأصدقاء كل يوم ثلاثاء ابتداء من الساعة السادسة.

●●●

هل نكون مثل ما كنا أم أن شيئا آخر انكسر فينا وتفتتَ ؟. كل يوم نفقد حاسة وجزءا من ذاكرتنا.

لا بأس. دخلتُ في صراع مع مسئولين محليين بإدارات عمومية بمدينة سطات لتورطهم في عمليات طلب رشاوى وبعدما أصبح صيتهما شائعا؛ وقد تعطلت مصالح العائلة لأني لم أشأ الدخول في هذا النفق، فكتبت تحقيقا في هذا الشأن نشرته "الجريدة الأولى " كما نُشر بصيغ مختلفة في صحف أخرى.

أحد الصحفيين الذي كنت أعرفه ويعمل بجريدة يومية في الصفحة الاجتماعية، حينما كلمته في شأن إعداد مادة إخبارية عن موضوع الرشوة بهاتين المؤسستين – بعدما قدمت له كل ما يثبت ذلك – قال لي شارحا، بتفصيل وجهة نظره :" نحن في العادة نريد أخبارا مثيرة..أما ما تتحدث عنه فأمر عادي وشائع ولا يعتبر شيئا جديدا ".

قلت له :هل ستنجز المطلوب لفضح الفساد أو جزء منه على الأقل..أم ستجرب خطابا قديما معي يخفي زلة فيك. أم تريد أن أكتب لك عن الموسيقى والمسرح والسهرات الأسبوعية ؟.

رد علي بأنه لن ينشره وكفى. وفهمت بدوري وضحكت وأنا أقول له بأنني لم أطلب منه أن ينشر لي خبرا في جريدة البايس الاسبانية أو في التايمز آبويا !!!. وفي نفس الأسبوع تتبعتُ الصفحة التي يشرف عليها وكنت أقرأها كاملة ففهمت لماذا ابتدأ ناقوس الخطر يدق..

عدتُ إلى الكتابة في ما هو اجتماعي بأسماء مستعارة، كما خطرتْ لي فكرة كتابة رواية قصيرة جدا – وهو أمر يدخل في صميم عملي وحياتي – أول شيء فكرت فيه اختيار موضوع حول شخصية مغربية شغلت منصب

أول ناطق رسمي باسم الحكومة الخامسة والعشرين المسماة حكومة التناوب من ١٤ مارس ١٩٩٨ إلى سبتمبر ٢٠٠٠ وفي مرحلة أخرى وزيرا للتعليم في الحكومة السابعة والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٢ إلى يونيو ٢٠٠٤، ثم بعد خروجه من الحكومة تم تعيينه مباشرة في منصب مدير عام مؤسسة القرض العقاري والسياحي وهو منصب سام أجره يتجاوز الخمسين مليون سنتيم شهريا.

وقد اخترت لهذا المحكي عنوان " الأزلية " انطلاقا من خطبه وتصريحاته إلى حواراته الأخيرة بسبب ما اتهم به من استغلال لمنصبه في تفويت عقارات مهمة بأثمنة بخسة. وأعترف أني كنت مشدودا إلى تصريحاته وخطبه العجيبة والتي كانت تأتي في قالب الأزلية (نسبة إلى سيف بن ذي يزن)؛كما كنت قد تتبعت سيرته لما كان ثوريا ليبراليا وحداثيا في فرنسا وأثناء دخوله المغرب والتخطيط لمشروعه الكبير بالنقطة والفاصلة والذي أوصله إلى ما هو فيه الآن.

حكاية واقعية جدا وطريفة لكن إشكالا وحيدا يمنعني من كتابتها – الآن على الأقل– وهو كيف أكون موضوعيا في تخييل ما لا أستطيع التكتم فيه، كما أن عددا من أصدقائي القدامى ربما يفهمون أن "السرد" حول شخص منهم قد يُبلل آخرين.

لهذه الأسباب ومن أجلها تغاضيتُ عن الفكرة، وقلت لماذا لا أفكر في موضوع غير واقعي بل سوريالي وخيالي مائة بالمائة درءا لكل تأويل مغرض، خصوصا وأن المشتغلين بالشأن السياسي بعد التحول الذي عاشوه كاملا أصبحت لديهم حساسية مفرطة من النقد، وكل من ينتقدهم يعتبرونه إرهابيا ومشاركا في مؤامرة ذات أطراف متعددة. لهذا عدلت عن

"استغلال" أزليات صاحبنا وما جرى له ولنا، واتجهت إلى الموضوع التالي.

رواية قصيرة جداً

الحكاية ببساطة تدور حول فرقة موسيقية مغربية (وأعتقد الآن أنه لا أحد يمكنه أن يشير إلى بأصبعه). فرقة موسيقية مغربية ذات طاقم كبير، أغلبه من البُسطاء.. يحبون الطرب الجميل، ويشتغلون بآلات بسيطة ويدوية تفي بالغرض.

والرواية تقتفي أثر الفرقة منذ الخمسينات من القرن الماضي، فترة ما قبل الاستقلال، حيث كانت تعمل على إعداد أناشيد وطنية حماسية بكلمات بسيطة وواضحة تبث في المواطنين روح المقاومة وإشاعة وعي تحرري. وفعلا ساهم هذا الفن النبيل بشكل كبير في هذا الإنجاز إلى أن نال المغرب استقلاله، فبدأت طموحات عدد من الأعضاء في الإعداد لسيمفونية حلم جميل، بينما كان أعضاء آخرون لهم رأي آخر، مما أشعل فتيل الصراعات التي أثرت على الكلمات والألحان، ودفع بمايسترو كبير وأساسي ومنظر الفرقة إلى إعلان الانشقاق والتأسيس لفرقة موسيقية وطنية وشعبية إلى جانب فنانين كبار مما جعل السلطات الحاكمة تعتبرهم من الخارجين عن الطاعة.

مايسترو الفرقة الكبير، أصدر رفقة زملائه جريدة تعبر عن رؤاهم الفنية وفيها تحذير للفنانين من الأخطاء التي من الممكن أن تجعل الفن الجميل تجارة بائرة أو وسيلة للإثراء الشخصي. كان أعضاء الفرقة الأساسيون أو المنخرطون والمتعاطفون مع أغانيها من البسطاء يعيشون على القليل ويسكنون في بيوت ضيقة ويتقاسمون ما يملكون. يربطهم الحب والتضامن..ورغم ذلك كان المايسترو الكبير يقول لهم :"لسنا ملائكة في زمن

تولد فيه الشياطين من أجل الضجيج وتدمير اللحن الروحي ". وقد عبَّرَ عن مجمل أفكاره في نشيد خالد اختاره أن يكون ثوريا.

واصلت الفرقة تأليف كلمات ثورية بألحان صادقة ألهبت الوجدان الشعبي مما جعل السلطات الحاكمة تطارد أعضاءها بالاعتقال والنفي والتضييق. ولما لم تستطع اجتثاثهم، قتلت - في الستينات - المايسترو كما قتلت غيره من الفنانين والمبدعين، وتعرض الباقون لكل أنواع التعذيب والتنكيل والفرقة للحظر. ورغم ذلك كان حب المغاربة للفرقة يتنامى بشكل أرعب أعداء الفن. وانتشرت الأناشيد الخالدة التي بللت عطش البسطاء وروت أحلامهم بغد جميل حقيقي غير مزيف.

بعد سنوات أخرى، أقدم أعداء هذا الفن على اغتيال مايسترو كبير آخر دون أن يجف النهر أو ييأس الناس. كما استمرت الفرقة وسط هذه الظروف في تألقها بإمكانيات بسيطة، وهي تتجذر وتتسع في مسيرة ملحمية نادرة في عالم الفن العربي.

- دخول الهجيج وبداية التهرنين: والهجيج هم قلة من الانتهازيين الذين دخلوا الفرقة الموسيقية في لحظة رخاء سياسي وأوهموا الجميع بأنهم يدافعون عن الحداثة وتطوير الفن بآلات جديدة. ومن هنا ابتدأت الأمور تتحول شيئا فشيئا، وبدأوا يشكلون تيارا يتقوى في ظل الخلافات على الكلمات أو الألحان. ولعل حدثا طرأ في بداية الثمانينات، طُرد خلاله موسيقيون من الفرقة كان لحظة الخطر الأولى التي ستظل جرحا مؤلما، ورغم ذلك بقي عدد من الأوفياء في الفرقة يصارعون بأناشيد صادقة دون استسلام إلى ما يتهددهم من ضربات من داخل المجموعة ومن خارجها.

بروز تيارات ترعرعت في لحظات مرض، فشرعت تطالب بأناشيد غريبة

مصحوبة بالرقص وقلة الحياء، مبررة ذلك بأنها الموضة التي يرضى عنها الحاكمون.. وقد اشتد الدفاع عن هذه القيم في التسعينات من القرن الماضي، كما برزت ظاهرة غريبة تسمى بالحريك إلى مدينة الرباط، إذ فَر عدد من الموسيقيين من الفرقة إلى العاصمة وسكنوا إلى جوار دار المخزن، كما سكن البعض بجوار الإسطبلات لأداء مهمة النفخ بالمزامير أو بالصفير للخيول أثناء ورودها اليومي. واستكمالا لسد كل الثغرات دفعوا بنسائهم إلى مصاحبة نساء الدار والجنرالات والمستشارات، وباتوا يلجون الفنادق الكبرى ويحضرون أعياد الميلاد وغيرها، ويرتدون الجلابيب والشواشي الحمراء، ويحجون إلى مسجد أهل فاس كل جمعة ويسهرون في قصارة محمية يوم السبت.

إنهم في كل هذا، ينتظرون من يذكرهم في اجتماعات ومجالس دار المخزن - وقد بات حلم الدخول إليها مطلبا مستعجلا - فالذكر بكلمة طيبة يُيَسِّر لهم كل عُسر ويمنحهم شرف خدمة هذا الشعب مع تمنياتهم أن يصبح الواحد منهم قونصوا(قنصلا أو سفيرا) أو رئيس جوق محلي أو جهوي، ولم لا وزيرا منتدبا أو وزيرا أولا إذا كان العطف كاملا مكمولا.

كل هذا كان في سياق التمهيد لكي تصبح الفرقة الموسيقية مُهيأة للمرحلة التالية، وهو الفصل الأخير من هذه الحكاية العجيبة والتي أسميتها رواية قصيرة جدا. وقد تحول العديد منهم إلى مستشارين لجنرالات وأسياد. وتحول البعض الآخر إلى مخبرين يخبرون ويؤدون وظائف كانت تهدم الفن الجميل.

- الفصل الأخير ويبدأ بيوم ربعطاش: في نهاية القرن الماضي، والذي صادف يوم ١٤ مارس (وقد يصادف أيضا أي حدث آخر) وقع شيء

أصبح عقدة ذنب لا أحد يريد الاعتراف بها، إنه اليوم الذي وقّعت فيه الفرقة الموسيقية مع الدولة المغربية على الاندماج التدريجي ضمن صفوفها بحيث أصبحت جوقا وطنيا تابعا، وأصبح لأعضائها الأساسيين من مسيري الفرقة أجر معلوم ونفقة جارية بالإضافة إلى أجر الساعات الإضافية ومنحة المردودية والوفاء والاعتراف، فضلا عن امتيازات أخرى من قبيل امتلاك رخص سيارات أجرة وحافلات وبواخر وأراضي الدولة.

مهمة الجوق الموسيقي الوطني (وهو الاسم الفعلي الذي أصبح للفرقة) تكمن في كونه يؤدي – تأليفا وتلحينا وأداء – أغاني وأناشيد تحت الطلب ومنذ ذلك التاريخ صار مسئولا عن الطرب والتطريب بمواصفات جديدة، فكان أن جهزت الفرقة أغاني "وطنية" وأخرى في المديح ورغم ذلك لم يشأ أحد أن يصدق أن فرقتهم التي كتبتْ أناشيدها – من قبل – بالدم قد دخلت مرحلة الغناء بالجلاليب الثقيلة والشواشي الحمراء (هو شكل من اللباس يعيق الحركة والجنبة) وسيتأكد هذا في النشيد السادس لما طردت الفرقة كل المتأسرين على مستقبلها الجديد، وكل الرافضين للتوجه الاندماجي والحداثي !.

ها قد أصبح أعضاؤها في هذا الفصل هرمين، تعودوا على أكل الغريبة وكعوب الغزال والشهيوات، وعلى حياة النعمة، فسكنوا الفيلات الواسعة جدا وملكوا الأملاك والحور العين والوِلْدان والبواخر والعلاقات، وشربوا شرابا طيبا، وباتت أناشيدهم رطبة عادية تنزلق عليها الأحلام..أناشيد هي "تْهَرْنين" لم يسمع به أحد من قبل. كما أصبح عدد من أفراد الفرقة يقيمون سهرات خصوصية بأثمنة باهظة.

مسئوليات جديدة ستعرفها الفرقة خصوصا حينما صدر مرسوم يحول

الجوق إلى فرقة مسرحية تهتم بإنشاء مسرحيات غنائية في حلقات، فأعدت بالمناسبة للشعب المغربي المسكين مسرحيات عجيبة وأخرى غريبة أشبعت المتفرجين ضحكا حتى أنه تم تسجيل حالات وفيات من الضحك وكَثُر ظهور الفتق في البطون وساد عجب كبير لا تحصيه مؤلفات. وعم الرخاء على الفرقة التي كلما أحست بخطر يتهدد مواقعها الجديدة في الفن المغربي تدندن بصوت خفيض ببعض الأناشيد القديمة، قبل أن تعود لتغني، بصوت عال، أغاني العهد الجديد الذي رسمته ومثلته بارتجال.

●●●

قررتُ - أنا المؤلف - أن تبقى خاتمة هذه الرواية القصيرة جدا، مفتوحة، إذْ لم أترك للشخصيات فرصة الختم بل أعطيت الكلمة لشاب قال لهم في لحظة كانوا يدندنون فيها بنعيم المرحلة:

- يا أهل الفرقة..الشعب المغربي المحب للفن العظيم المطهر للروح والحياة يقول إنكم خنتم الأمانة وأوجدتم نظرية متكاملة لتبرير كل شئ.

قاطعوه بنشيد جديد خصوا به المرحلة :أنت شيوعي أو اشتراكي قديم حقود تريدنا أن نعود إلى الفقر والسجن والبندير البالي. لن نتخلى عن عهدنا الجديد أبنادم اسمع أنت واللي معاك، لن نتخلى عن العهد الجديد.

●●●

في اجتماع مجلس الحكومة المغربية يوم ثامن يناير برئاسة السيد الوزير الأول، تدارس المجلس خمسة مشاريع مراسيم يتعلق الأول منها بوقف استيفاء رسم الاستيراد المفروض على بذور البطاطس والرابع بمنح إعانات مالية لدعم الأغنية المغربية.

- إلى ماذا ترمي من كل هذا..تتحدث عن حكايات والدتك ورواية محمد

برادة ثم تكتب رواية قصيرة جدا عن مسار فرقة موسيقية من المغرب ؟

– أرمي إلى ما أرمي لا يهم. هل سيغير هذا من شيء الآن. لذلك يهُمني أن أقول بأن رغبتي جامحة كي أحمل بين يدي قوس الأموي وأنا مرفوع الرأس أسير غير خائف أو متردد..أقول ما أريد.

٨- جمهورية مريم

رغم قصره، كان شهر فبراير استثنائيا هذا العام بحيث فاقت الأمطارُ خلاله القياسات المألوفة، وسببتْ لنا الدهشة مما حصل من فيضانات وكوارث، وأصبح الغرب المغربي بِرْكةً كبيرةً تنتظر طلوع الشموس الحارقة.

●●●

عدتُ إلى كتابة مقالات للصحافة حول ما أقرأ، متابعات وتعليقات بلغة وصفية تحليلية. فأقضي بضعَ ساعات يوميا، أغلبها في الصباح الباكر. أثناء العمل، أستمع بصوت خفيض في البداية إلى القرآن الكريم بأصوات مقرئين مغاربة، وبعد تناول الفطور، أعود إلى العمل والجهاز بقربي يصدح بأغان متنوعة شعبية من المغرب الكبير.

أكتبُ بيدي على الورق، ثم أراجعُ المكتوب بلون آخر، وإن اقتضى الأمر مراجعة ثانيةً أختار لها لونا مغايرا للتمييز.. وقد جرَّبتُ نقل ما أكتبُ على جهاز الحاسوب، فبدا لي أمرا مُتعبا، وعدتُ أسلمُ أوراقي للكاتبة، فيما أتكلفُ بالمراجعة وإدخال التصحيحات والإضافات.

أنزعجُ كثيرا حينما أكتشفُ نفاذا في ذخيرة المداد وأضطر إلى الكتابة بالحبر الجاف أو قلم الرصاص.

فخامة الرئيسة تبدأ نهارها

تستَفيقُ مريم صباحا، وتجري إلى مكانها المعتاد. لكن هذا الفصل البارد، يجعلها تنتظر مني حملها بين يديَّ، ملفوفة في بطانية صغيرة وملونة، لأضعها بهدوء فوق الكنبة إلى جواري بالمكتب، فتفتعل في البداية نوما كاذبا سرعان ما يتحول إلى استغراق حقيقي.

بلَغتْ الآن من عمرها ثلاث سنوات كاملة، وقد تعلمت كيف تشاكس أمها وهي تنادي عليها كل صباح، بعدما تحك رأسها بيدها (إنها بذلك تُقلدني بتفخيم صوتها وأنا أتحدث إلى أمي، لما نكونُ بسطات):

- آ الوالدة، واش ْطابْ الفطور؟.

وعلى الفورِ تخبئ رأسها منتظرةً رد الفعل، ثم تعاود فعل شيء آخر ضمن انشغالاتها الطفولية كل صبيحة.. قبل الثامنة - مثلا - خلال أيام الدراسة، تفتعلُ مناوشات مع أخويْها، في انتظار خروجهما إلى المدرسة لتعبث كما تشاء في ممتلكاتهما الصغيرة.

من عاداتها الدائمة أن تطلب مني قلما وأوراقا بيضاء، وفي مكتب علاء تُبدعُ في تخطيط خربشات تعتبرها أبجديات ورسومات، ثم تأمرني بوضعها على الجدار بجوار رسومات أخويْها، لتستدرك، بعد برهة، وتنزع مني الورق لإضافة توقيعها المُبارك، خربشة فُجائية، تُخَمِّمُ لها قبل فِعلها، كما كان يفعل سالفا دور دالي بالتأكيد.

مْريمُو ابنتي تحب المطر كما أحبه وأكثر، وتسعى إلى التبلل بهطوله من بين يدي الله الكريمتين. مْريمُو ابنتي تحب الكتابة بيديها كما أكتب، وتحب عوالم البادية والطبيعة والموسيقى والنوم في الظهيرة وشرب الشاي.

توجهنا يوم السبت جميعا إلى مدينة سطات، ولحقتُ بوالدي إلى سوق السبت حيث وجدتُه ما زال يصدر أحكامه وقراراته الحاسمة في البشر، محاطا باثنين من المخازنية وعدد من الرجالات الفاغرين أفواههم في سُبُل فك النزاعات الخاوية والطرائق الربانية التي يستعملها بويا في التأويل واستصدار الأحكام.

قام لما رآني. مشينا وسط رحبة الأبقار وهو يشد بيده اليمنى على

يُسرايَ، وبيده الأخرى عكازته. سألني عن زوجتي وأبنائي، فاستبشر لما أخبرته بأنهم بالبيت مع أمي؛ ثم دخل في صُلب الموضوع بخصوص استكمال مفاوضات جديدة مع بعض الفلاحين حول قضايا تتعلق بالأرض. ونبهني إلى بعض الإجراءات والتَحَوُّطات وختمها بقولته الأثيرة لي: "كنْ رجلْ فحلْ".

عاد إلى عرشه الذي هو من خشب، مستعجلا إنهاء أحكامه التي لا يأتيها الحق والباطل من أية جهة، لنهبط بعد ذلك إلى مقهى بوشتى وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة.

الجو غائم، وعبره خيوط رقيقة من سوالف الشمس، تُجاهد التسلل إلى عوالمنا... لكنها تنكسر وتتفتت ذائبة، فتعاود استجماع ذراتها دون أن تفلح في خلق فجوة حقيقية للنظر منها إلينا وإلى طريقة جلوسنا وشربنا الشاي أو إلى كلامنا الذي هو حوار طويل. وجدنا مكاننا مهيئا بالمقهى ودخلنا مباشرة في مفاوضات استمرت إلى غاية الثانية ظُهرا... بعدما بدا على بويا بعض التعب، وفي البيت تناولنا الرفيسة بالدجاج البلدي، ونمنا إلى غاية الرابعة والنصف.

الرئيسة تحت المطر

استأذنت والدي في الذهاب إلى الضيعة للتفقد، فأمرني باصطحاب مريم المتشوقة إلى عوالم البادية.

قلت له: لن آخذها معي. وكنتُ بذلك أبحثُ عن رد فعلها والذي لم يتأخر وهي تحذرني بلغة تقلد فيها تحذيرات الكبار للصغار.

قالت لي وهي توزع نظرتَها الحاسمة وكلامها الجاف بيني وبين والدي : سأقولها لبويا ؟

تعمدتُ الارتعاب مما قد تقوله، فعاجلها أبي... آنذاك أخرجتْ ورقة مرتبة بعناية من جيبها، ، وسلمتها إليه كما يسلم مظلوم شكواه إلى السلطان.

إنها تسلك نفس الطريق التي سلكتها، من قبلها، زينب أختها التي تكبرها بثلاث سنوات وبضعة شهور. ففي يوم الجمعة مساء، جاءت مريم إليَّ بدفتر وقلم ملتمسة مني، بأسلوب فيه فيض من المحبة وعلامات الدسيسة الطفولية، أن أرسم لها صورة أب يعضُّ ابنته في ذراعها تاركا بها علامات أسنانه، فرسمتها لها وأنا أعرف أنها وثيقة/شكوى ضدي ستحملها لبويا.

افتعل أبي الغضب مني فأخذ البوردو وأوهمها بضربي، وبدأت مريم تضحك ثم عادت لتبكي وارتمت بين أحضاني تعانقني. وازداد بكاؤها ونحن نضحك من عطر طفولتها.

ركبتْ مريم كالعادة في المقعد الخلفي للسيارة، وكانت جذلانة، ونحن في اتجاه جمهورياتها المفقودة، وفي الطريق أعلنتِ الأمطار بداية هطول لا منقطع. وبالضيعة، بقيتْ مريم بالإسطبل الواسع إلى جوار الحيوانات، تتملى بحبور هذه المشاهد التي تفتقدها في الدار البيضاء، بينما كنتُ أترقبُ انقطاع الأمطار للعودة إلى المدينة.

الساعة الثامنة والظلام الهابط يغطي شساعة العالم فيما الأمطار تعاندنا وتضرب بقوة... ولما طال انتظاري قررتُ ركوب سيارتي..وبرفقتي مريم. نظرتُ إلى عينيها فحدستُ أنها تعاني شعورا مزدوجا من فرح وخوف ألجمها عن الكلام، واكتفتْ بالنظر فقط إلى الاختلاط الغريب بين الصمت والمطر والظلام.

خمسة كيلومترات بين ضيعتنا والمدينة..بدتْ طويلة في طريق عين

نزاغ- أولاد شعيب غير المعبدة، كلها حفر ومنزلقات. وقد عانيتُ في الخروج من مطبات كثيرة، لكن منزلقا جانبيا جرَّني فلم أتمكن معه من إخراج السيارة رغم تكرار المحاولات. ولما يئستُ اتخذتُ قرارا بديلا بسرعة. كلمتُ بالهاتف واحدا من الفلاحين بالدوار بعدما تعذر عليَّ الاتصال بأحد الأعوان بضيعتنا، وطلبتُ منه التكلف بإرسال من يجر السيارة أو يحرسها حتى الصباح.

حوالي كيلومتر ونصف وأصلُ المدينة التي تشع أنوارها متحدية الهطول المكثف للأمطار. لم أبحث عن الانتظار بعدما تعذر المسير، فحملتُ مْريمُو بين ذراعيَّ تحت الجاكيت كما وضعت كيسا بلاستيكيا كبيرا فوق رأسي وجزءا من كتفي، ثم مشيتُ وحيدا وأنا أصغي إلى أنفاس مريم المتناغمة مع دقات الأمطار. وحيدا مشيتُ كما كنتُ منذ آلاف السنين في هذه الأرض أكلمُ ربي القدير وأناجي نفسي غير العليمة بمصائري المتعددة... وأين مستقرها؟.

بعد حوالي نصف ساعة وصلنا البيت بالمدينة، استبدلنا ملابسنا ثم تناولنا عشاءنا من حريرة وتمر وبيض.

في غرفة واحدة نمنا جميعا أنا وزوجتي وأبنائي، وجعلتُ مريم إلى جواري تشدُّ بيديها على عنقي. حكيتُ لعلاء وزينب ما جرى في تلك الليلة ومريم تصادق على كلامي برأسها، حكاية أضفتُ إليها من العجائب ما جعلها أشبه بخرافة مشوقة. ومريم سعيدة بما تسمع كما لو أنها عاشت فعلا مغامرات صراعنا مع الوحوش وسط الغيس والأهوال، وكيف أنزل الله سبحانه وتعالى سيف جدنا سيدي علي الشاوي- قدس الله روحه- وضربْنا به يمينا وشمالا.

وأنا أحكي، كنتُ أعرف أن علاء وزينب لا يصدقان ولكنهما يستمتعان وتمنيا لو كانا معي.

سألتني زينب بخُبثٍ: وفين هو السيف ديال جدنا سيدي علي؟

قلتُ لها بثقة لا يأتيها الباطل والخيال من قبل أو من بعدُ: مكانه في السماء، مملكة الله، يحفظه وينزله إلينا في حالات مثل هذه.

كلام بلا فم

بعد رمضان الماضي، بدأ "مْوِيلِيدْ" صديقي في قلع أسنانه وأضراسه، بطريقة يغلب عليها منطق الحرب، بعدما أكلها السوس ونخر جذورها، فكان يقلع بنفسه ويذهب كل خميس إلى السوق الأسبوعي عند الحجام ليحفر وينقب له عن الجذور الباقية من عملية الهدم.

في الشهر الماضي أنهى الحرب وأعلن الهدنة، فأصبح بدون أسنان، قليل الكلام كثير الأكل، مترددا غير حاسم في حياته الهامشية داخل ضيعة صديقي صالح الوراقي. ومع بداية هذا الشهر تسلم فما بدون كلام، طقمه الاصطناعي هو باب عذاباته.

بالضيعة رُفقة صالح وصديق ثالث، نجتمع حول برادين من الشاي مع خبز البطبوط الساخن المغموس في زيت الزيتون. ناديتُ على "مْوِيلِيدْ" ليجالسنا، فاقتعدَ وسحب بحركة مُدربة طقم العذاب من فمه ثم شرع يشاركنا الأكل.

قلت له : الطقم الذي أخرجته يساعدك على الهضم.

لم يكلمني بعدما انتبه إلى ما قلته، وهو يُبلل ما بفمه قبل بلعه. وأنا أُدركُ أنه كان يردُّ عليَّ في سره الذي لا يعلمه إلا الواحدُ القهَّار.

والغريب أن هذا الطقم قد غير كثيرا من شخصية "مْوِيلِيدْ" الذي لم تعد

صورة وجهه تحمل تلك البراءة والسذاجة، بل صرتُ أرى فيه وحشا متوثبا، وباتتْ لغته غير ذات معنى فهو يقول كلاما ظاهرا وكلامين في بُطين خاطره. وأخبرني صالح بأنه تخلى عن الكنبري الذي كان يدندن به في خلوته الليلية.

سألت صالح هل يوافقني استنتاجاتي، فسخر مني واعتبر أن خيالي يريده كما أراه الآن، ملْحًا لكتاباتي.

أنا لا أحتاج إلى حياة مويليد لأبني للخيال عُمُده الهاوية والمراوغة، فحياتنا بالمغرب، من كل النواحي هي مثل "الأقرع..في أي مكان تضربه يسيل دمه"..يا صاحبي. ولكن لا بأس فأنا مرتاح ما دمتُ أستند في الخلفية الكبرى لكتاباتي على شخوص لا تمتلك في هذه الدنيا أي رقم حقيقي في كل المعادلات التي تربك الاقتصادي والسياسي أو أية جهة أخرى ولكنها عندي جوهرٌ باقٍ للمستقبل، ومويليد أهم لدي من شجرة تبتدئ من المحجوب إلى المكشوف من الأسماء ومن هم على هذه الشاكلة المتكررة، ولا تنتج سوى القيم التي لا أحبها ولا أتمناها لأي أحد.

– من هؤلاء السادة الذين ذكرتَ أسماءهم بغضب؟

قال لي صالح ساخرا مرة أخرى:

– هي شخصيات وهمية من عائلة صغيرة جدا في رواية طويلة لا تبدأ أو تنتهي. تتبادل طقما اصطناعيا واحدا وتتكلم نفس اللغة.

تذكرتُ أيضا أن مسألة الطقم رأيتها هذا الشهر عند صديق آخر بالدار البيضاء اسمه بوبكر يعمل لدى الميتر جلال، قبل شهر اشترى ربع طقم اصطناعي فقط للجهة الأمامية من فمه، وكان هذا الربع كافيا ليغير من كلامه وسلوكه بحيث بدا شخصا آخر، كأني لا أعرفه، فماذا لو استبدل فمه

بطقم كامل أو طقم اللاَّرُبْ (إلا رُبع)؟

الجمهورية الفاضلة

يوم الأربعاء حمَّلني والدي أمانة إلى مريم، أرنب وديك ودجاجة وبطة وحمامتان، رفضتُ لكنه ألح لأن مريم أخبرته آخر مرة بأنها تريد كل ما في الضيعة.

في البهو الخلفي لبيتنا بالدار البيضاء تركنا كل تلك الحيوانات الأليفة تعيش بيننا، ومريم تصرخ وتضحك وتجري، فيما أمها قلقة، تطلب مني ذبحها والتخلص منها.

باتت مريم تجلس على كرسي خشبي بالبهو في الصباح والمساء، على رأسها تضع طربوشا وهي تراقب حيواناتها، ومن حين لآخر تكلمها بود أو بتأنيب، ثم تقوم لترمي لها الزرع والخبز، أما الجزر فللأرنب، وتعود لتصرخ في وجه الدجاجة التي لا تعرف التواليت، ولا تستعمل البابيجينيك.

جمهورية مريم من حيوانات أليفة، أغرتني بحوارات مطولة مع فخامة الرئيسة حول إمكانية إضافة حيوانات جديدة، فضحكتْ وهي تحلم بحصان ومعزة. ففاوضتها على الإتيان بحجلة وكنار وطاووس، لكنها رفضتْ وتشبثتْ بالمعزة والحصان.

قبل مجيء هذه الحيوانات، كان يوجد لدينا غيلم أليف استولت عليه واعتبرته جزءا من جمهوريتها لأنها كانت تقدم له الطماطم، أكلته المفضلة.

في نهاية أسبوع مُشمس ذبحتُ الديك والدجاجة والحمامتين ولم أجد أدنى مقاومة من مريم، بل كانت سعيدة وهي تتلذذ في الأكل ونحن بشاطئ عين الذئاب جوار صخرة سيدي عبدالرحمن. وأثناء حديثي معها وجدتُ لها تبريرا مقنعا لكل ما يجري في جمهوريتها من تقتيل.. فالديك والدجاجة لم

يعودا يطيعان فخامة الرئيسة لذلك فقد أهدرت دمهما معا، أما الحمامتان فخشية فرارهما والطيران إلى بلاد أخرى كان لابد من الحسم معهما. وتمهيدا لذبح الأرنب والبطة، قلتُ لمريم الصغيرة:

- انظري إلى الأرنب إنها "تقلي السم" لك باستمرار بدون حياء أو حشمة (إشارة إلى حركة أنفها المتحركة)، أما البطة فهي مثل العجائز المصابات بالروماتيزم، دائمة البحث عما يملأ بطنها المنتفخة...

كانت مريم تثق بي وبتبريراتي فأنا أبوها الذي يحرص على مصلحتها ويخاف عليها من هذه المسئولية. أما الحيوانات فقد وُجِدت لتملأ بطنها بالشهيوات فقط.

●●●

الساعة الرابعة من بعد عصر يوم الخميس من الأسبوع الثاني، كان الجو رائقا ومشمسا. استفاقت مريم من نومتها الطويلة، ألبستْها أمها لباس الجينز وحذاء رياضيا، وهي تستعجلني قبل قدوم أخويْها من المدرسة. خرجنا بدون سيارة وأنا أعرف سعادتها في الهبوط إلى الفضاءات الجميلة على أرجلنا، ومن حين لآخر أحملها على كتفي لترى العالم بحثا عن جمهورياتها الضائعة. (مريمو ابنتي تشبه كثيرا، كما يوحي لي خيالي، فاطنة بنت الطاهر جدتي لأبي، سليلة الثوار الذين حلموا بممالك كاملة تسودها صولاتهم من الشاوية إلى دكالة وعبدة والحوز وتادلة..).

في هذه المرة اتجهنا صوب المُركَّب الاجتماعي فضاء الحرية، والذي يبعد عن البيت بحوالي عشر دقائق مشيا على الأقدام، وهو ناد جميل نستضيف فيه من حين لآخر لقاءات ثقافية ذات أهمية.

لساعة وما يزيد لعبتْ مريمو كل الألعاب الموجودة بالفضاء المخصص

للأطفال، تصرخ وتضحك، تطلب وتحتج، ثم تجري في اتجاهي لتعانقني تعبيرا عن فرحها الغامر، مثل بطة منتشية بالحياة.

تعبتْ من اللعب في جمهوريتها الجديدة، فجلستْ إلى جواري تشربُ حليبا دافئا قبل أن نتسربَ في عودتنا، من دروب ضيقة، وهيَ تمشي على رجليها حينا وأحملها على كتفي حينا آخر. اشتريت لها علكا وكل ما تحب، وتمشينا مثل طفلين يملكان عالما بدون فوضى.

دخلنا البيت. كانت زينب تنتظرنا. أمطرتها مريم بما فعلت، وزينب تنظر إليَّ شاخصة بعينين دامعتين. أخذتها بين يدي وهي مجمدة ووعدتها بأن تخرج معي يوم السبت. لكنها لم تتكلم فكررت وعدي لها.

تكلمتْ أخيرا وهي تفاوضني للقبول بعرضي وطلبت الخروج لوحدينْا فقط إلى الحديقة وشراء كل ما تريد خصوصا صباغة الرسم. وافقتُ وأنا أعرف أننا سنخرج جميعا بعد عصر يوم السبت.

●●●

عدتُ في الواحدة من زوال يوم السبت، وأنا مسرع لتتبع نشرة أخبار الظهيرة والخلود إلى القيلولة، ففوجئتُ بوجود الحي عامرا بسبب وفاة جار لنا كبير في السن. ورغم علاقاتي المحدودة بالجيران، ففي مثل هذه الظروف لا يمكن أن أبقى بعيدا، لذلك ودَّعتُ ظهيرتي وخرجت إلى جانب رجال الحي حيث انتظرنا إلى ما قبل العصر ثم اتجهنا إلى مقبرة الرحمة بالجهة الغربية من الدار البيضاء. عادت الأمطار إلى الهطول المتواتر، ورغم ذلك بقينا حتى انتهى الدفن وعدنا.

في مساء الغد حضرتُ بجانب الآخرين إلى عشاء الميت، كنا حوالي أربعين رجلا بيننا خمسة من القُرَّاء المُسَمَّعين، شباب يرتلون القرآن الكريم

بطريقة تختلف عن أسلوب الفقهاء الذي يروق لي، فيما لا أستسيغ صيغة القُرَّاء الذين يلجأون إلى النصائح والترهيب.

يكفينا كلام الله الموشوم في قلوبنا، ومعجم مريم الذي يحذرني باستمرار من التباطؤ في العودة إلى البيت، بل إليها تحديدا .

- وعلاشْ؟ أقول لها مستفسرا.

- حيتْ أنت بًّا عزيز عليَّ.

- وعلاشْ؟ أكرر وأنا مستمر في مناوشتها.

لحظات متجددة

لحظات الحياة الجميلة هي تلك التي نلتقي فيها مع من نُحب ونحترم. أولئك الذين إنْ أصبنا شيئا جليلا في أيامنا، فهم قدوتنا فيه ولهم فضله علينا، وإن أخطأنا فلأننا انحرفنا عن طريقهم.

كانت محطة معرض الكتاب الدولي بالدار البيضاء فرصة جددتُ فيها اللقاء بأحمد اليبوري يوم تكريمه حيثُ أهداني كتابه الجديد بكلمة وصفني فيها بالابن البار. وسعدتُ أيضا برؤية محمد برادة الذي سافرت معه ليومين إلى مرتيل - شمال المغرب، كما التقيتُ أحمد المديني في لحظة طريفة بأحد ممرات المعرض، خلالها اعترض سبيله أحد أصدقائه القدامى في الدراسة بفاس محتجا عليه في ود ممزوج بغضب المخلوق من خالقه، بكلام متداخل وسريع على إقصائه من فصول روايته "رجال ظهر المهراز"، معتبرا نفسه شخصية فاعلة في الخلفية الواقعية لأحداث الرواية... لكن المديني انتهز فجوة في خطبة تلك الشخصية الواقعية ليقول بأنه يكتب الخيال. ولما لم ينفع هذا التبرير، عاد مولاي أحمد إلى التأكيد أن جزءا ثانيا من الرواية في طور الكتابة.

قلت له:

- أنت روائي تقتل الشخصيات لتُحيي الخيال.

- "بيني وبينك اختلافات ربما صغيرة أو كبيرة، أولها أنك تفكر كثيرا في الشيء علنا قبل أن تكتبه وفي النهاية لا تكتبه!!، ثانيها أنك تفرط في بعثرة ما تود الكتابة عنه قبل أن تكتبه، ولعلك تسأم منه، فتحيد عنه إلى غيره، وهكذا دواليك. " قال لي مولاي أحمد وهو يفكر في كيف لا تحتج عليه الشخصيات التي عاشرها ليل نهار في الرواية، بينما تطلع عليه تلك التي أهملها أو أجَّلها لاختمار قادم.

في داخلي تتنازعني مشاعر المحبة والاعتراف.. والحب لا يكون حقيقيا داخل مشاعرنا وتفكيرنا إلا إذا كان جزءا من حياتنا اليومية في سلوكنا ولغاتنا، وأعتقد أني في عملي داخل الجامعة تدريسا وتأطيرا وإشرافا لا أريد أن أكون غير سي أحمد اليبوري، كما لو أنه حاضر بداخلي حريص على الكمال الإنساني، إلى جانبه ملامح متفرقة ممن علموني على امتداد كل مراحلي التعليمية وقراءاتي. وبالمقابل أحرص في حياتي ككاتب أن أكون محمد برادة الذي يعلمني فن القراءة والكتابة والحياة في كل نص جديد. إلى جانب من تشدني كتاباتهم وأتابع بشغف ما يكتبون.

تفاصيل أخيرة

قُبيل افتتاح معرض الكتاب جاء بويا عندي بالدار البيضاء بعد شعوره بوعكة صحية لها علاقة بالقلب والدم، فزُرنا بروفيسيرا مختصا وبعد فحوصات كتبَ له عن عدد من الأدوية. وبعد يومين عاد إلى حياته الطبيعية بمدينة سطات.

مرت حوالي عشرة أيام، وفي الليلة التي عدتُ فيها من مرتيل، جاء أخي

على وجه السرعة بوالدي إلى الدار البيضاء، فقد سبب له أحد الأدوية (سانترم) نزيفا داخليا، كاد يودي بحياته لولا ألطاف الله، وحينما زرتُ الطبيب الذي كتبَ له الوصفة الأولى، قال لي بدون حياء، بأن ذلك الدواء عادة ما يسبب مثل هذه الأعراض !!.

●●●

مريمو أيتها الخالدة المُخلدة، أراكِ جزءا من روحي التي تبحث عن تفاصيلها المكتوبة على وجه السماء. عادت الشمس إلى شروقها في نهاية الشهر وأنتِ معي تلعبين وسط الخُبَّيْزى والكلكاز وأعراش شقائق النعمان وأنواع برية مألوفة. احذري الحريِّقة.

هي الآن معي تجري خلف البط والكناري الضخم والديكة المنفوخة أو تلك الدجاجة الوشَّاشة التي لا أدب فيها أو البطات المتمايلات مثل عجائز قادمات بالحطب على رؤوسهن من الغابة البعيدة. انعمي يا مريمو، فأنا هناك أسفل شجرة الزيتون إلى جوار بويا نتجاذب أطراف الحديث.

انتبه والدي إلى مريم وهي تكلم الدجاجات بغضب واضح، وتقول لواحدة منهن، ذات العنق العاري :

– مزيان تبارك الله، كُوني تحشمي !! سيري للتواليت.

لمريم معجمها الخاص والذي تلتقطه وتُحَرِّفُ بعض كلماته من أمها، وقد حرص علاء على تدوين صفحة كاملة تضم ما أسماه بمعجم ماما ومريم، وَثَّقَ فيه بعض الكلمات المرتبطة بالنهي عن فعل شيء أو بما يتعلق بالأكل والمطبخ. مع كتابة الكلمات كما تنطقها حريصا على تلك الراء المتحولة الى غاء !

ثلاث سنوات صارت معها أمنا مريم قادرة على التمييز في اللعب، بين

الجد والسخرية والمناوشات التي هي شكل من المفاوضات، كما صارت من حين لآخر تناديني بكلمة بابا عوض "بًا" الأثيرة عندي، وهي تحاول أن تُرقق من صوتها كما لو كانت طفلة في سن أصغر منها بكثير.

٩- صحف علاء الأولى

تمرينات للصوت الخام

هل يحتاج الكاتب إلى تفسير كل خطوة مشاها في أرض الله الواسعة، أو كل كلمة قالها كما يشاء؟ بالنسبة إليَّ أرى ما أريد وأكتب ما أحب، وليس ضرورة أن أنتعل أحذية غيري أو أستعير أصابع ليست لي.

الحرية مثل العقل والوجدان، لا يمكن أن توجد خارج ذات الكائن، وأنا حر في شعوري بالتحرر من الاستعباد للوجبات السريعة في حياتنا. وأقول دائما لنفسي إن أسوأ شيء يمكن أن نحياه هو التكرار، أو أن نكون بدون عواطف، فنتحول مع الزمن إلى شخصيات ورقية، أو "كارطة" عليها صورنا يلعب بها الصغار والكبار.

الحياة توازي الإبداع والتجديد لصد الأفول الزاحف، وهي مَن تحققُ لنا ذلك السمو الحافظ لطُهرانيتنا.

- نحن طهرانيون. هل لا تزال تشك في ذلك ؟

ومن يقول غير هذا يرى الحياة بروح نافقة تلوث كل شيء. وهل من "الواجب" أن أرى ما لا أحب ؟

طُهراني لا تعني أننا ملائكة نحيا في أبراج نورانية نُطل منها على البشر، وإنما في كوننا نصارع ولا نهادن أو نستسلم ولكننا سائرون نُخطئ ونُصيب.

- أنتَ تتكلم عن جوهر الحياة، وهو أمر لا نختلف حوله، لكن التفاصيل الصغيرة أمر آخر. (قال صديقي).

لابأس. الحياة شيء واحد، جوهر أو عَرَض. المشكلة التي تحيرُنا:هل لتعاقب الزمن تراكم ملموس أم أننا نحيا، منذ البدء، وسط ميزان له كفتا

الكمال والنقصان، ونحن لا نفعل شيئا سوى الأخذ من هذه أو تلك، أما الحساب فهو نفسه لا يتغير.

أرى الزمن واحدا بصحف لا منتهية، نتعاقب عليها لنعيش اللحظة نفسها بأشكال لا منتهية.

مرآةُ الأعمى :كلاكيت أول مرة

هل نحن في جزيرة مفقودة فعلا، نولد ونحيا ونموت دون أن يحس بوجودنا أحد، هل نحن فراشات عابرة ؟وحدها ملائكة الله تُقَيِّدُ أعمالنا ودقائق حيواتنا في كُنَّاشاتها العظيمة.

صرتُ مُنتبها إلى التحولات المريبة لعدد من الأصدقاء، في لغتهم وأمزجتهم كما في مشيتهم وأفكارهم ووجهات نظرهم الشبيهة بثقل الغروب.

معرفتي بالسيد رابح الوادي (وهو اسم مستعار أستخدمه هنا لضرورات فنية) كانت بالسمع قبل أن أشرع في قراءة ومتابعة مقالاته الصحفية منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي، فهو صحفي متمكن يعكس بكتاباته الجريئة حسا ثوريا متشبعا بالنظريات والتصورات التقدمية العالمية. وما أسمعه عنه كان يُذكي الإعجاب والإدهاش به. حتى السلطات – كما قيل لي– بكل مستوياتها تراقب الوضع العام للبلاد من خلال ما يكتب.

وهو يكتب أيضا، بالإضافة إلى كتاباته السياسية والاجتماعية، الشعر والمسرحية وبعض القصائد الزجلية الثورية، وصرتُ أفهم مع المدة أنه كان متحزبا ورافضا للحزبية، واجتماعيا ورافضا للمجتمع، وإنسانا وزاهدا في بناء أسرة. لذلك فهو يقطن وحيدا في شقة بوسط المدينة.

كتاباته لوحدها - كما اقتنعنا بذلك- تشكل تيارا سياسيا واجتماعيا وثقافيا، وقد تشرَّبَ العديدُ من القراء من خطاباته التحليلية والتحريضية فانخرطوا بحماس غير محسوب أو مُؤطَّر في نضالات، اعتُقِلوا إثرها وذاقوا برودة السجن.

بدوري كنتُ من المتحمسين لأفكار رابح الوادي، وتمنيتُ مثل جيلي ممن كانوا في ساحة الكتابة والصحافة أن نكون نموذجا منه، وهو ما جعلنا نَنْبُذُ ما يتم ترويجه عن انتهازيته وأشياء أخرى، ونعتبر ذلك دعاية من الحاقدين لهدم صورته المثالية في أذهاننا.

في نهاية الثمانينات، حيرتني سلسلة من مقالاته، دافع فيها بشراسة عن مجموعة من الطلبة الذين اعتُقلوا في تلك الفترة خلال حملة اعتقالات عشوائية، فصوَّرهم أبطالا محررين ونخبة مغرب المستقبل، كما شرح أفكارهم الحداثية ورؤيتهم في بناء مغرب حر متحرر وديمقراطي. احترتُ وارتبتُ مما أقرأ. فأنا أعرف أغلب الطلبة الذين يكتب عنهم السيد رابح لما كنا طلبة بالجامعة، وأعلم أنهم كانوا مستهترين ممن يريدون تجريب كل شيء، ولهم ناد لرقص السمورف وإحياء السهرات المشبوهة، وأشك أن يكون ذلك ذكاء منهم لجعله غطاء لأنشطة سياسية ؛ وقد تم القبض عليهم في إطار اعتقال المجموعات الطلابية. مُصادفة غريبة!!

فاصل زمني

في مارس تتزيا الدار البيضاء بحياة جديدة، زمنها يصبح مشبعا بالمستقبل والانتظار، فتُغري بكل شيء، على عكس الإغراء المتوحد والمتوحش للسهول المتمددة بغنج وقد طلعت منها روائح الزرع الضاحة بقوة الحياة.. فهي التي رأت كل شيء بحباتها الشاخصة في وجه السماء، غير

عابئة أو مرتعبة من المناجل القادمة لأنها مطمئنة إلى عودتها الأبدية.

حجَّ الناس في هذا الشهر إلى مواسمهم للجذبة وترويض الحيرة، بمكناس وبركان وجهات أخرى مُهملة، يطوفون طوافهم حتى الامتلاء- امتلاء الخيال- ليعودوا إلى يومهم القصير، يتدبرون النهار والليل... ومثلي يحجُّ إلى شاويته التي لا يعتبرها أرضا وإنما هي وحيٌ حوَّله الله إلى تراب وأحجار ومياه وخلق، ونحن فيها في حج أزلي لا نجوع أو نظمأ، ولا نشبع أو نرتوي، لا نَصْدُق أو نكذب، لا نقول أو نصمت..وإنما نجمع من الطيب ونقيضه.

جذْبتُنا لا يعرفها إلا من خلا قلبه وعقله من الظنون، وامتلأ بالدهشة والمجاز.

أحملُ معي دائما شبكة مجازية، أرمي بها كل شيء ولا أعود إلا للعالق المتشبث، وأعتقد أن كل واحد منا له غرباله المنسوج من أخلاق وعادات وتفاصيل وتذكرات وعلاقات، ولكن الغربال العظيم هو التاريخ الذي سيضعنا جميعا في شباكه العالية.

كْلاكيت ثانى مرة

اعتقدتُ في بادئ الأمر أنني تأثرت بالوشايات الصغيرة حول السيد رابح، خصوصا حينما تصدر عن أصدقائه ممن يشتغلون معه أو من دائرة رفاقه. ومنذ النصف الأول من تسعينات القرن الماضي تحولت نبرته الانتقادية وخَفَتَ دفاعه عما كان يؤمن به، وصار يبرر أشياء كثيرة حارب لأجلها طويلا. هل تعب الرجل أم هي عودة الوعي ؟

عدتُ من باب الاطمئنان على ريبتي إلى أعداد من جرائد قديمة وقرأتُ ما كان يكتب. ورغم كل هذا لم يُكتَب لنا اللقاء والتعرف إلى بعضنا البعض

مباشرة حتى الآن، بل كنتُ المتفرج المراقب والمتابع، وها هو قُبيل تنصيب حكومة التناوب، في رابع عشر مارس ١٩٩٨يكتب بشكل مكثف لإقناع القراء والمناضلين بأهمية خوض التجربة من الداخل والانخراط في عهد جديد يصالحنا مع الذات والآخر. كما كان يتحدث عن التجارب العالمية التي علينا الاستئناس بها للتحرر من الانتظارية التي دامت نصف قرن طويل.

توقف رابح الوادي عن الكتابة بعد مرور ستة أشهر من إعلان الحكومة التي ولجها العديد من أصدقائه، وقد اختاره وزير منهم لنفسه مستشارا إعلاميا وسياسيا، ومنذ ذلك التاريخ لم يكتب مقالة واحدة موقعة باسمه.

●●●

الشِّباك تضيق وتتسع. يوميا أتابع، ومنذ سنوات، أحداثا تبدو مدهشة لتصبح فيما بعد رمادا حارقا يعمي الأبصار. في هذا الشهر، مثلا، قرأتُ عن أغنياء المغرب وزمنهم، وقد صورتهم الصحافة بعجائبية مفرطة، وعن بارونات الفساد والمخدرات، كما قرأتُ مقالات أخرى تهم دسائس الماضي... إنها أمور لا تغريني بالكتابة لأن "هؤلاء "لا يستحقون قطرة واحدة من المداد، وأجِدُني معني مثلا بخبر صغير في الصفحة التاسعة من إحدى الجرائد اليومية، مُوَقَّع من طرف كل سكان إحدى الدواوير التي تعيش معنا في اللحظة والزمان ولكن بصيغة أخرى. يقول الخبر المرمي بدوره في رُكن قصي بأن قائدا للمنطقة التي يقع تحت نفوذها الدوار المعزول بصدفة التقسيم الترابي الضروري، لجأ فجأة إلى مصادرة كل حمير الدوار وقادها إلى مكان مجهول دون أن يستطيع أحد التخمين بالحكمة من وراء هذا الفعل الآدمي، وقد أغفل الخبر الإشارة إلى عددها في حالة المطالبة بالتعويض، باعتبارها الوسيلة التاريخية الأولى والأخيرة للتنقل

وقضاء كل الأغراض. والغريب أن هذا الخبر جاء أسفل خبر حول تجند السلطات المغربية في كافة المدن لمصادرة المؤلفات الشيعية !.

يقول خبر آخر بأن التعيينات الأخيرة للولاة والعمال على الأقاليم وعددهم "كذا" تمت مع حدث طريف ومؤلم يخص مدينة سطات والتي مازالت لشهور بدون وال يتولى أمرها أو عامل يعمل أعماله فيها، والخبر كما جاء في صيغة الإشاعة بالقرائن الصادقة أن واليا ألِفَ بذخ أهالي سوس الكرماء وصبرهم، ولما اقترحوا عليه الولاية على الشاوية في إطار ترضيته بجهة كاملة قال لهم وهو منتشٍ بعبقريته بأنه يرفض التسلطن على البدو !!

حينما سمعت بهذا الخبر، وقرأتُ عنه أيضا، غضبتُ وقمتُ إلى مكتبي. أغلقتُ الباب، ثم شرعتُ في كتابة تحقيق صحفي عن مدينة سطات والشاوية، أبرزتُ فيه ثلاثة محاور تهم الأرض التي هي من أجود الأراضي بشهادة خبراء دوليين في المجال، وثانيا كتبتُ عن تاريخ الثوار والمجاهدين عبر قرون طويلة وصولا إلى خريطة المقاومة المغربية، ونصيب أهالينا منها. أما المحور الثالث وهو الذي يهمني كثيرا فقد رصدتُ فيه العلوم والفنون بالشاوية مع أسماء الأعلام والمدارس ولم أستطع حصر كل الأعلام وإنما اكتفيتُ بما وجدتُ من فقهاء وعلماء وأدباء إلى أسماء رجال ونساء نبغوا – خلال الخمسين سنة الأخيرة – في كل العلوم وبصموا حضورهم العلمي بهيئات دولية مثل النازا على سبيل المثال وبمؤسسات مماثلة علميا في كل القارات.

تطلب مني هذا التحقيق أربع ساعات من التحرير، وحينما انتهيتُ منه أحسستُ بانطفاء غضبي، ثم ركنته في ملف بالرف الثالث دون أن أجد

الحماس لنشره وتعميمه.

لا شيء يهم ! اتركونا فقط في دروبنا الضيقة والمألوفة نتجول ونحكي ونحس بدرجات الانسجام التي نفقدها يوميا.

كْلاكيت ثالث مرة

لم يلبث السيد رابح في منصبه أكثر من ثلاث سنوات، وقد تضاربت الأخبار حول سبب "طرده " والتخلي عن خدماته، فقيل إن صديقه الوزير اكتشف، بوشاية داخلية، قيامه بعدد من عمليات النصب وتورطه في استعمال الزور للاستفادة من مشاريع كثيرة. فيما ذهب رأي آخر إلى فرضية أنه استقال من منصبه احتجاجا على ما آلت إليه البلاد بفعل فشل سياسة حكومة راهن على أنها ستعمل على تحرير المغاربة من "السكتة القلبية".

الخلاصة الحقيقية المؤكدة أنه لم يعد يعمل في منصبه وبقي عاطلا لسنوات يصرف مما كسبه أو من تعويضات سابقة، متنقلا بين مراكش والدار البيضاء والرباط، وخلال هذه الفترة كان يتلقى أفكارا ويصوغها في مقالات، مدفوعة الأجر، لا يذيلها باسمه.

في صيف السنة الرابعة من الألفية الثالثة اشتغل بمجلة نسائية عربية، وباسم نسوي مستعار(هبة السعيد)، يكتب مقالات ممتعة عن الموضة وأنواع القفاطين والألبسة ومناسباتها، وعن عناصر الجمال في المرأة.

لماذا اختار هذا الاسم الأنثوي الرقيق ؟ ولماذا تشبث به وقد أصبح يكتب مع جريدة يرسل يوميا إلى رئيس تحريرها مقالاته عن الفن والفنانات وعن الطبخ وضروراته، وركن يومي بعنوان (برجك اليوم) من إعداد هبة. كما انخرط في تأليف كتب الأبراج وكتابة الرسائل لفائدة إحدى دور النشر

المغربية اللبنانية الموجودة بالدار البيضاء بنفس الاسم، بل احتال للتمويه بأن وضع في الصفحة التي يعدها صورة فتاة ذات شعر فاحم ومُسَبْسَبْ، لها عيون سوداء كبيرة عليهما كحل رباني وحاجبان بهما كثافة مدهشة.

كل المعلومات التي جمعتُها اعتمدتُ فيها على مصادر عديدة من صحفيين ومن بعض أصدقائه المقربين، حتى صرتُ - في ما أعتقد - الوحيد من بين كل هؤلاء الذي يعرف سيرة رابح الوادي المشتتة والخفية. كما أني الوحيد الذي يهتم له بينما الآخرون الذين يخبرونني عنه يعتبرون الأمر تافها لشخص خيالي عابر مثل كل الأوراق التي تذبل وتسقط سمادا للريح.

العشاء الأخير للثوار

أنا مشدود بشكل عاطفي كبير إلى نوايا الثوار وهم يجوبون الأرض بحثا عن معارك مصيرية لفهم الهوية، إنهم ثوار قبائلنا الذين كانوا وما زالوا في أذهاننا صورا أسطورية ببساطتهم في عيش الحياة، وفي تقسيمهم لزمنهم الدائري إلى مراحل يكونون فيها فلاحين وفقهاء ثم ثوارا، يُطَوِّحون بالخوف والدجل بعيدا للانشغال في التدبير الحقيقي للحياة وجعل الدورة الزمنية مستقيمة لا دائرية، تسير في اتجاهنا نحن مباشرة.

ألا يكون ما أفعله بالطريقة التي تبدو ملائمة لزمننا هو شكل آخر لتلك الحياة ؟

جلسنا حوالي نصف ساعة على الكراسي الخارجية لمقهى صغيرة ذات طراز أوروبي، توجد بشارع عبد المؤمن. تحدثنا عن أشياء قليلة ثم نهضنا كي نفترق، لكن صديقي سعيد ألح عليَّ في الذهاب معه عند بعض أصدقائه المجتمعين. رفضتُ لأنني- في العادة - لا أذهب إلى مكان أو زمان لا

أعرفه. ولكنه ألح وأغراني بأننا سنلتقي بنماذج متخيلة تعيش بيننا. ورجاني أن أجد له مخرجا من ورطة الاشتراك في مشروع لا يطمئن إليه.

في شقة بشارع محمد الخامس وسط المدينة بالطابق الرابع، وهي عبارة عن كارسونيير بها رائحة نتنة. كنبات في شكل دائري حائل المعنى وبابان مغلقان هما بالتأكيد لمرحاض وغرفة النعاس.

لم ألاحظ على وجوههم أي تعبير بالترحيب أو الرفض. جميعهم يعرفونني وأنا أيضا أعرفهم..فهم ممن صاروا معتقلين سياسيين بالمصادفة، ثم صدّقوا ذلك وهم يؤلفون قصصا مجاورة لترتيب ماضيهم بعناية نمطية، وقد تعلموا في السجن السب الذي أعماهم عن التأمل والتخلق. فعادوا إلى سياسة التذكر قبل أن ينخرطوا في مسلسل محسوب الحلقات والأجر للبحث عن فرصة الحكي ثم الاعتراف والمصالحة وجبر الخواطر. صاروا الآن معزولين أكثر في دائرتهم الفارغة. جمعوا مقالات رابح الوادي التي كتبها فيهم ومقالات أخرى في نفس السياق، جعلوها كتابهم المقدس وهويتهم الجديدة باعتبارهم ضحايا "سنوات الرصاص" !!.

هل يمكن لاختلاقات رابح الورقية أن تصنع من ناد للرقص الحداثي المسمى لحظتها بالسمورف إلى جماعة من "الثوار"، ساهمت الدولة المغربية بحسها العشوائي في اعتقال خاطئ، جعلهم ضحايا أفكار كبيرة وليس رقصات رشيقة ؟

أحسستُ بلامبالاتهم وضجرهم مني، في نفس الآن، لأنهم بالتأكيد يحتاطون ممن يعرفون ماضيهم الفني !. كانوا يشربون ويدخنون ويتكلمون بشراهة ويتحدثون عن ضرورة إنقاذ "رابح الوادي" – الذي لم يروه أو التقوه مباشرة أبدا – بإعادته إلى حقل الكتابة عبر تمكينه من إدارة جريدة

سياسية غير حزبية، يعيدون بها إلى جانبه أمجادا كانت، ورابح هو من كتب عنهم كثيرا وصورهم للناس بأنهم جيل الثوار الجدد الذي سيحرر التاريخ من كبواته المتكررة. كنتُ أتابع حديثهم الذي يعنيني وأنا متأكد بأن لا أحد كان يستمع للآخر.

اعتذرتُ عن عدم مشاركتهم في ما هم فيه خائضون، ولما كانوا يعلمون ردي مسبقا، خاطب زعيمهم سعيدا بأن يقدم لي زجاجة ماء معدني من المطبخ، فأسرعت بإعلان عدم رغبتي في مائهم أيضا، وأنا مدرك أنها مجرد بداية وفرصة لإشعال فتيل حوار جديد أكون موضوعا له.

قال لي واحد منهم وكان طالبا جامعيا معي واعتقل لسنوات دون أن يتخلص من أحقاد تملأ قلبه لأننا لم ننتحر تضامنا معه:

– دعوا الأستاذ فهو الآن شخصية معروفة. يعيش حياة النعيم والنظام، له نصيبه من الدين والدنيا. تنكر منذ زمان لنا ولطبقته.. نحن الذين نعيش في صباغتنا الأولى.

رد عليه صديقه الثمل، كما ترد المغنية الشعبية على الشيخ المنهك :

– لقد أصبح من البورجوازية المتعفنة التي لا ترى سوى مصالحها وكيف تبحث عن المزيد من الرفاهية والحياة بقناعين. فهو بالدار البيضاء مثقف وجامعي بورجوازي، وبالبادية إقطاعي قديم.

ثم أعقب كلامه بضحكة عالية ورخية مثل عجين لم يختمر، حَفَّزتِ الآخرين على الضحك تقليدا وتضامنا ومواصلة الحوار الممتع حول شخصي، كما لو أنهم في سيرك مسرحي ويجتهدون في الأوصاف والتجديد في النعوت التي سمعوها من معتقلين آخرين يستعملونها ضد الدولة المغربية، فاختاروا لرنينها الجميل إسقاطها عليَّ بدون تعديل.

ولاحظتُ أنهم يتكلمون عني بصيغة الغياب، ودون أن ينظروا إليَّ.. وأنا في حالة عادية أستمع إليهم كأنني غير معني بما يفترون، لكن تعليقا بسيطا من الشخص الثالث على يميني قاله وقد رفع رأسه نحوي، عيناه الشاحبتان بدون ماء في عيني اللامباليتين. إثره انتفضتُ وقمتُ من مكاني وفي الآن نفسه بدر مني رد فعل يوازي انحطاط تلك اللحظة البئيسة، بعدها خرجت رفقة سعيد وقد لاذوا إلى صمتهم قانتين.

ونحن في خطوتنا الأولى خارج الشقة اللعينة التفتُ إلى سعيد، بعدما لم أستطع منع نفسي من الضحك. ثم صرنا نضحك ونضحك خلال نزولنا عبر أدراج العمارة، وصديقي فرح لأنه نجا منهم بهذه الصيغة حيث سيعمدون إلى إصدار بيان ثوري ضدي يشجبون فيه بلغة عنيفة تصرفاتي اللامسئولة والتي تنم عن ضيق أفق الانفتاح عندي ولجوئي إلى أسلوب غير حضاري.

سألني سعيد لماذا فعلتُ معهم ما فعلتُ، فقلتُ له بأنني لستُ مسيحيا أدير خدي الأيسر للذي يصفعني على الخد الأيمن. السن بالسن والعين بالعين والبادئُ أظلم ولو كان سفيها أو قردا، وهم أبطال من ورق وصدَّقوا أوهامهم رغم أننا نعرفهم جيدا.

●●●

شرعت في كتابة نص من وحي ما جرى في ذلك اللقاء. ليس عما وقع بالضبط، ولكنه ذكرني بِسيَّر عديدة أعرفها ولم أعد أعرفها، كتبتُ للنص عنوانا :(مرآة الأعمى)، ثم أهملتُ الكتابة إلى حين، رغم أن أفكاره كانت ساخنة تتعجلني. فقد كنتُ منهمكا في إتمام قراءة بعض الكتب.

كْلاكيت..آخر مرة

قبل بضعة شهور، يئس السيد رابح من عزلته وتنكره الاختياري،

وأحس أنه شبيه بروبنسون كرزوي في نسخة رديئة ومشوهة وذات نهاية غامضة غرقا.

قرر الإفشاء ببأسه لأحد أصدقائه القدامى، بعدما زاره بحديقة بيته في حي الرياض بالرباط. وكما هي اللعبة، حمل الصديق القديم الخبر إلى كل القدامى في اجتماع للقيادة الحزبية.

بعد أقل من أسبوع أصبح مسئولا إداريا مهما في مكتب الإدارة المركزية لكل أنواع القمار، من كلاب وخيول وصالات سياحية داخل مركبات رياضية خاصة رفيعة المستوى.

الآن أحس السيد رابح أنه وجد نفسه وعادت إليه الحياة التي لم يعشها خلال ستة عقود راشية ومستعارة خلت.

صار يلبس لكل يوم لباسه بطقوسه، ويحتل الصفوف الأمامية بمسجد أهل فاس كل يوم جمعة، يمارس العديد من الرياضات المناسبة لسنه، ولا يدخل البيت إلا بعد المرور، لساعة واحدة على حانة فندق هيلتون.

لا يفوت عليه صلاة الفجر والدعاء الغريب الذي يطلبه وهو يرجو من الله أن ييسر له في إيجاد بنت الحلال لإتمام نصف دينه. كما لا يُفَوِّت يوميا بمكتبه الفاخر الاستماع إلى الأغاني الجديدة للفرقة الموسيقية المسماة الجوق الوطني الرسمي.

نحن في جزيرة لا تشبه أطلنتيس ولكنها غارقة في هوائها. ورابح الوادي لم يعد يعرف كتابة اسمه، فتحول إلى أسماء مستعارة تاه بداخلها ولم يقدر على الخروج من دوائرها، فاختار عالم الموضة والكلمات المتقاطعة والأبراج ثم سباق الكلاب والخيول والبوكر..وفي النهاية اكتشفَ أنه لم يكن سوى بطل من ورق.

●●●

أشعر برغبة في رؤية السيد رابح عن قرب، بعدما اهتدى في نهاية العمر - وقد أصبح غير صالح للاستعمال - إلى تصور متكامل عن الحياة.

أعود بدوري فأقول بأن المسافة التي بيني وبينه مرآة يرى فيها الأعمى مصيره القريب جدا من عكازه، وأرى فيها كل شيء يُشعرني بالضجر والملل وضغط الانتظار والمفاجآت المختبئة وراء كل لحظة من زماننا. لذلك أعود إلى عالمي الحقيقي نحو مريم وهي تشتكي من كثرة القطط في حين وتفكر في طريقة لتجميعها في السيارة وتصديرها إلى البادية. أما زينب فإنها لا تزال تسرق صوري وتضعها في دفاترها..وتشرع في التفاوض معي ابتداء من يوم الخميس عن المكان الذي سأحملها إليه يوم السبت، ومشيا على الأقدام.

أما مفاوضاتنا مع الفلاحين، أنا وبويا، فقد أسفرت عن نتائج ملموسة وباهرة في جولة أخرى من جولاتها التي لا تنتهي إلا لتبدأ.

●●●

لم تعد لي رغبة في كتابة الرواية، ليس منذ الآن، بل منذ عقد ونصف لقناعتي بأن الحياة أهم من أية رواية. فبعد عشر سنوات على صدور رواية "رائحة الجنة"، كنتُ قد كتبتُ روايتي الجديدة "مجازفات البيزنطي" لأنني لم أستطع تجاهل ما يختمر بداخلي، فدفعتها للنشر وقد وضعت عليها اسما مستعارا(عبدالله العيساوي)، لكنني عدتُ في آخر لحظة إلى نفسي واستغفرتُ ربي معتبرا أن النص مثل الولد لا يحق أن يُنسبَ لغير أبيه ؟. تخريجة مُرَّة وعبثية.

نصوص بدأتها وتوقفتُ، لأن الحياة تغمرنا ولا تتركنا نتنفس إلا داخل جريانها العنيف. سويعات الصباح وبعض الصباحات الكاملة المنزوعة من

كبد الشتات الذي يمزق الزمن الشخصي والجماعي. الحياة الجميلة لا تحتاج إلى مؤرخ أو مبدع ليقيد غُنجها في لياليها الضاوية.

– هل تريد كتابة كل شيء ؟

أنا مجرد هاو، أقطف التوت وأغطيه بورق الخوخ والرمان للتمويه، أحترفُ الكتابة في لحظات مسروقة، كما حصل لي مع الأدب تماما، وأنا تلميذ بالسنة الأخيرة من الإعدادي، كنتُ عاشقا لعلوم الرياضيات مع رغبتي مواصلة الدراسة في هذا الاتجاه بشغف وحب كبيرين، وباحتراف إلى جانب الأدب الذي كان عندي هواية مثل صيد العصافير، لكن السنة تلك صادفت عدة احتجاجات وإضرابات تلاميذية من أجل أفكار كبيرة وأشياء تافهة، نثأر فيها من الأفول القريب منا، ولما جاءت نهاية السنة وخلال الدورة الثالثة من الامتحانات بقيتُ إلى جانب قلة قليلة جدا من الأصدقاء في احتجاج مقاطعين الامتحانات النهائية، مما ترتب عنه أن وُجِدْتُ في المداولات التوجيهية بدورتين فقط احتُسبتا لي مع صفر في الدورة الثالثة، فجَرَتْ قسمةُ المعدلين على ثلاثة، ورغم ذلك حصلت على معدل فوق الإحدى عشر على عشرين مما دفع بأساتذتي الأفاضل اختيار توجيهي إلى تخصص الأدب.

ليس لديَّ الآن أي انطباع عما كان يدور في ذهني لحظتئذ، هل فكرت في اقتناص الفرصة لأعود إلى الحلم بأن أكون فلاحا حاسما في قراراته لا يلجأ إلى مداورات المثقفين ومفاوضات السياسيين ؟

لا أعرف، ولكن الذي أذكره أنني لما سمعتُ بمروري إلى شعبة الأدب، قلتُ بلامبالاة: ليكن.. وكان طريقي وما زال.

هل تعكس الكتابة من نكون ؟ أنا غير نادم أبدا، ولو خيرني ربي بعد

أن يُعيدني إلىٰ بطن تلك الأمازيغية أمي، لاخترتُ نفس طريقي بكل أخطائي الكثيرة..وبزمننا الذي لم نستطع حتى الآن أن نجعله يقودنا نحو الأفضل ولكننا على الأقل نعرف ماذا نريد ونضرب صفحا وصفحا وصفحا عما لا نحب. نسير برؤوس عالية وعارية ليس لدينا ما نخفيه أو نخجل منه.

– لماذا تحولتَ في كلامك من ضمير المتكلم المفرد إلى ضمير المتكلم الجمع ؟

– أنتَ تتكلم كالذي لا شُغْلَ له، أو كذاك الذي يبحث عن غِمْدِ المنجل !!

نبوءة علاء

علاء في العاشرة وبضعة أشهر من عمره، يزاوج في حياته بين الدراسة في الصف الخامس الابتدائي واللعب ومتابعة رسومه المتحركة بالتلفزة.

تَعـوَّد النهوض باكرا معي أو بُعيد قيامي. يغسل وجهه ثم يتجه نحو مكتبه لترتيب دفاتره ودروسه ومراجعة ما يريد التأكيد عليه، بعد ذلك يرتدي ملابس المدرسة قبل أن يعود إلى قمطره السحري، يخرج بعض لعبه الأثيرة، ويحاورها في صمت.

من حين لآخر نتكلم مع بعضنا البعض ويتواصل حديثنا جماعيا ونحن على مائدة الفطور في السابعة والنصف. وفي الثامنة يأخذ بيد أخته زينب نحو المدرسة التي تبعد عن البيت بحوالي عشر دقائق سيرا على الأقدام.

كل هواياته يختزنها في قمطر مكتبه بالإضافة إلى حبه، في العطل الصغرى وفي الصيف، للعب كرة القدم وهوسه باختراعات فاشلة مما لديه من خردوات؛ فهو عاشق للعب البيلبليت واليويو والخدروف كما يحب الشخصيات الكارتونية : يوغي وبليزينك تينز وايداتن جامب.

يشعر بنشوة حينما يقرأ موضوع إنشائه أمام تلاميذ قسمه، مما يدفعه

أسبوعيا لقراءة القصص والأشعار باللغتين. قبل سنتين طلب مني دفترا خاصا وشرع منذ وقتئذ في كتابة حكاية لم تكتمل حتى الآن، أوردُها كما هي دون تدخل مني إلا من بعض التصحيحات التي لا تمس أبدا أسلوبه أو جوهر النص، كما حذفت بعض الصفحات الوصفية واقترحت العنوان.

باب الحقيقة

قارة أطلنتيس جزيرة غرقتْ في البحر قبل عشرة آلاف سنة. كانت جزيرة هادئة وجميلة. الشمس فيها ساطعة. أناسها طيبون. لكن هذا لم يدم طويلا ففي يوم من الأيام سقط عليهم الكثير من الحجر الأسود والأخضر. وكان اسم الحجر الأخضر "حجر الأُركالكُسْ" السحري والشرير، فأظهر في الناس الغضب والكراهية التي كانت طول الوقت بداخلهم حتى أتى ملك الجزيرة. فرأى ما حدث لأناسها لكنه أصيب بمرض السرطان، (وأنتم تعرفون أنه أخطر مرض على سطح الأرض). فاستدعى ابنه دارتس وطلب منه أن يحتل مكانه ويصبح ملكا على أطلنتيس.

وفي يوم من الأيام ازدادت الكراهية والحقد داخل الناس، فأتى والد الملك لكن ابنه ضحك ضحكة شريرة وهو ممسك بالحجر (وكان قد أصبح شريرا) فطرد والده وابنته - التي كان لها ذئب - في يوم مكفهر وعاصفة قوية حيث لجأ إلى كهف به ثلاثة وحوش أسطورية. طلب منهم بأن يمدوه بالقوة ويحاربوا معه من أجل الخير. فقامت الحرب بين الوالد الذي له ثلاثة وحوش، وبين ابنه دارتس الشرير الذي كان له وحش هائل خُلِق من الحقد والكراهية.. فأطلق كل واحد منهما هجومه في لحظة واحدة إلى أن غرقت الجزيرة تحت الماء.

●●●

بعد مرور سبعة آلاف وتسع مئة وسبعة وتسعين سنة ذهبتُ إلى مصر لأرى الأهرام لأنني كنت متشوقا لرؤيتها. دخلت إلى الهرم الأول فرأيتُ وحشا كُتِبَ بأسفله "رع". لمسته فإذا به ينفتح ويُخرج من داخله قطعتين كأنهما جزء من قلادة فأدخلتهما في جيبي. ودخلتُ إلى الهرم الثاني فرأيتُ وحشا في أسفله كُتب اسم "سلايفر". لمسته فأخرج من داخله قطعتين مثل الهرم الأول.

وداخل الهرم الثالث وهو الأكبر رأيتُ وحشا كُتب أسفله اسم "الوحش المدمر" فانفتح وأخرج من داخله قطعتين أيضا. وعندما انتهيت كنت مندهشا جدا وأنا أحمل ست قطع عجيبة.

اقتربتُ من أبي الهول وكأن شيئا غريبا يدفعني إليه، ولما لمسته لصق بيدي شيء أخضر اللون فارتعبتُ كثيرا وسمعت أبا الهول يقول لي : لا داعي للخوف أنتَ الذي اخترناك لإطلاق سراح الفرعون.

فذهب الصبي – الذي هو أنا – إلى أبيه قائلا : لا أريد أن أبقى في مصر. أريد الذهاب إلى بيتنا.

ونحن راجعون في الطائرة اختفت تلك المادة الخضراء من يدي وعندما وصلنا إلى المنزل دخلت إلى غرفتي، جلست فوق مكتبي وأخرجتُ من جيبي القطع الست التي وجدتها في الأهرامات وإذا بالمادة الخضراء تعود إلى يدي وحينما جبدتهم كان ذهني يقول لي أن أركبهم فبدأت أركبها بتلك المادة الخضراء. وعندما انتهيت كانَ شكل القلادة على عنقي مكتملا وخرج منها ضوء ساطع أصفر اللون.

بدت وكأنها تقول لي بلمس تلك المادة، فلمستها وإذا بالكهرباء تدور حولها، وبعد ساعتين تلاشت الكهرباء ورأيتُ عينا سحرية كأنها عين فرعون،

وبعد دقيقة من الهلع والخوف خرج منها شبح فقال لي : ألا تخاف. أنتَ الذي اخترتُك لتطلق سراحي. فقلت له : ما اسمك؟ قال لي اسمي الفرعون يامي يوغي. فقلت له: هيا نخرج لنتنزه. وعندما خرجنا التقيت مع فارسة الظلام فقالت لي :عليك أن تنقذ عالمنا إنه في خطر والبشرية أيضا. قال الفرعون كيف ذلك ؟. فقالت إن ملك المدينة الغارقة أطلنتيس الذي يدعي دارتس سوف يبدأ في استجماع الطاقة من عالم الوحوش والبشرية ليوقظ الوحش الهائل ثانية ويعيد بناء اطلنتيس، ليحكمها من جديد.

أجبتها أنا والفرعون : ولكن كيف سنهزمه ؟. فقادتني إلى وحش مجمد في ثلج كثير بالقرب منه سيف ضخم. قالت لي :إذا نزعتَ هذا السيف سيطلق سراح هذا الوحش وبذلك ستهزم دارتس. ثم شرعنا في جره بقوة حتى انْتُزِع من مكانه. قلت لها: وكيف يستولي عليهم؟. ردت: إنه يستولي عليهم بحجر يسمى حجر الأركالكس، وهو الذي تسبب في غرق أطلنتيس.

●●●

خرجنا من ذلك الحلم وأنا أقول في نفسي ربما هذا خيال فقط. لكن ورقة من أوراق المبارزة بدأت تلمع فأخذتها ووجدت ذلك الوحش الذي انتزعت منه السيف.

ثم التقينا "سيطُ كايبا" الذي لم يكن على حاله فسألته : ما بك؟ فقال لي: لقد أضيف لي وحش قوي في مجموعتي. أجبته :وأنا أيضا.

وبعد برهة قصيرة رأيتُ "جوي " يعدو في اتجاهنا كأنه يريد أن يقول لنا شيئا. وعندما وصل بدأت كل ورقة من عندنا تلمع وأخرج كل واحد منا تلك الورقة التي تلمع فاندهشنا جميعا عندما رأينا وحوشا كأنها أخوة، فقالت هيا يا أصدقاء لنذهب عند " بيكاسوس" قد نجد عنده جوابا. فقال

جوي: ولكن أين سنذهب؟

أخرج سيط كايبا من جيبه هاتفا وصاح :"موكوبا". ثم رأينا طائرة على شكل وحش التنين الأزرق، أبيض العينين كان قد سرقه كايبا من محل الجد"موتو".

توجهنا بالطائرة إلى شركة كايبا فتبين لنا أن تلك الوحوش التي انحازت إلينا في مجموعاتنا الورقية اختارتنا لنحارب بجانبها من أجل الخير لبلادها (بلاد الوحوش) وبلادنا (بلاد الإنسان). وفجأة صاح ترستن: ما هذا ؟ فجاء يوغي مُقبلا بسرعة ليرى، وردَّ سيط كايبا قائلا: هذه عين الوحوش فهي التي تأكلهم وترسل طاقتهم مباشرة إلى دارتس لكي يحيي بها الوحش الهائل وأطلنتيس.

خرجنا قرب عين الوحوش واستدعينا التنانين الثلاثة الأسطورية فهاجموا العين الشريرة لكن الهجوم لم ينفع لأن العين كانت تلتهم الوحوش بشدة. وفجأة تدخلت السماء بغيوم كثيرة اختفت فيها العين. توجهنا أنا وكايبا وجوي إلى منزل بكاسوس والذي لم نجده، لكنه ترك لنا رسالة تقول: ابحثوا عن الورقة التي تمكنكم من إنقاذيْ وإنقاذ البشرية.

توجه ترستن إلى وعاء الطمع الذي صنعه بِّكاسوس من بين وحوشه المصغرة فوجد ورقة بيضاء أخذها كايبا وقال : ذلك الأحمق بِّكاسوس يتلاعب بنا منذ البداية؛ فقلت :تذكر يا كايبا أنه صانع أوراق المبارزة.

سرنا إلى الفتاة ايروكا وجدِّها العالم، فوجدناها لوحدها حزينة وأخبرتنا بأن أتباع دارتس قد خطفوا جدها وهدَّموا مختبره، ثم أعطتني ورقة مبارزة بيضاء وقالت: إن الأشرار تركوها لك يا يوغي/ علاء. قرأتها وكان مكتوباً عليها (تعالَ بارزني وراء شركة كايبا إذا أردت رؤية الجد، ولا

تحضر معك أصدقاءك).

ذهبتُ في الليل دون أن يراني أحد، لكن "تيا " رأتني فأخبرتها بأنني سأذهب لأنقذ جد ايروكا وحاولت منعي ولكنني ألححت عليها ووعدتني في الأخير بعدم قول ذلك لأحد.

ركبتُ حصاني إلى المبارزة لكن الولد الذي يحمل مجموعة الحشرات وصديقه صاحب التنانين والديناصورات تبعاني لكي يتفرجا على المبارزة ويأخذا وحوشا جديدة. في الصباح الباكر وصلتُ إلى المدينة وراء شركة كايبا فوجدتُ قائد أتباع دارتس ينتظرني حيث بدأت المبارزة واستدعيت الفرعون لكي يبارز داخل جسدي. فقال لي :هل تظنني سأخاف من هذا الفرعون. لقد كنتَ شريرا في الماضي. آنذاك استدعيتُ فارس الظلام في وضعية الدفاع ومعه دابورج ملك الرعد ووضعتُ ورقة مقلوبة حيث انتهى دوري فاستدعى خصمي زيو في وضعية الهجوم لكنه اكتفى بذلك فرأيتُ كأنه يخبئ شيئا في عينيه فهاجمته بفارس الظلام ودابورج.

قال لي: حان وقت نهايتك. ثم استدعى ختم الأركالكس فأصبحت لديه ثلاثة آلاف نقطة لكنني أيضا كانت لدي مفاجأة له حينما استدعيتُ وعاء الطمع وسحبت رع المجنح وعين الترمايوس وضحيت ببعض النقط من رع لأستدعي ورقة الدمج ودمجت الوحشين لكي أستدعي ورقة التنين رع والترمايوس الهائل وهاجمته حتى نزلت نقاطه إلى الصفر فخسر المباراة وزال عنه شر الأركالكس وشكرني لأنني أزلت عنه شرا مطلقا وسلمني العالِم جد ايروكا الذي ذهبت معه إلى منزله للقاء مع" جوي"، فأخبروني بأنه انصرف للبحث عني.

عدنا نحن أيضا للبحث عنه في المدينة فأبصرنا في السماء ختم

الأركالكس، ورأينا "جوي" يبارز أحد أتباع دارتس فإذا فاز جوي سيزول شر الأركالكس عن "ماي" الفتاة التي أعطتني نجوما لمتابعة مسيرتي عندما خسرتُ أمام كايبا لكنني فزتُ عليه أربع مرات بعد ذلك.

فاز جوي بالمباراة، لكن سيط كايبا قال : طفح الكيل وسنذهب أنا وأنت يا يوغي لنبارز دارتس وجها لوجه. فقلت في قرارة نفسي لأول مرة يدافع كايبا عن "جوي". فقال الآخرون: سنذهب معكم. وافقت على ذلك، ثم سافرنا في طائرة كايبا إلى مقر دارتس.

دخلنا إلى مكان يشبه مقبرة وصاح دارتس فينا : سأبارزك على حياة العالم وعلى شركتي.

قلتُ له : كيف..لم أفهم ؟

قال دارتس: إذا خسرتما المباراة سأستولي على كل شيء في العالم.

أخذَنا دارتس إلى مكان صخري نُقِشت عليه أسماء كل المهزومين، وخاطبنا بضحكة شريرة: هنا ستكون المباراة وإذا خسرتم سننقش اسميكما هنا..ها ها ها ها.

قال كايبا: كفانا لعبا ولنبدأ المبارزة.

(ثلاث صفحات في وصف المبارزة)

في الهجوم النهائي خسر دارتس المباراة وعاد جوي وكايبا وكل الأرواح.

خرجنا مسرورين فرأينا الشمس وهي ساطعة بعدما زال الشر، لكن منزلا صغيرا كتب عليه "هنا منزل بوابة الحقيقة" فدخلناه ورأينا بابا يشبه المرآة عليه صُوَرُنا كُتب بأسفلها أسماؤنا الحقيقية :

يوغي موتو : علاء حليفي:

سيطو كايبا :رضا موحيد ؛

جوي :عبد الحق مؤدن ؛

كريستين :علي الخلدي ؛

دارتس:بدر الياسر.

فتعجبنا لذلك وفجأة أتت فارسة الظلام وقالت لنا : لقد أكملتم المهمة الأولى يا أصحاب، وإذا أتممتم الأربع مهمات الأخرى ستصبحون أبطال اللعبة والعالم، وبالخصوص أنت يا علاء.

قال كايبا : هذه تفاهات. كيف يمكن لفرعون أحمق وأخرس إتمام أربع مهام سهلة ليصبح بطل اللعبة ؟

توجه "جوي" بسرعة نحو كايبا موجها له لكمة على وجهه وهو يقول له : كيف تجرؤ على إهانة الفرعون إنك تغار منه.

قال لي كايبا : هيا يا يوغي. بعدما أنهينا المهمة الأولى سأبارزك لكي أستعيد شهرتي.

تدخل جوي ليرد على كايبا قائلا : أحقا تريد أن تفوز على علاء بطل اللعبة. أأنت تحلم أم ماذا ؟إنه هزم أكبر شر في العالم وأنقذ البشرية..إنك أمامه لا تساوي سوى نملة صغيرة وضعيفة.

قلت لجوي : كفي يا جوي سأبارزه غدا في حلبته.

قال كايبا : سنتبارز في ساحة السراغنة لكي يشهد الناس هزيمتك.

قلت : ساحة السراغنة..ها ها لقد انتهى أمرك يا كايبا.

عدتُ إلى منزلنا بعدما دعوتُ أصدقائي ليساعدوني على التدريب وفي غرفتي حيث شرعتُ أرتبُ أوراقي من جديد.

●●●

ربما، بل أكيد أن علاء بدون فَهْمٍ ملوث بالأحكام والتقييمات والمعاني استطاع أن يرسم بريشته البريئة شيئا حقيقيا عن حيوات أبطال من ورق يتحولون في خيالاته الحية والمتوثبة إلى شخصيات حقيقية تحب الحياة وتعمل على إنقاذ العالم من الشر ومن الغرق. أما أنا العامر بالظنون والآثام وبالخلفيات والنظريات بالشر والألم والعنف، بأكثر من عقل في العقل وبأكثر من منطق لمداورة الحياة... ليست لي وأمامي غير شخوص تعيش بيننا، أرسمها بضجر وارتياب، فأجدها في النهاية ورقا بدون لون وأقرب إلى خفة "البَّابُوجينيكْ" بتعبير ولية الله الخالدة مريم وهي تضغط على الكلمة الخالية من حرف الراء الذي يعيقها ويجعلني أضحك منها كثيرا كثيرا وهي مشدوهة قبل الانخراط معي في ضحك حقيقي.

١٠- نشيد خيالى ومرثية قديمة

سرد بلا كلام

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والربع صباحا، حينما نهضتُ مفزوعا من نومي -إنْ كان نوما- أتصببُ عرقا، دائخا أسبحُ في آثار العالم الذي كنتُ فيه قبل قليل. رميتُ عني الغطاء بسرعة ثم مددتُ رجليَّ خارج السرير، وقد صرتُ في وضعية الجالس على حافة الفراش.. وسط سكون تام وضوء عمود النور الخارجي يخترق ستائر الغرفة عبر النافذة بلون بنفسجي خامل ورقيق. قمتُ منزعجا من حلم رأيته، دون أن أنتبه أثناء خروجي من الغرفة أني أحدثتُ بعض الجلبة.

في المطبخ، مددتُ يدي إلى فوطة بيضاء، مررتها أمسح وجهي وعنقي من العرق المتبقي بللاً. احترتُ في ما أفعل بعدما جلستُ أستردُّ باقي أنفاسي المشتتة في العالم الآخر وهيَ تعود إلي فُتاتا مُرتعشا. لم أنتبه لقيام زوجتي بسرعة، مذعورة بدورها، تقترب مني، تمد يديها تتحسس رأسي وصدري ثم تسألني عما بي، فلا أجيب وأنا صامت وسط لجّة الذهول مُطَأطَأ الرأس. فقط، أتحسس بإبهامي ما بين حاجبي قبل أن أحوله إلى ما خلف أذني. أرفع رأسي حينما مدت إلي كوبا من الماء. تناولته كاملا بلهفة لم أكن أعتقدها ثم وضعت الكأس جواري دون أن أنتبه إلى يدها الممدودة.

عدتُ ورفعتُ رأسي إليها أتأملها كما تأملتها أول مرة، فارتابت وعادت تسألني بصوت حزين، خائف ورقيق عما حاق بي في النوم.

دون كلام مني، فهمتْ أنه حلم قاس على نفسي أخْرَسَني النطق. فقمتُ إلى غرفة علاء الذي وجدته مستغرقا في نومه، ممددا على ظهره. دخلتُ الفراش إلى جواره. أخذته إليَّ وعانقته بعدما أدخلتُ رأسي في حضنه

الصغير مثل طفل خائف، ونمتُ وقد هدأ روعي وعادت إليَّ الطمأنينة مرتابة.

مصادفات يُرتبها القدر

كان شيئا مفرحا لي أن التقيتُ في بداية هذا الشهر بمدينة سطات، صديقي رحال الكرواطي الذي أخذته معي إلى أقرب مقهى، نتكلم ونحتسي الشاي.

رحال رجل يقترب أو يجاوز سن السبعين، وهو صديق والدي منذ الثمانينات في إطار معاملات فلاحية وتجارية، فهو ينتمي إلى منطقة بني مسكين في الحدود الجنوبية للشاوية، وبها يقطن. يشتغل في الفلاحة وتجارة المواشي.

يقضي في حقولنا رفقة بهائمه وأبنائه حوالي أربعة شهور في السنة. وقد توطدت علاقتي به لطيبوبته التي تتماس أحيانا مع السذاجة والحكمة، وكذلك بأبنائه من زوجتيه.

كنتُ أحب الاستماع إلى كلامه الذي يشبه الحكايات الخرافية بعدما كان يدخن الكيف، وهو محترف فيه، لا يقربه إلا في أوقات محدودة وبكميات معلومة.

يحب التدخين وشرب الشاي المقطر قبيل وبُعيد كل فرض صلاة بطريقة غريبة، دون أن يلتزم بعدد الركعات أو بتلاوة الآيات كما هي (والحقيقة أنه كان يصلي صلاة المغرب وحدها. وقد استثمرتُ هذا الحدث اللاديني في روايتي "أنا أيضا" مع شخصية حقيقية أخرى لا علاقة لها بالسيد رحال). وحينما سألته قال لي ما معناه بأنني لم أدرك، بعدُ، حقيقة ما أرى. وهذا هو الجانب الذي كنتُ أحبه في السيد الكرواطي، عفويته المغموسة في ما

هو غيبي وغرائبي، وتلك الحِكم المترتبة عن صعود أبخرة الكيف إلى مساحات الدماغ الصامتة. وقدرته المكتسبة على تبرير كل شيء.

جلوسه إلى كيفه هو لحظة المتعة والتأمل والتفكير في شئون الحياة بطريقة تختلف عنده عن تدبيراته وهو خارج هذا السياق العزيز.

يحب كثيرا الاستماع إلى الطرب الشعبي المحلي ونشرات الأخبار والنشرة الجوية من خلال المذياع والكاسيت. ولأني أبحثُ باستمرار عن الغرائبية في رحال الكرواطي، فقد كنتُ أسأله عن كل شيء يدفعه لإبداء رأيه وموقفه، فيسرد الحكايات ويتفرع في الاستطراد والأمثلة من الدين والسياسة (من خلال ما يلتقطه من المذياع) ومن الثقافة الشعبية والأمثال والأغاني والألغاز. وقد تحاورنا طويلا حول الأغاني الشعبية ونحن نجتهد معا في فهم معانيها، فأقدم له تأويلات مجازفة أبررها أنا أيضا له ولنفسي حتى أستمع إلى توقعاته المفرطة.

بعدما تأكد - كما قال لي - من استيعابي لأسرار "الكلام" الذي تغنيه المغنيات الشعبيات "الحقيقيات"، شرح أخيرا وجهة نظره ومفادها أن ذلك "الكلام" ليس كلاما بشريا وإنما تنزل به " الزَّفَّانات " من السماء في أذن وقلب الفنانات الشعبيات فتلتقطنه لكي يجري غناء ساحرا على ألسنتهن.

كان شيئا جديدا بالنسبة لي ولمعرفتي سماع أن الغناء الشعبي تزفه كائنات يسميها رحال الكرواطي الزَّفَّانات والتي ليست إنسا ولا ملائكة، وإنما توليفة من كائنات سماوية/ أرضية.

أتستطيع سنابل الروح المسماة كيفا أن تجد تفسيرات جذرية وثورية لما لم نستطع الدنو منه والنبش فيه؟.

فاصـل

رائحة زكية ونفَّاذة من بخور يمني تتخايل في غنج فاضح أمامي تغمر البيت والنفس في تلك الظهيرة. تمددتُ وقد أدرتُ زر المذياع على مؤشر محطة جهوية. أغمضتُ عيني وأنا أستمع إلى عناوين الأخبار، تلتها أغنية مغربية لمحمد الحياني ثم نمت.

قمتُ بعد حوالي نصف ساعة، هممتُ بتشغيل هاتفي ثم عدلتُ عن ذلك، وخرجتُ مشيا في اتجاه مقهى "كازافورم". تصفحتُ الجرائد التي كانت معي والأخرى الموجودة بالمقهى. وفي الثالثة والنصف وصل أصدقائي وبقينا مجتمعين حتى السادسة.

أحسستُ بالتعب والإرهاق جراء كثرة الاجتماعات والمناقشات، فلم يخْلُ يوم من اجتماعين أو ثلاثة. روحي تبدو حية ورشيقة رغم ذلك، وسط جسم منهك تفضحه عيناي الحمراوين.

مررتُ بصيدلية (٢ مارس) حيثُ اقتنيتُ حبوبا فوارة من "افيرالكون ودوليبران"، ثم عدتُ إلى البيت، مباشرة نحو الفراش وقد شعرت ببعض الحمى.

هيأت لي زوجتي كوبا دافئا من عصير الليمون الممزوج بالحامض والقرفة وإصبع مفتت من الثوم، ثم نمتُ.

بداية الكلام

أنا أحب الحياة كما لم يحبَّها أحد، ولم أخش الموت أبدا كما لم يخشه أحد. أحبُّ القصائد الشعرية الصادحة بالفخر والتحدي، وأحب الأحلام بعينين مفتوحتين:أما أحلام النوم فهي رسائل لغوية ترجو تأويلات قريبة وبعيدة، والحلم أيضا كما أتخيله يسكن بأدمغتنا داخل قبو/ بنيقة مظلمة وعتيقة ذات باب موصد وأكثر عتاقة، يسمع صريره ذو الرجع المتكرر كلما

انفتح، هناك تختبئ الأحلام مثل راهبات لا يحفظن سوى كتب السحر والتاريخ والفقه.

هل ما رأيته كان حلما طالعا من خزائني التي نهبتُ منها لكتاباتي كثيرا وما نفدت؟ أم هو رجْعُ ما وقع لي في هذا الشهر وفي أسبوع واحد حينما نجوت مرتين من حادثتي سير مميتتين بالطريق الرابطة بين سطات والدار البيضاء. الأولى مساء يوم الأربعاء أثناء عودتي من سطات على متن سيارتي وقد أغراني الغروب وكلمات أغان تطرب ؛ شاحنة كبيرة من الاتجاه المعاكس تجاوزت سيارة أمامها ذات علامة أجنبية تسير بسرعة بطيئة في البداية، ولما أحست بالشاحنة تتجاوزها زادت من سرعتها فعجز صاحب الشاحنة عن إتمام التجاوز أو الرجوع حيث كان. فخفضتُ من سرعتي وحدقت أبحث عن وجه السائق الذي انتبه للمقلب القاتل، فقرر تضييق الخناق على السيارة، ليترك لي فرصة المرور والنجاة دون الاصطدام به كما يقع في حالات كثيرة بهذه الطريق. مر كل هذا في ثوان محسوبة.

أما المرة الثانية فكانت يوم الجمعة الموالي في الخامسة وعشر دقائق وبنفس الطريق التي أُقارعها أسبوعيا، ولم ينفعني هذه المرة إلا الخروج بسيارتي مُكرها إلى حقل فارغ في منعرج بعدما فاجأتني سيارة أجرة كبيرة.

حلم يعلو على الواقع!

هل كان حلما أن أرى نفسي ميتا؟.

لا أعرف حتى الآن أسبابه واللحظة الفاصلة بين العالمين، رغم قناعتي أننا في سلالتنا نُعَمِّرُ طويلا ولا نموت في شبابنا إلا إذا غدر بنا الغادرون.

لذلك لم أُشْغِل نفسي بالبحث عن الكيفية التي قضيت بها نحبي.

شعرتُ بموتي في الصباح.ربما في شهر أبريل. ولم يتم دفني إلا قبيل الغروب بمدينتي وسط أناس أعرفهم ويعرفونني، وفي مقبرة تُطل على حقولنا التي صارعتُ طويلا لأجلها.

أراني غير مركز، مشوش الرؤية والبال والفؤاد، مندهشًا ربما مما سببته من ألم وانشغال بي لكل من هم حولي وأنا جثة هامدة.

وهأنذا أجرب الموت كما جربتُ الحياة يوم ولدتُ. أرى أشياء كثيرة بروحي وأسمعها بأنني وأنا أُخَزِّنُها لليالي القادمة التي سأكون فيها وحدي..

حينما نزلت القبر، لم أعرف كم بقيت من الوقت إلى أن جاءني ملكان طيبان، لم يضجرا من عملهما منذ آلاف السنين. لم أجرؤ على سؤالهما هل هناك غيرهما ممن يقضي هذه المهمة أم هما الوحيدان المالكان لقدرة الحضور في عدد لا محدود من الأمكنة وأنا الذي كنت دائما لا أحب أن أُشْغِلهما بي.

كانا يتأبطان سجلين ضخمين عليهما اسمي، لم أجرؤ مرة أخرى على طلب إمدادي بهما للتصفح، ففيهما قطعا سيرتي الكاملة والأصلية وتقييمات دقيقة تخص كل تفاصيل حياتي مما أعلمه ولا أعلمه. والغريب أني لم أشعر قط بالخوف ؛فبالي مشدود إلى الصور التي رأيتها أثناء موتي ودفني... ربما لأني مطمئن إلى الملكين جواري، أو لأني في كل حياتي كنت في امتحانات لا تنتهي.

فهمتُ من كلامهما معي أنه لا ذنوب لي، وما كان لي من هنات وأخطاء إنما هي أمور دنيوية لم تتجاوز الحدود المسموح بها. وهنا أيضا لم أجرؤ

على القول لهما بأن حكمة ربي أوسع من عقول العالمين، فهو الذي خلقنا بشرا خطائين وترك لنا مساحة لأخطائنا وحدودا يحاسبنا عليها.

خلتُهما سينسحبان ولكنهما شرعا يحاوراني في الأدب وفي ما كتبتُ في الدنيا. سألاني عن بعض المعاني والمقاصد في رواياتي. وكنت أجيب متحمسا كما لو أني في ندوة أمام أصدقائي.

قال لي الذي كان على يميني بما سيفاجئني :

– إلى أية درجة تحب سيدي علي الشاوي الذي كتبت عنه في صحيفتك "زمن الشاوية "؟ وهل تحبه لأنه صار خيالا أم لأنه جدك ؟

قلت له بدون تفكير أو تردد :

– هما معا أيها الملاك الرحيم.

– وهل تحب رؤيته واللقاء به ؟قال كمن يمدني بحياة أخرى.

أنا ميت منذ الأزل !

ونحن بالمقهى نشرب الشاي، سألته عن حاله بعدما رأيته وقد تخلى عن "شَدِّه" الذي كان حريصا على لفِّه نظيفا فوق رأسه لفات محسوبات.

ربما لم ألتقيه منذ عشر سنوات أو أكثر بقليل، وكنتُ أسأل بويا من حين لآخر عنه وهو الذي أخبرني أن زوجته التي كان يعزها قد ماتت ؛ الزوجة الأولى وهي في مثل سنه أو أكبر، كما هاجر أبناؤه الذكور إلى ايطاليا دون عودة، فيما تزوجت ابنته الوحيدة وتركته.وقال لي بويا بأنه لم يعد كما كان في كامل شعوره.

رأيتُ كل هذا في نظراته الزائغة والمشتتة وشعره المبعثر وقد غزاه الشيب كاملا. من قبل هذا كان يكلمني دون أن يرفع عينيه، وكنت أعتبر

الأمر شكلا من أشكال الأدب والطيبوبة وهو يناديني بولْدْ بويا، وحينا آخر بولد عبد السلام، نسبة إلى جدي. أما الآن فهو يحدثني محدقا بنظرات طائشة.

حاولتُ ربط ما سمعته عن حالته من والدي ومما أراه، وقد سعيتُ في البحث عن سبيل لحوار يكشف لي شيئا. فجأة يُسندُ رأسه إلى الوراء يتركه متدليا وهو مغمض العينين، ثم يفتح فمه مبتسما كما لو كان يستمع إلى نداء داخلي أو إلى صوت من العالم الخارجي للزَّفَّانات.

استمر هذا الوضع لدقيقة أو أكثر، ولم أتجرأ على سؤاله، لكن الأمر سيتكرر لأربع مرات خلال جلوسي إليه في تلك النصف ساعة، فسألته عما به، وفاجأني بأنه يحاول استراق السمع إلى ما سيقع !!. كررتُ السؤال بصيغة أخرى، فردَّ علي بأنه لايجري عليه ما يجري على الأحياء لأنه ميت منذ زمان بعيد.

فكرت في اصطحابه معي إلى الدار البيضاء وزيارة طبيب نفساني، فسألته أن يأتي معي في المساء والبقاء عندي ليومين أو ثلاثة، فرفض بشدة. ولما ألححتُ عليه قام متأثرا وهَمَّ بالكلام ثم صمتَ، فقمتُ معه وقد صرفتُ النظر عن شيء لا يريده.

وفي طريقنا، لا أعرف ما الذي جعلني أسأله عن الزَّفَّانات والفن الشعبي؛ فابتسم وشعر بالحبور ثم شدني من يدي ونحن نَعْبُرُ الحديقة المقابلة لقصر البلدية فدعاني للجلوس. أخرج عدته ودخن وهو يحدثني عن أسفه لغياب الأعراس التي لم يحضرها منذ سنوات..فاقتنصتُ الفرصة ودعوته للحضور معي في آخر سبت من هذا الشهر لحفلة مع أصدقائي.

رحب بالدعوة وقال لي بأنه سينتظرني بنفس المكان في السادسة مساء.

شعرت، بعد رفضه دعوتي إلى الدار البيضاء، أنه أراد مجاملتي بقبول دعوة مازالت بعيدة بثلاثة أسابيع.

قمنا وتوجهت إلى سبيلي الذي كنتُ فيه، فيما شد رحال الكرواطي رِحاله إلى محطة سيارات الأجرة المتجهة نحو البروج.

رسالة أخيرة

كان الزمن شيئا غريبا عني ومخالفا للزمن الذي ألفتُهُ. رأيتُني في ربوة عالية وسط أشجار فواكه كثيرة، تقدم مني جدي علي الشاوي الذي عرفته وعرفني ووجدته أكثر تشوقا للقائي.

– رأيتُ كل حياتك، يا روحي، وأنتَ تعيشها. كما لو كنت أنا. كل مساء في خيمتنا أنا وجدتك وأبنائي وعمك الهبطي والهداوي إلى جوار ربنا الكريم، كنتُ أحكي لهم ما أراه عنك..ونسعدُ كثيرا. (قال لي وهو يضمني إلى صدره الحنون).

– لا أستطيع العيش دون سلالتي وأنتَ من أعطيتنا سببا كي نحيا ونموت بفخر وعِزَّة. (قلتُ له).

– بل أنت من جعلتنا حقيقة بعد أن طمرَتْنا الشياطين. ونحن هنا في جنتنا التي تركناها بالشاوية... كلهم ينتظرونك بشوق. (قال لي).

(دمعتْ عيناي وأرجعتُ رأسي إلى الوراء أنظر إلى سيدي علي الشاوي)

– ولكني ما زلتُ أحب الدنيا. مريم أسيدي تنتظرني ولا أريد أن تحزن أكثر من هذا عليَّ.

(بدتْ عليه علامات الحزن والغضب وظهر بعض التوتر جليا في كلامه

وهو يرد عليَّ).

– غدروا بي وأنا في مثل سنك، ثم تركتُ أبنائي وزوجتي دون علم بما سيلحقهم في مؤامرة كانت لتصفيتنا. الله، يا روحي الغالية، قادرٌ على كل شيء.

معانى مخبأة بعناية

رمشتْ روحي فوجدتني في اللحظة السابقة إلى جوار الملكين. وقال الذي على يميني:

– وماذا عن شامة ؟ لأجلها شفع لك ربك وربنا عز جلاله الكثير من ذنوبك، وقد أحياها الله بعدما كانت خيالا في وجدانك وبث روحها في زوجك وابنتيك اللائي يعبدن الله ويسبحن باسمه.

حينما سمعته يكلمني عن شامة ارتخيتُ وشعرت بقشعريرة تهز كياني وأنا أرى في المِرآة كل شئ:

"شامة المتخايلة، مثل الشفق على الدوام، تحب المشي من منحدر الغروب إلى قمة الشروق، وحينما تتعب تتحول خطواتها إلى نوم خفيف أو حلم يمشي. في عينيها سواد روحاني يوهم أنه كحل كثيف رُصَّ بإتقان، من ثم تنطلق نظراتها البارقة في اللااتجاه، خافتة ملونة لكنها عامرة بذهول ساحر، وبراءة مطلقة".

– مساء الخير شامة. يا دنياي كنتُ كتبتُ عنك أشياء كثيرة ثم شطبت عليها لأني بدوتُ فيها قريبا من نفسي..فهل أنت كذلك ؟

– لا أستطيع استيعاب محبتك لي... امنحني روحك كلها كما منحتها لسيدنا علي الشاوي؛ ففي بعض الأحيان تلعب أرواح الناس أدوارا مهمة

في التواصل لتعطي إجابات تعجز الكلمات عن احتوائها(قالت وهي تداري خجلها).

- أكيد أن نور الله مازال مُتَّقدا في قلبك وتحاولين إخفاءه كولية مقدسة تخبئ أسرار حبها الأول والأخير. أنت شمس تاريخنا وحياتي والنور الساخن في قلب يضيء الليل القادم. (قلت كما أقول دائما).

- ... (ظلت صامتة)

"- أتحبين الشاوية أم الجنة ؟

شامة أحستْ بارتياح غريب وهي تقفز فوق فداحة السؤال وتقول :

- الشاوية هي الجنة أبويا.

شامة.. ماذا ستسمين أطفالك ؟ قلتُ أناوشها بالسؤال. (غطت وجهها بيديها وظلت صامتة). أنا أعرف أنك تحبين روحي فدعيها تختلط بروحك الأزلية، لا ترددي، فقد تندمين على كل لحظة من دون ظلي".

كلاكيت: الأعمى يفقد المرآة

كل إنسان بداخله أسرار ومقدرات، ومقدرة رابح الوادي أنه متعدد المواهب، وهذا قدر عدد من هذا الجيل الموهوب. ولعل وجوده على رأس إدارة خاصة بالقمار قد علمه أو أكد له أن الكثير من الأشياء في الحياة أساسها خدعة. لكنه الآن وقد تحصلّت لديه هذه القناعة فاتبع نمطا ثابتا في حياته بعد زواجه في تلك السن المتأخرة من موظفة هرمة، تزامن ارتباطها به بهديتين من الله : الأولى حصولها على المغادرة الطوعية وهي في سن الرابعة والخمسين، أما الهدية الثانية فهي الزوج التاريخي الذي يكبرها بأزيد من عقد ونصف، وهذه النقطة تعول عليها الزوجة المصونة في

حال احتجاج الزوج حينما يكتشف أنه ارتبط بخردة عامرة بالأمراض المزمنة والعابرة وأيضا الكامنة في انتظار فرصة الظهور.

لا أعتقد أن السيد رابح سيشغله جسد المرأة بقدر ما هو مهموم بتفتق موهبتين إضافيتين تُدران عليه ربحا مهما، رغم أنه يصرح لأصدقائه وزوجته أنه يعمل من أجل التعبير عن حبه لهذه البلاد وعهدها الزاهر وتكفيرا عن السنوات التي كان خلالها مغررا به.

موهبته الأولى أنه صار شريكا في امتلاك سيرك وطني وبات يشرف على الإعداد الكامل لوصلة يومية خلق لها شخصية وهمية - على غرار الشخصيات الكارتونية الورقية - أسماها "الشاب فوعا" وجعله يمثل دورا بطوليا في الحياة السياسية للبلاد ويصبح منقذا لهذا العالم من الخيبات المزمنة.

أما موهبته الثانية فتكمن في تعيينه بظهير شريف ككاتب رسمي للنصوص الشعرية والبْرَاوَل الزجلية للفرقة الموسيقية المسماة الجوق الوطني الرسمي للمملكة المغربية الشريفة.

أنا ميت فى حلم من؟

انتهى حواري مع الملكين فقعدتُ وقد شعرت أن الله قد منحني في الآخرة مَلَكَة الرؤية كما منحني في الثلاثة أيام الأخيرة لي في الدنيا ملكة الرؤيا.

هذه ليلتي الأولى، أو ربما ليلة واحدة من الديمومة، وهذا جزء منها. أرى وأتذكر يوم مت في تلك الصبيحة الدافئة، وكيف ذاع الخبر وانتشر عبر الهاتف والبريد الاليكتروني بين الأصدقاء.

أحس أني الآن قادر على الانتقال بروحي عبر عدة أزمنة وأمكنة بدون قيود، لذلك رأيت كل شئ رتبته بطريقة رياضية في ذهني ضمن ثلاثة مشاهد كبرى :

المشهد الأول حول عائلتي الصغرى من زوجتي وأبنائي، والذين لم يصدقوا سقوط هذا الحِصن. ابني البكر فهم معنى الموت فشرع يبكي بحرقة وقد تملكه الشعور كيف لا أكون إلى جواره حيث كان يتعلم مني ويستمد قوته، سيشعر بمذاق الوحدة كلما عاد في المساء، أو خلال أيام السبوت والآحاد والعطل، فيخلو إلى وحدته مثل الأنبياء. أما زينب فأدركت بدورها شيئا فشيئا الأمر وبدأت تبكي وتتمرغ ثم تسللت ودخلت الغرفة التي أنا ممدد فيها على فراشي. وارتمت عليَّ فنزلت دموعها حارقة مثل شلال خرافي. ثم جاء علاء ومريم وراءها وارتموا جميعهم عليّ كما كانوا يفعلون في الحياة، لكن هذه المرة يبكون ويتمرغون فوقي ودموعهم قاسية تهطل دونما توقف. مريم كانت مذعورة وهي تبكي وقد تبلل كل جسمي. لقد فهمتْ ولم تفهمْ، اتجهت تقبلني بقوة في فمي وأنفي وعيني وأذني..كما كانت تفعل في حياتي.

تمنيتُ لو أقوم من موتي حتى لا أراهم في هذه الحال. تمنيتُ لو أن الله أحياني لأبقى بجوارهم حتى يكبروا، وأسعد بهم كما سعد بي أبواي، بحياتهم وكفاحهم، تمنيت أن يشعروا بي إلى جانبهم وأنا بالقرب منهم أحميهم من أحابيل الدنيا، كما حماني بويا. وأسهر حتى أجعل من ابني عَرَّاب السلالة كما كنتُ.

الآن تذكرت لماذا كان حبهم الاستثنائي لي في الأيام الأخيرة، رغبتهم

في اللعب معي وتقبيلي باستمرار، بل النوم إلى جواري والخروج معي. أما مريم فصار كلامها غناء وتحرص على النوم إلى جواري ولا تنام قبل أن أحكي لها حكاية أجعلها بطلة إلى جوار النملة البيضاء والسوداء والأرنب والحمامة والسلحفاة والأسد..

تخيلتُ كثيرا، ولكنني لم أتخيل قساوة الفراق..خطر لي خاطر أن أقوم وأرتمي بين يدي الله ربي الكريم الحنون وأستعطفه أن يُعيدني إليهم وإلى الدنيا (حينما سأستفيق، سأفكر بيقين تام بأن قدرة الله الواحد القهَّار يمكن أن تكون قد حولت تلك الواقعة من حقيقة جارية إلى حلم يجري في خيالي، استجابة لطلبي).

زوجتي انهارت وأغمي عليها، كذلك أمي.. فيما بويا لم يصدق أن أموت وأتركه... من سيكون العرَّاب؟، ثم عاد إلى خاطره المكسور والمفتت صامتا وشاخصا في اللاشيء، لا يقدر على التفكير أو النظر أو الكلام.

أمي وبويا، أنا أحبكما أكثر مما أحب هذا البلد. لا تنتظراني بعد الآن فلن أعود. أنا هنا تحت عرش ربي.

لن أجلس إليكِ أمي، ولن أستمع إلى حكاياتك وإلى بوحك لي بما يسعدك أو يقلقك. أنت تحبين أطفالي كما كنتِ تحبينني.

بويا... كيف ستجري المفاوضات والمعارك دوني ؟.

●●●

كان عليَّ أن أحبها قبل قرن من الزمان. بل أحس بيقين حقيقي أني أحببتها قبل أربعة قرون، حينما كنتُ محاربا، أدافع عن ثغورنا المهددة باستمرار، ثم قُتلتُ غدرا في لحظات عصيبة، وبقيتِ أنتِ أرملتي.

ربي لا أريد الموت حتى أنتزع منها سلالتي التي تكون مِرآتي وتصون مستقبلي.

والآن لماذا فقدت شعورك ؟ انظري حولك تجدينني في أبنائنا ، وفي كل الأزمان التي عشناها نكافح خطوة خطوة من أجل بناء نفوسنا الشامخة.

●●●

المشهد الثاني، حصل بعد حوالي نصف ساعة من موتي، إذ بلغ الخبر إلى كافة أصدقائي. في مكتبه وهو محاط بعدد من الأصدقاء يتحدثون عن برامج للتنفيذ وعن أهم القضايا، فجأة يحمل الهاتف ليسمع بالخبر، فيكرره ليتأكد. أسقط السماعة من يده ثم ضرب على المكتب بقوة حتى تطايرت الأوراق وفنجان القهوة، بعد ذلك شدَّ رأسه بيديه وبدأ يبكي مثل طفل فقد أعز ما لديه.

تحول بويا الروحي إلى حالة أخرى، وقد بدا الحزن عليه ثقيلا ؛وتمنيتُ أيضا لو يمنحني ربي لحظة صغيرة لأحيا وأعانقه العناق الأخير.

●●●

المشهد الثالث وهو من ضمن مشاهد أخرى لا تحصى، أجلاها مشهد أدخل السرور إلى قلبي ولم يحزنّي مثل المشهدين السابقين. جماعة من الكُتاب بمقهى لم أتبين اسمها كانوا يناقشون مواضيع تهم المسرح ووزارة الثقافة واتحاد كتاب المغرب وقطاع الرياضة وألعاب القوى وإضراب قطاع النقل ووضعية الجوق الوطني والغناء والرقص....حوار طويل كان عبارة عن نميمات قصيرة جدا تتحول في أيام الكساد إلى قصص طويلة. ووسط هذا الجو، بلغهم النعي عبر مكالمة هاتفية لأحدهم فأخبرهم، وكان الخبر فرصة

للتنويع في الحديث. أول من علق بجملة بليغة أعجبتني هو كاتب قال : موان زاه (moins un). ثم صب لنفسه كأسا صافية وباردة غسلت فمه من عبارة ثقيلة لم يعقب عليها أحد.

شعرت بالرغبة في الضحك فلم أقدر.

فاصل

لا مقاييس للزمن، وربما هناك مقاييس بالتأكيد لم أدركها كوني سجين الساعة واليوم والشهر والسنة، الليل والنهار. وستلزمني بضع سنوات أو قرون حتى أخلق الانسجام الضروري ومبدأ الملاءمة بين الحركة الخارجية للتعاقب اللامرئي. لذلك رأيتُ ربي يمنحني صحائف حيواتي السابقة منذ بدء الحياة على هذه الأرض، لحظات أعيشها مسلسلة من حين لآخر في شكل صور قديمة جدا لكنها ناصعة، تطلع أمامي نابضة بالحياة، شعرتُ إثرها بقشعريرة في كل جسمي وروحي، أرى نفسي في كل حين قاتلا ومقتولا حتى صار دمي أليفا مع التراب.

●●●

قامت من غيبوبة الصدمة، احتضنت إلى قلبها الكبير أبناءنا وهي تبحث بعينيها، وقد أثقلهما حزن كثيف وثقيل، عن صورة لي، فلم تجد وعادت تنظر إلى الوجوه المستسلمة بين يديها.

فجأة، ترفع رأسها وهي تسمع صرير الباب الخشبي، بل ربما صرير تلك البنيقة المظلمة المثقلة بخزائن الأحلام، وبأبوابها العالية، فتنتبه ثم تنهض تجري وتسابق أبنائي للقائي المعتاد. وكأن شيئا لم يكن، أحمل بيدي فواكه من خوخ ومشمش وتفاح، أنزع ملابسي لأخرج إليهم وهم حولي

يتهامسون.. تغمرُهم الحياة بهباتها السخية.

ليل مُشمس

السبت الأخير من شهر أبريل، خرجتُ من الدار البيضاء حوالي الساعة الخامسة والنصف في اتجاه ضيعة صالح الوراقي لقضاء الليل مع الأصدقاء كما كان متفقا، وحينما وصلتُ الغابة، عرجت على الطريق المؤدية إلى الضيعة في ربوتها المترفعة عن دهشات الزمن. تذكرتُ رحال الكرواطي، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، فاحترتُ لكني حسمتُ الأمر بالرجوع إلى سطات بحثا عنه رغم أني مقتنع بعدم قدومه، وحتى إن حضر فقد تأخرتُ عليه بساعة وما يزيد.

بعد عشر دقائق، وصلتُ إلى المكان الذي تواعدنا فيه، فرأيته مقرفصا وقد لف شدة على رأسه ينظر إلى الفراغ، غير قلق أو مرتاب. طالني شعور مزدوج ؛ حزن لأني تأخرتُ عليه، وفرح لأنه في حاجة إلى الجلوس إلينا والاستمتاع بليلة بينها وبين السماء خيط رقيق. أخذته إلى المقهى حيث تناولنا شايا، ولم نقم إلا بعد ساعة حيث سنجد السيد صالح واثنين من أصدقائنا. عرفتهم على رحال الذي سرعان ما استأنسوا به خصوصا لما رأوا "رشاشه "الكيفي وسرعة بديهته التي انتعشت. بقينا نتحدث ونضحك ونحن نشرب الشاي ونلتقط، مثل ديكة متوحشة، ما أفرشه لنا موليد من فواكه جافة، كما سلمتُ موليد علبة من البخور ستحول ليلنا الطهراني إلى جزء من الزمن الروحاني الذي لم تدركه روح بشرية في هذا الزمن.

رأيتُ بعيني وحواسي كيف امتزجت أصداء الأصوات الطربية بالبخور المتحفز مع تأملاتنا العالية والفادحة، مع ضربات رحال الفنية من رشاشه

المصنوع من خشب جيد، وقد أعلن إيمانه المطلق والنهائي بنفسه، في تلك الليلة، أنه آخر الأولياء الصالحين في هذه الأرض التي عمرها الشياطين والأشرار.

كانت الفنانات الشعبيات الأربع قد شرعن في الصدح بمواويل افتتاحية وهن محيطات بشيخ طريقتهن القاعد مثل سياسي محنك خاض كل التجارب بدءا من القومية والرأسمالية إلى الاشتراكية، بشقيها، العلمية والشعبوية ثم العقائدية بكافة أطيافها، وأخيرا انتهى به المطاف إلى المرحلة الامبريالية. نظراته صافية، وهن على يمينه وشماله واقفات بوجوه مشرقة، ونحن نتكلم ونحكي في انتظار اللحظة التي لا نستطيع معها المقاومة أمام روائع الفن الشعبي الذي لم يمسسه بشر. وقد أفتى رجال الكرواطي حينما تبدأ الزفانات في إرسال الأناشيد إلى تلك القلوب الغضة التي تروي الزمان بشلالات صوفية تتحرر من ثقل الفهم وسوء الظن.

هذا الشيخ فعلا له أسلوب امبريالي، فهو يقود "بناته" بكمنجته السحرية كما يشاء ويريد، دون كلام أو نظرة منه، وماكر لأنه استطاع شد انتباهنا، فنرمي كل الحوارات التافهة خلفنا. أما أنا العبد الطهراني الإنساني الخطَّاء، فقد رميتُ عني عباءة الزيف التي ترتدينا ولبستُ نفسي وصوت الحقيقة يطلع من دواخلي، فتخيلتني "شيخا هبطيا" أنهَى كتابة ألواحه المقدسة لأهل الشاوية، وحان الوقت ليكتب لوحه الأخير.

كانت رغبتي دائما في دك الأرض ركا على الزيف الذي طال كل شيء، وآن أواني للاغتسال بعرق حقيقي.

لحظة لا بداية لها أو نهاية؛ حينما فهم الشيخ الامبريالي بحدوسه

اعتمالات روح الكرواطي، فاستخرج إيقاعاته المطلقة التي نهض إثرها رحال مثل سهم رشيق، هو الأخير الطالع من جراب صياد يائس. وبطريقته صار يرقص بشد يديه إلى الخلف محركا رأسه، قبل أن يعود إلى ضرب صدره بيديه في تناوب على مناحة مفترضة في ذهنه، وكلها تمهيدات للدخول في عالم الجذبة المدبرة من الشيخ وكمنجته وبناته بأصواتهن العصية على القبض والتقليد.

تبلل كل جسمه قبلنا وهو يروض الحيرة بأزمانها التي فصلت بينه وبين زوجته (كان قبل هذه اللحظة، يحدثني عنها في خفوت، بصوت فيه خطوط بارزة من الحزن والحب، وكيف أن موتها شتت كل شيء بما فيه عقله).

الأغنية التي دبرها الشيخ الامبريالي كانت تحكي عن جبال من الضيم التي يحملها رجل يبحث عن حبيبته. ورحال قد تحول إلى قائد عظيم ونحن حوله مثل أطياف مفككة.

الشيخ الامبريالي يدرك كل شيء وقد شرع في الهبوط بالإيقاع وهو ينظر إلى قائد الحَرْكة. هبوط أدركه هذا الأخير، يمينا وشمالا لا حدود لهذه الحركة المتماوجة بين الفرح العارم وبين المندبة. فهيأ نفسه للحظة النهاية التي وقَّع عليها بصرخة ستتحول إلى جملة تلتقطها فورا الزفانات ؛ قال:

اَالحْبيبة..مْشيتي وخَلّيتيني. مُتّي وقْتَلْتيني..نَتْحاقُّوا عند ربي.

اَالحْبيبة كَنْحَبَّكْ أكثر من جُو تّيمْ .je t'aime

عدتُ إلى مكاني وصرت أضحك وأضحك حتى دمعت عيناي وشعرتُ بأنفاسي وهي تهرب مني.

– لهذا يا صديقي، قال فيك أولئك المزيفون بأنك في الدار البيضاء تحيا

حياة المثقف العضوي البورجوازي الذي يبرر كل شيء بثلاثة أنواع من المنطق، بالسياسة والعلم والدين. أما في سطات فتعيش في عباءة الإقطاعي المتعطش إلى التوسع وضم ممالك الله إلى حقولك. (قال صديقي).

- على الأقل أعيش كما أحب، لا كما يريد لي غيري. ولدتُ ودرستُ واشتغلتُ دون أن أستعير عقل غيري ولم أجد أبدا طريقا مفروشا أو أضراسا تمضغ نيابة عني. أنا الذي تكلمني الآن، في حياتي كنتُ السيد والعبد، الوعد والنكث، القسم والحنث، النهر والطمي، الابن والأب، الوالد والولد، الخبر والسند، القمة والهاوية..أنا الذي لملمتُ الدهشة حبة حبة وقطرة قطرة ثم خبأتُ كل شيء في قلبي.

●●●

في الصباح، فتحتُ عيني وكانت صورة الشفق لا تزال عالقة بوجه الشمس الضاوية، وهي تطل علي من النافذة العالية، ذات الزجاج العراقي الملون. رفعتُ يدي اليسرى أمام عيني ثم شرعتُ في جعل أصابعي تنفرج في حدود ضيقة جدا عن بصري، مسترقا النظر إلى تلك النار المشتعلة في السماء منذ الأزل.

ملخص سيرة

الأستاذ الدكتور شعيب حليفي ناقد وأستاذ جامعي من المغرب.

يشتغل أستاذا للتعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء -المغرب.

يتحمل عدة مسئوليات منها: رئيس مختبر السرديات (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك)؛ مدير ماستر الدراسات العليا والدكتوراه: الدراسات الأدبية والثقافية بالمغرب ؛عضو اللجنة العلمية بآداب بنمسيك - الدار البيضاء. وعضو في عدد من الهيئات العلمية الاستشارية لمراكز ومجلات محكمة.

شارك في عدد من الندوات بالمغرب والعالم العربي وأوروبا وأمريكا في مجال الآداب والعلوم الإنسانية.

ساهم بالكتابة في عدد من الجرائد والمجلات المغربية والعربية وفي عدد من الكتب الجماعية.

أشرف على إعداد مجموعة كتب في مجالات الأدب، التاريخ، القانون، والدراسات الاجتماعية ضمن سلاسل:- منشورات الرهان الآخر - حقوق الناس- دفاتر الشاوية - منشورات ألك. د. ش - مختبر السرديات - القلم المغربي.

عضو محكم في عدد من المؤتمرات الثقافية. وفي عدد من الجوائز.

أصدر في مجال النقد :

- شعرية الرواية الفانتاستيكية. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة. مصر. ط ١ - ١٩٩٧ (٢٩٦ صفحة). ط٢ . دار الحرف، القنيطرة، المغرب،

٢٠٠٨، الطبعة الثالثة دار ناشرون، لبنان ٢٠٠٩ .

- الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. ط١، مصر. الهيئة العامة لقصور الكتاب. كتابات نقدية عدد ١٢١ط ١، ابريل ٢٠٠٢،(٥٢٨ صفحة) الطبعة ٢. الدار البيضاء ٢٠٠٣ . الطبعة الثالثة. القاهرة. دار رؤية ٢٠٠٦ . (٥٧٦ صفحة).

- هوية العلامات: في العتبات وبناء التأويل. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. مصر. ط-١، ٢٠٠٤ . ط-٢ الدار البيضاء. دار الثقافة. المغرب. ٢٠٠٥. (٢٢٤ صفحة).

- مرايا التأويل :تفكير في كيفيات تجاور الضوء والعتمة. ط١الدار البيضاء دار الثقافة ٢٠٠٩ .

في مجال الرواية:

- مساء الشوق. (رواية). منشورات الرهان الاخر. المغرب. ط١ - ١٩٩٢ .

- زمن الشاوية. (رواية). الدار البيضاء. منشورات افريقيا الشرق. ط١ - ١٩٩٤، ط٢ القاهرة ١٩٩٩.

- رائحة الجنة. (رواية)، الدار البيضاء. منشورات الرابطة. المغرب. ط١ - ١٩٩٦ .الطبعة الثانية. دار التنوخي الرباط ٢٠١٠ .

- مجازفات البيزنطي. (رواية)، الدار البيضاء. منشورات القلم المغربي. ط١ - ٢٠٠٦ .

- أنا أيضا (رواية) دار ناشرون بلبنان سبتمبر ط١ - ٢٠١٠

العنوان البريدي: ص ب المركزي ١٣٠٢٧ الدار البيضاء المغرب.
الايميل: chouaibhalifi@yahoo.com
الهاتف: ٠٠٢١٢٦٦٦١٣٢٨٢٤

فهرست

الاحتمالات العشر لكتابة رواية واحدة
- حكايات للبداية
- بُوبَا (ملحق بالحكاية الأولى)
١- أنا والمرايا في ضوءِ يونيو
٢- أرى ما أُريد وأكتبُ ما أحب
٣- لماذا نسيتُ الكلام قليلا..؟
٤- زَلَّةُ العَاشِق
٥- ١٦ (بحث في وجدان أرض الحكايات..)
٦- قوْسُ الأمَوي
٧- معجم موسيقي
٨- جمهورية مريم
٩- صحف علاء الأولى
١٠- نشيد خيالي ومرثية قديمة

أحدث إصدارات روايات الهلال عامى ٢٠١١ ، ٢٠١٢

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
جناح واحد وفضاء	محمد الفارسى	ابريل	٢٠١١	٧٤٧
الأرملة السوداء	صبحى فحماوى	مايو	٢٠١١	٧٤٨
ما فهمتكم	د. مرعى مدكور	يونيه	٢٠١١	٧٤٩
الحب والزمن	سعيد سالم	يوليو	٢٠١١	٧٥٠
فى انتظار النور	سناء أبوشرار	أغسطس	٢٠١١	٧٥١
ذكريات منسية	حمدى البطران	سبتمبر	٢٠١١	٧٥٢
السنوات الرهيبة	جنكيز ضاغجى	أكتوبر	٢٠١١	٧٥٣
والنجوم أيضا تموت	د. ليلى عنان	نوفمبر	٢٠١١	٧٥٤
الحجاج بن يوسف	جرجى زيدان	ديسمبر	٢٠١١	٧٥٥
حجر السرائر	نبيل سليمان	يناير	٢٠١٢	٧٥٦
مها تبتسم للملائكة	على ماهر عيد	فبراير	٢٠١٢	٧٥٧
عاشق تراب الأرض	أحمد الشيخ	مارس	٢٠١٢	٧٥٨

عاشق تراب الأرض

أحمد الشيخ

شريف قنديل

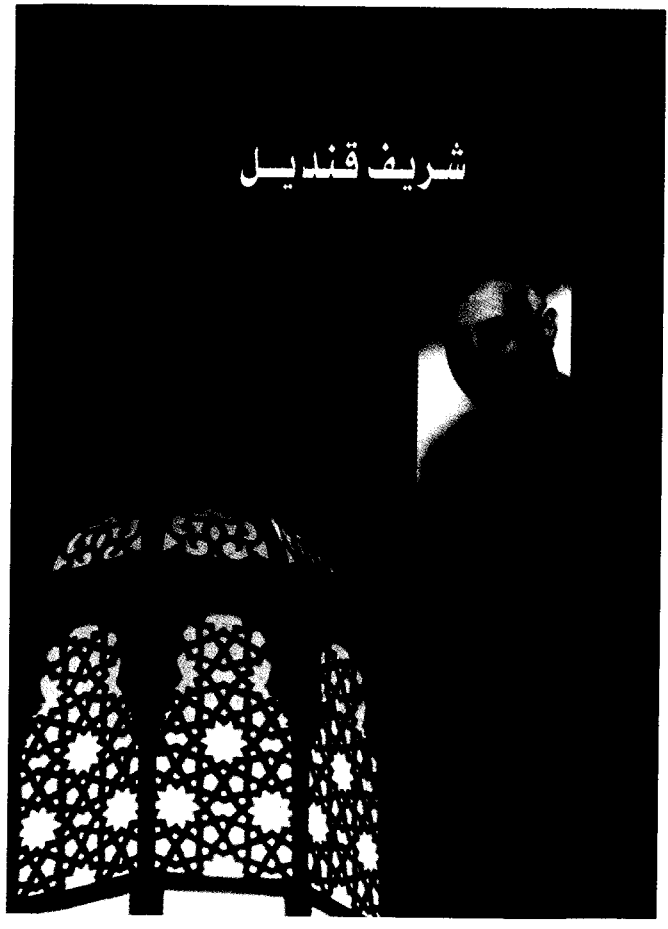

هذه الرواية

رواية "لا أحد يقفز فوق ظله" والمُذيّلة بعنوان فرعي " الاحتمالات العشر لكتابة رواية واحدة "، هي تجربة جديدة في الكتابة الروائية والتي تتخذ من الملمح السيري، بالاعتماد على تقنية اليوميات والمذكرات، وسيلة لقول روائي يكتب عن سير حيوات تزاوج بين سرد يقف على حافة الواقعية إلى جوار سرد يمتح من التخييل المفرط.

الرواية هي فصول عشرة، ممهد لها بعتبتين: الأولى باب للخيال والثانية باب للواقع. في تداخل متناغم حيث تتعاقب الفصول؛ في كل نص رواية تُكمل الفصول الأخرى وتجدد، في نفس الآن، كتابة الحياة بصيغة مختلفة عن باقي الفصول... تكتبُ متعقبة حيوات شخصيات وعوالم جغرافيتها بين الدار البيضاء وسطات المغربيتين تلتقط العابر واليومي المنفلت ولكنه يترك أثرا، الرواية وحدها القادرة على التقاطه وتحويله إلى سرد.

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
حلمى النمنم

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
هالة زكى

سكرتير التحرير
وجدان حامد

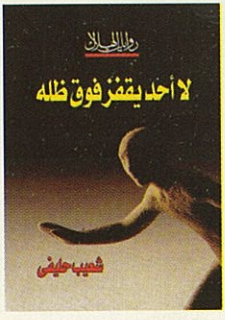

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج. م. ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الغلاف تصميم: محمود الشيخ

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩
العدد ٧٥٩- أبريل ٢٠١٢م - جماد أول ١٤٣٣هـ

البريد الإليكترونى: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه.